J i m   H a r r i s o n

جيم هاريسون

أساطير الخريف

ترجمة: سلمان الجربوع

أثر

أساطير الخريف

"هاريسون في أوج إبداعه... وقطعة استثنائيّة من الكتابة...أظن في وسعها أن تقف جنبًا إلى جنب مع أعظم ما أنتجه هذا الشكل السرديّ- روايات قصيرة لكونراد، تشيخوف، مان، جيمس، ملفل، لورنس وإسحاق دنسن... بهذا الكتاب يحتفي جيم هاريسون بالفن القديم لقَصِ الحكايات"

ريموند كارفر، سان فرانسيسكو ريفيو أوف بوكس

"يؤكّد لنا الصوتُ الملحميُّ، الغنائيُّ، المطَّرِدُ ويعيد التأكيد على أنّنا نصغي- كمايزعم العنوان- إلى أسطورة... ثلاث روايات قصيرة فاتنة، مثاليّة ومُحكَمَة."

فانس بورجيلي، نيويورك تايمز

"أساطير الخريف... رسّخت لهذا الأسلوب الحِكائيّ الذي عُرِف به هاريسون،أخلاقيّ وسوداويّ وزاهٍ بأوصاف الطبيعة."

يانان وانغ، واشنطن بوست

"تبقى طويلًا مع القارئ... أسلوب هاريسون أحيانًا مدويّ وأحيانًا صامتٌ، ينبسط على أمواجٍ من النحو المعقّد."

توماس مالن، نيويورك تايمز بوك ريفيو

جيم هاريسون (1937 – 2016) شاعر وروائي أمريكي، رحل عن أربعة عشر ديوانًا، واثنتي عشرة رواية، وتسع مجموعات من الروايات القصيرة، أشهرها أساطير الخريف، صدرت عام 1978 وضمّت ثلاث روايات قصيرة: أساطير الخريف، ملحمة في أقل من مئة صفحة تحولت عام 94 إلى عمل سينمائي شهير،الرجل الذي تخلّى عن اسمه،انتقام. تُرجمت أعماله إلى سبع وعشرين لغة وهذه هي المرة الأولى التي يترجم فيها إلى العربية.--

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

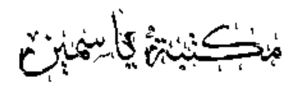

ISBN 978-1-947836-35-8



أساطير الخريف

ثلاث روايات قصيرة

جيم هاريسون



ترجمة

سلمان الجربوع



أساطير الخريف / ثلاث روايات قصيرة

تأليف جيم هاريسون

ترجمة سلمان الجربوع

الطبعة الأولى 1440 / 2019

ردمك **978-1-947836-35-8**



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar net

المحتويات



إلى غاي وجاك

أساطير الخريف[1]

1 – هوامش الكتاب للمترجم

الفصل 1

في أواخر أكتوبر من سنة 1914 ارتحل ثلاثة إخوة على ظهور الخيل من تشوتيا، مونتانا، إلى كالغري في ألبرتا كي يتطوّعوا للتجنيد في الحرب العظمى (لم تدخل الولايات المتحدّة الحرب حتى سنة 1917). شيخٌ من قبيلة شايان[1] عُرِف باسم وَنْ ستاب رَكِب جوادَه مرتحلاً معهم ليعودَ بالخيل مقطورةً خلفه فلقد كانت خيلًا أصيلةً وما كان في نظر أبيهم لائقًا بأبنائه أن يركبوا إلى الحرب على أفراسٍ مهزولة. خبر ون ستاب كلَّ الطرق المختصرة في جبال الروكي الشماليّة ولذا فقد اجتازت بهم الرحلةُ بلادًا موحشة، معظمها بعيدٌ عن الطرق والمستوطنات. غادروا قبل الفجر وأبوهم في الإصطبل بيده مصباح زيت مرتديًا معطفَه الفروَ من جلد الجاموس، كلّهم كانوا صامتين، وتنهيدةُ الوداعِ التي احتضنهم بها تصاعدت إلى روافد السقف غيمةً بيضاءَ صغيرة.

مع أوّل شعاعٍ هبّت الريحُ على شجر الحَوْرِ المُصفّر، انزلقت الأوراقُ متناثرةً على المرج العالي دافنةً بعضها البعضِ في وَهْد. عندما خاضوا أوّلَ نهرٍ في طريقهم كانت أوراقُ الحَورِ القطنيِّ الذي عرّته الريحُ عالقةً في الدُّوّامات

1 - من قبائل السكان الأصليين في السهول العظمى في أمريكا.

ولاصقةً بالصخور. توقّفوا ليشاهدوا عُقابًا أصلعَ، أنزلته من علياته أوائلُ الثلجِ في الجبال، يطارد سُدىً سربًا من البطِّ البريِّ في المستنقعات. حتى في هذا الوادي كان في وسعهم أن يسمعوا عويل الريح عاليًا وصافيًا في وجه الصخرةِ الباردةِ فوق نطاق الأشجار.

قُبيلَ الظهر عبروا قمّةَ سلسلةٍ جبليّةٍ، والتفتوا ليمنحوا المزرعةَ نظرةً أخيرة. أي أنّ الإخوةَ قد نظروا إلى أكثرِ ما يسلبُ الأنفاسَ في الريح الخام حيث دون الهواءِ النقيِّ تتراءى المزرعةُ جميلةً وقريبةً بصورةٍ مستحيلة مع أنّها الآن تبعد عشرين ميلًا. لم تبدُرْ، رغم ذلك، التفاتةٌ من ون ستاب الذي خاف أن تغلبَه العاطفةُ والذي شمخ بأنفه ازدراءً حين تجاوزوا خطوطَ سكّةِ حديدِ نورذرن باسيفيك[1]. وعلى مسافةٍ أبعدَ قليلاً عندما سمعوا العُواءَ الأسيانَ لذئبٍ عند منتصف النهار، تظاهروا بأنّهم ما سمعوه فلقد كان أشأمَ النُّذُرِ العواءُ منتصفَ النهار. تناولوا الغداءَ دون أن يترجّلوا كأنّما يهربون من الصوت الحزين ولا يرغبون حتى في الجلوس على طرفِ فُسحةٍ في غابةٍ حيث قد يهبط عليهم الصوتُ من جديد. ألفرِد، أكبرُ إخوانه، قال صلاةً بينما تريستن، أوسطُهم، ألقى شتيمةً ونخس بالمهماز حصانَه متخطّيًا ألفرد وون ستاب. صموئيل، الأصغر، التهى شاغلًا بصرَه بحيوانات المكان ونباتاته. لقد كان تفّاحةَ عينِ العائلة، وفي الثامنة عشرة كان قد أنهى سنةً في هارفرد دارسًا على نهج أغاسي[2] في متحف بيبودي[3]. عندما وقف ون ستاب على

1- Northern Pacific Railway سكّة حديديّة امتدّت عبر الجزء الشماليّ من غرب الولايات المتحدّة من مينسوتا إلى كاسكاديا. شُغّلت بين عامي 1864- 1970.

2- لويس أغاسي (1807 - 1873) أحيائي وجيولوجي سويسري درّس علم الحيوان في هارفرد.

3- متحف بيبودي لعلمي الآثار والأجناس تأسّس عام 1866 ويتبع جامعة هارفرد.

الحدّ البعيد من مرجٍ فسيح منتظرًا صمويل كي يلحق بهم، تجمّد قلبُه عند رؤية الحصان الأغبر طالعًا من الأحراش وفارسه يحمل قُبالةَ وجهه نصفَ جُمجمةِ جاموسٍ مبيضّةٍ وضحكتُه تقطع المرجَ إلى حيث الهنديُّ العجوز.

في اليوم الثالث من رحلتهم هدأت الريح ودَفِئ الهواء، وبهتت الشمسُ في الضبابِ الخريفيّ. صاد تريستن ببندقيّته غزالًا فأثار اشمئزاز صمويل الذي لم يأكل منه إلا بدافعٍ من أدبه الفطريّ. ألفرد، كالعادة، كان يجترّ أفكارَه ولا يفصح عنها، متسائلًا كيف لتريستن وون ستاب أن يأكلا لحمًا بهذا القدر. كان يفضّل لحم البقر. حين تقاسم تريستن مع ون ستاب كبد الغزال ضحك صمويل وقال أنّه ربّما انتهى به المطاف من آكل لحومٍ وأعشاب إلى آكلِ أعشابٍ فقط، أمّا تريستن فكان آكلَ لحومٍ حقيقيًّا إذ يَقدِر أن يخزُنَ اللحومَ ويركبَ الخيل أو ينامَ أو يشربَ أو ينكحَ لأيّام. أعطى تريستن باقي الصيد لفلاّح، قرويٍّ بائسٍ كانوا قد قضوا ليلتهم تلك في حظيرته البائسةِ مفضّلينها على كوخه المشبع برائحة النشادر والمليء بالأطفال. وكما كان متوقّعًا لم يكن الفلاّح على علمٍ بالحرب الدائرة في أوروبا، هذا إن كان لديه أصلًا أدنى معرفةٍ بموقع أوروبا الجغرافيّ. أمّا ما لم يكن متوقّعًا فهو أن يُظهِر صمويل على العشاء استلطافًا للبنت الكبرى حتى إنّه اقتبس مقطعًا شعريًّا لهاينرِش هاينه بالألمانيّةِ، لغتِها الأم. ضحِك الأبُ، تركت الأمُّ وابنتها الطاولةَ خجلًا. عند مغادرتهم فجرًا أهدت البنتُ صمويل وشاحًا قضت الليلَ تغزله. قبّل صمويل يدَها، قال أنّه سيراسلها، وأعطاها تعويذةً ساعةَ جيبٍ ذهبيّة . رأى هذا ون ستاب من الحظيرة وهو يُسرِج الخيل. رفع رَحْلَ صمويل كأنّما كان يحمل في يده التهْلُكةَ عينَها، طالما رافق الهلاكُ التخومَ البعيدةَ، تخومَ جنسِ الإناثِ الأشدَّ عتمة. باندورا، ميدوسا، الباخوسيّات، الإيرينيّات، آلهةٌ إناثٌ– وإن كنّ صغيرات– أبعدُ من أن تحيطَ بهنّ التصوُّراتُ الجنسيّة. مَن

تراه يُمَنْطِق الموتَ أكثرَ ممّا يستطيع مَنْطِقُه تقديرَ وزنِ الأرضِ أو لبِّ الجبال؟

قطعوا باقي الطريقِ إلى كالغري في فورةِ صيفٍ هنديٍّ قصير. في حانةٍ على جانب الطريق حيث ربطوا أحصنتَهم رجاءَ بيرةٍ تُرطّب أفواهَهم المُترَبَة وقعت حادثةٌ سيّئة. رفض المالكُ أن يسمح لون ستاب بالدخول. صمويل وألفرد حاولا إقناعَه، ثم دخل تريستن بعد أن سقى الجياد، قدّر الموقفَ ولَكَمَ المالكَ البدينَ لكمةً أوقعته مُغمّى عليه. رمى بنقرةِ إصبعٍ قطعةً ذهبيّةً على الحارسِ الواضعِ يدَه بتوتّرٍ على مسدّسه، أخذ قارورةَ ويسكي وسطلَ بيرةٍ وتمشّوا تحت شجرةٍ في الخارج. اكتفى ألفرد بهزّ كتفيه ومثله فعل صمويل، فقد تعوّدا منذ زمنٍ طويل على تصرّفات أخيهما. أُعجب ون ستاب بمذاق البيرة والويسكي لكنّه كان يُدير الجرعة في فمه فقط قبل أن يمجّها على الأرض. كان من شايان، لكنّه قد قضّى آخرَ ثلاثين سنةً من حياته في مقاطعة كري وبلاك فوت وقرّر أنّه لن يسكر إلّا إن عاد إلى ليم دير[1] قبل أن يدركَه الموت. مجّتُه أضحكت صمويل وألفرد لكنّها لم ترسم ضحكةً واحدةً على ثغر تريستن الذي فهم شعور ون ستاب وكان قريبًا منه منذ كان طفلًا في الثالثة فيما كان صمويل وألفرد يميلان إلى تجاهل الشايانيّ.

في كالغري، رُحِّبَ بالإخوةِ ترحيبًا لم يُعْهَد مثلُه بمجنّدين. الرائد الموكَّل بتشكيل القوّة المحليّة أتى من المنطقة نفسها التي أتى منها أبوهم في كورنول، في الحقيقة، كان قد أُرسل من فالمث على سفينة شراعيّة في العام نفسه، إنّما إلى هاليفاكس بدلًا من بالتيمور. كان الرائد مستغربًا من رفض الولايات

1- Lame Deer مهوى أفئدة الشايانيين ومركز قبيلتهم في مقاطعة روزبد، مونتانا. سُمّيت على ليم دير، من زعماء قبيلة لاكوتا، شارك في معركة ليتل بيغهورن الشهيرة سنة 1876 التي منيت فيها فرقة الخيّالة السابعة في الجيش الأمريكيّ بقيادة جورج آرمسترونغ كستر بهزيمة ساحقة على يد تجمّع من قبائل لاكوتا وشايان وأرابهو. قُتِل ليم دير خلال اجتياح الجيش الأمريكي قريتَه سنة 1877.

المتحدّة المشاركةَ في الحرب، التي رآها بصدقٍ أكثرَ تطلّبًا ووحشيّةً ممّا يظهر من التفاؤل البسيط على أولئك الكنديّين الذين تصوّروا أنّ القيصرَ وهُونَه[1] سيولّون هاربين لحظةَ حطّت القوّات المحليّة على القارّة. لكن تظلّ مثل هذه العقليّةِ الساذجةِ المتبجّحةِ مُقدَّرةً في الجنود، فهم في المُجمَل وقودٌ لمدافع المؤامرات الدوليّة السياسيّة منها والاقتصاديّة. في الشهر الإعداديّ الذي سبق إرسالَهم بالقطار إلى بواخر القوات العسكريّة في كيوبيك، ترقّى ألفرد سريعًا إلى ضابطٍ في الجيش، وعُيِّن صمويل مرافقًا شخصيًّا للقيادة بسبب إتقانه الألمانيّةَ وقدرتِه على قراءةِ الخرائط التضاريسيّة. أمّا تريستن فانشغل بالعراك والشراب، ونزل إلى رتبةِ سائسِ خيل، حيث شعر في الواقع بشيءٍ من الراحة. فالزيّ العسكريّ يُخْجِله والتدريبات تُضجِره حدَّ البكاء. لولا برُّه بأبيه وإحساسُه بحاجة صمويل إلى رعايته لغادر الثّكنة وفرّ عائدًا إلى الجنوب على ظهر حصانٍ مسروقٍ مقتفيًا أثَرَ ون ستاب.

عودًا في تشوتيا، كان ويليام لودلو (عقيد، سلاح المهندسين، الجيش الأمريكيّ، متقاعد) يعاني لياليَ مؤرِّقة. أُصيب بنزلةِ بردٍ صبيحةَ غادر الأولاد وقضّى أسبوعًا في السرير يطالع النافذةَ الشماليّةَ منتظرًا أن يرجع ون ستاب ببعض الأخبار مهما تكن قليلةً أو مُتهافتة. كتب رسائلَ طويلةً إلى زوجته التي أمضت شتاءها في برايدز كروسينغ شمال بوسطن، راعيةً كذلك منزلًا في ميدان لويسبرغ قُربَ مساءاتها في حفلات الأوبرا أو الأوركسترا السمفونية. أحبّت مونتانا بين مايو وسبتمبر، لكنّها بالقدر نفسه أحبّت ركوب القطار عائدةً إلى مظاهر التمدّن في بوسطن، ليس ذلك مستغربًا من ملّاك الأراضي

1- Huns استعارة شاع استخدامها خلال الحرب العالمية الأولى إشارةً (دونيّةً في الغالب) إلى جنود الألمان إذ كانوا يشبّهون بقبائل الهون المرتحلة التي بسطت نفوذها على أوروبا وبطشت بالرومان مؤسّسةً إمبراطوريّة الهون خلال القرن الخامس. من أشهر أباطرتها أتيلا الهوني.

الأغنياء في تلك الأيّام. خلافًا للوهم الشائع، فإنّ رعاةَ البقرِ لم يملكوا قطُّ أيّةَ مزارع. لم ينهضوا بأكثرَ من دورِ الخبير، هيبّيو زمانِهم الرحّل، فرسانُ المدى الذين عرفوا الحيواناتِ أفضلَ ممّا عرفوا بعضَهم البعض. بعضُ أكبرِ المزارعِ شماليَّ وسطِ مونتانا كان ملكًا لنبلاء إنجليز وإسكوتلنديّين غائبين عنها أَغلبَ الوقت. (لأنّ جلفًا إيرلنديًّا، السير جورج غور، مشكوكًا في انتمائه لعائلةٍ نبيلة كان قد أثار غضبَ الهنود بقتله ألفًا من الأيائل ومثلَها من الجواميس في رحلةٍ «رياضيّة»).

لكنّ لودلو كاتَبَ زوجتَه في حالة حزن. لقد أصرّت من قبلُ على أن يُحالَ بين صمويل والحرب. لَشَدَّ ما أحبّت أوقاتَ تناولِها الغداء في بوسطن قبل الحرب بعام، إذ كانا يتحدّثان عن أسبوعه الفائت والمشوِّق دائمًا في هارفرد. لقد رعت وليدَها الأخيرَ على عينها بينما شبَّ ألفرد متحفّظًا وملتزمًا وتريستن منفلتًا. في سبتمبر، شهرًا بعد سرايفو، كانت قد تشاجرت مع زوجها ثم جهّزت نفسَها في ثلاثة أيّام وغادرت. الآن عَلِم لودلو أنّه كان ينبغي أن يستبقيَ صمويل ويُعيدَه إلى هارفرد ولو إرضاءً لأمّه فقط. بنتُ العمّ الصغرى، سوزانا، التي كانت قد رافقتها من الشرق أملًا في أن يتزوجّها ألفرد، خُطبت بدلًا منه لتريستن. لقد سلّى هذا خاطرَ لودلو الذي كان في سرّه معجبًا بسوء سلوك تريستن على الرغم من أنّه حتى بعد عشاء الخطوبة اختفى غيرَ معتذرٍ لمدّة أسبوع رفقةَ ون ستاب في أثرِ دبٍّ رماديٍّ سَلَبَ بقرتين من القطيع.

رقد لودلو تحت البطانيّة مطالِعًا دفاترَ حياته، أنعشت عقلَه حمّى خفيفة. لقد بلغ العمرَ الذي تحوّل فيه إطارُ عقلِه الرومانسيُّ بالعادة إلى السخرية؛ الماضي إلى بركةٍ عميقةٍ لا ينتهي منها إلى شيء. ورغم أنّه كان في الرابعة والستين فإنّ صحّته وقوّته لم ينقصا كما أنّ أبويه، كلاهما في بحر الثمانين، ما

زالت تنبض فيها الحياة في كورنول، بمعنى أنّه ما لم يُصَب بحادث، فالأرجح أن يعيش أطولَ ممّا يُهمّه أن يعيش. في دفاتره قرأ قصيدةً عاطفيّةً إلى حدٍّ مخجلٍ كان قد كتبها خلال أيّامه في فيراكروز ولاحظ بشيءٍ من التسلية أنّها ملصقةٌ إلى جانب قصاصةِ جريدةٍ عن «وفرة سمك القُدّ». بصفته مهندسَ مناجم ترحّل من مين، إلى فيراكروز، إلى تومبستون في أريزونا وماريبوزا، كاليفورنيا، إلى منطقة النحاس في شبه الجزيرة العليا لميشيغن. لم يتزوج حتى بلغ الخامسة والثلاثين ثم كان الاختيار مستبعَدًا من جهته ومن جهتها- ابنةُ مستثمرٍ وموظّفِ بنكٍ ثريٍّ من ماساتشوسِتس. وليس الثراء ما كان جزءًا في هذه الغرابة التي جمعت عشَّيهما- إذ لم يزل حينها قادرًا على تحصيل خمسمئة جنيه في الشهر من منجم فضّة في فيراكروز، ما يساوي أربعة آلاف دولار بتسعيرة ذلك الوقت. لكنّ اللقاء حدث في بنكٍ في هيلينا حيث سافر مرّاتٍ عديدةً في العام كي يرعى استثماراته ويواصل سهراته في الـ«كاتلمنز كلب» Cattleman's Club. كان زواجه قد انطفأ، تحوّل بالتدريج من نارٍ كيتسيّةٍ[1] التوقّدِ إلى ملاطفةٍ باردةٍ ونكِدة. شهرُ عسلِهما المديدُ في أوروبا نمّى ذوقَهما الحضريَّ إلى حيث لم يعد يحفل كثيرًا بمن تتّخذه عشيقًا لها في شتاء بوسطن، عادةً ما يكون أصغرَ منها بمراحل. أحدثُ علاقاتها السريّة المخزية كانت مع طالبٍ في هارفرد، جون ريد، من صار في ما بعدُ بلشفيًّا مشهورًا ومات في موسكو بحمّى التيفوس. مثلَ كثيرٍ من نسويّات زمانها المترفات كانت اهتماماتها حماسيّةً وانتقاديّة. بعد أن سُمّي أوّلُ أولادها على الجدّ كما كان ينبغي، وقع الثاني تحت وطأة بعض انفعالاتها العاطفيّة، فتسميته «تريستن» جاءت من تعلُّقها بالقرون الوسطى خلال سنين دراستها في كليّة ويلسلي. كانت أوّلَ امرأةٍ تلعب البولو بها للفرسان الذين جعلوا العالمَ إصطبلًا لهم

1 نسبةً إلى الشاعر الإنجليزي جون كيتس (1795 - 1821).

من قدرات، وكان هذا متناغمًا إلى حدٍّ ما مع شخصيّتها. لكنّها كانت باهرةَ الحسن، حتى وهي في الخمسين، جمالٌ مستحيل إذ يشارف جسدُها الذي كان نحيلًا ذات حين غايةُ الرواء. حاولت جاهدةً من قبلُ أن تجعل صمويل المسكين فنّانًا لكنّه امتلك حسَّ والدِه العلميَّ فتراه متجوّلًا في المزرعة مع كتبٍ عن الطبيعة يصحّح باجتهاد معلوماتها غيرَ الدقيقةِ والمنسوبةَ إلى العصر الفيكتوريّ.

نزل لودلو للعشاء لأوّل مرة منذ غادر الأولاد ومحبَطًا لَحَظَ السُّفرةَ المعدّةَ لشخصٍ واحدٍ على رأس المائدة والبرودةَ التي لم تُلطّف منها نارُ الموقدِ المتأجّجة. روسكو دِكَر، رئيس الخدم، قعد لشرب القهوة مع زوجته الملقبّةِ بِت، من شعب كري، جمالها لافت وقد علّمتها الطبخَ زوجةُ لودلو خلال الأعوام القليلة الفائتة مستعينةً بكتاب طهوٍ فرنسيٍّ عتيق معروفٍ باسم Ali-Bab. دِكَر (لأنّ أحدًا لا يناديه روسكو، اسمٌ أبغَضَه) كان في الأربعين بساقي فارسٍ رشيقتين لكنّ له صدرَ ثورٍ وقائمتيه الأماميّتين، اكتسب ذلك من شبابٍ أمضاه في شقِّ حُفَرٍ لأعمدةِ الأسوار.

قال لودلو أنّه شعر بالوحدة وتساءل بصوتٍ عالٍ إن كان لهم جميعًا أن يتناولوا العشاء معًا في غرفة الطعام. سكبت له بِت كوبَ قهوةٍ وهزّت رأسها رافضةً للفكرة. أشاح دِكر ببصره بعيدًا. شعر لودلو بالإهانة مفكّرًا أنّه ربما يضطر إلى أن يأمرَهما أمرًا بالأكل معه بغض النظر عن السنواتِ العَشرِ التي أُنفِقت في نعيم الحظوة ومسافةِ الرضا المتبادلةِ بينهم. شرب لودلو ودِكر قهوةَ الظهيرة متضايقَين، يحاولان تلطيفَ رائحةٍ تفوح من مَرَق غزال نورمانديّ كانت تحضّره بِت باستخدام نبيذ التفاح على موقد الحطب. بادر دِكر بالحديث عن القطيع لكنّ لودلو حدّق في البعيد معزولًا في غضبه عن أن يسمع. كان يشاهد إيزابيل، ابنةَ دِكر ذاتَ تسع السنوات، سمّيت على

زوجة لودلو، تقطع طريقَها عبر فناء الحظيرة حاملةً شيئًا. مرّت من السقيفة الخاصّة بمضخّة الماء داخلةً من باب المطبخ وتبيّن أنّ الشيءَ ليس سوى غُرَيرٍ صغير عمره بضعةُ أسابيع كان تريستن قد أعطاها إيّاه. أخبرتها بِت بأن تأخذ الحيوان خارجًا لكنّ لودلو اعترض بدافع الفضول. بدا الغُرير مريضًا وقال لودلو يجب أن يكون الحليب دافئًا وربما يجب أن يأكلَ معجونَ لحمٍ مفروم. هزّت بِت كتفيها وشرعت في لفّ عجين البسكويت بينما سخّن لودلو بعضَ الحليب وفحص دِكر هذا الكائن. وجدوا في الخزانة تشكيلةً قديمةً من زجاجات الرضاعة والمصّاصات فأطعمت إيزابيل الغُريرَ الذي أكل بنَهَمٍ ثمّ هدهدته. الآن أمسى لودلو سعيدًا وأخرج زجاجةَ أرمنياك وصبّ لنفسه ولدِكر كأسين إضافةً إلى قهوتهما. رفضت إيزابيل الذهاب إلى المدرسة لوصمِها نَغْلةً بسبب عرقها الهجين، فقال لودلو أنّه أخيرًا سيتولّى مسؤوليّةَ تعليمها بدءًا من الصباح التالي تمامَ الثامنة.

راق المزاج كثيرًا حتى إنّ لودلو ذهب إلى المخزن ليحضر زجاجةً من نبيذ كلاريت كي ترافق الوجبة. لسنوات ظلّ متجاهلًا ذوقَ زوجته في النبيذ الجيّد، ثمّ بدأت قناعته تتغيّر شيئًا فشيئًا، قرأ كتابًا في صناعة النبيذ وفنونه وانغمس في ملذّات الشراب حتى بنى مخزنًا للنبيذ، جزءٌ منه في الأصل عربةٌ من قطار نوذرن باسيفيك كان قد انحرف عن مساره المتّجه إلى سان فرانسيسكو فاشتراها سرًّا من موظّف في سكّة الحديد. وفي المخزن وصل إلى حلٍّ للمشكلة؛ سيجتمعون كلّهم لتناول العشاء في المطبخ وسينضمّ إليهم ون ستاب إذا رجع. بهذه الطريقة أمّل أن غياب أبنائه لن يكون فجًّا وفادحًا. رأى الفكرة حين عاد إلى المطبخ مقياسًا طبيعيًّا لوقود الشتاء. ستُغلَق غرفةُ الطعام. وستنتقل عائلةُ دِكر إلى غرفة الضيوف ويمكن لعمّال المزرعة الثلاثة أن يأخذوا مقصورةَ دِكر. عرفوا جميعًا أنّ ون ستاب لن يترك كوخَه الخشبيَّ

الصغيرَ الذي لم يَدخُلْهُ أحدٌ سِواه باستثناء إيزابيل عندما كانت مريضةً في الثالثة من عمرها وطلب ون ستاب أن يؤدّي بعضَ طقوسه الخاصّة. عرف لودلو، مع ذلك، أنّ ون ستاب كان يملك جرابًا مملوءًا فرواتِ رؤوسٍ مسلوخة، كلُّ فروةِ رأسٍ قتيلٌ على يديه، عددٌ ليس بالقليل من رجالٍ ذوي أصولٍ أوروبيّة، لكنّه في السرّ كان يُبارِك صنيعَه.

بعد العشاء أمضوا المساءَ كلَّه يلعبون البيناكل[1] Pinochle وفاز فريقَ بِت وإيزابيل بعونٍ من تأثير النبيذ والبراندي على لودلو ودِكر. أعلن لودلو بأنّ على دِكر أن يأخذ يومَ غدٍ راحةً وأن يصطحبا معهما العمّال في رحلةٍ لصيد طيور الطيهوج. قال دِكر أنّه توقّع عودةَ ون ستاب خلال أيّامٍ قليلة. قدّمت لهما بِت حلوى مصنوعةً من برقوق البستان الناضج ونامت إيزابيل على كرسيّها والغُرَير ينظر إليها من لحافه في حجرها. عند منتصف الليل ذهب لودلو إلى السرير بشعورٍ قريرٍ دافئٍ أنّ العالمَ بالفعل مكانٌ جيّد، أنّ الحرب ستنتهي سريعًا، وأنّه ودِكر سيحظيان غدًا برحلة صيدٍ ممتعة. تلا صلواته الليليّة مضيفًا على سبيل التغيير دعاءً لون ستاب الذي كان بلا ريب في حِرْزٍ من وثنيّته ضدّ تأثيراتها.

بُعيد الثالثة من منتصف الليل أفاق من منامه متعرّقًا إثرَ حلمٍ بدا من فرط وضوحه واقعًا حتّى إنّه ظلّ يرتعد نصفَ ساعةٍ بعدها. في حلمه رأى أولادَه يموتون في معركةٍ بينما وقف عاجزًا على رأس تلّة منعزلة؛ ثم خفض بصره ولاحظ أنّه كان يرتدي بنطالًا من جلد أيّل، وأنّه كان، في الحقيقة، ون ستاب. وإذ أشعل غليونه ناظرًا إلى ظلال مصباح الكيروسين ترتعش على الحائط تساءل أين كان هو نفسه في الحلم المزداد وضوحًا على وضوح، لأنّه في سنة 1874 كان قد عسكر في شورت باين هيلز حين وصل ون ستاب

1- لعبة ورق.

وذكر- عَرَضًا بالأحرى- أنّ سيتينغ بُل[1] (الثور الجالس) مع خمسة آلاف محارب شجاع كانوا متجهين جنوبًا قادمين إليهم من ناحية نهر تنغ. فما كان منهم إلّا أن هربوا كي لا يقعوا في المصيدة ممتطين جيادهم ليلَ نهارَ لثلاثة أيّامٍ متواصلة وقد قيَّد بعضُ الرجال أنفسَهم إلى سروجهم من التعب.

جذب لودلو عليه معطفَ النوم وغادر غرفته، ماشيًا عبر الردهة ومختلسًا النظر أوّلًا إلى غرفة ألفرد بكلِّ أشيائها الحميمة، الأثقالِ، كتبِ المساعدةِ الذاتيّة، ثمّ غرفةِ صمويل، مبعثَرةً في أرجائها مجاهرُ، وحيواناتٌ محشوّةٌ من ضمنها شَرِهٌ[2] مُكشِّرٌ عن أنيابه، وعيّناتٌ نباتيّة، وقطعةُ خشبٍ سُحبت من النهر لها شبهٌ صارخٌ بصقر. غرفة تريستن التي مرّ زمنٌ منذ دخلها لودلو آخرَ مرّة كانت بسيطةَ الأثاث وشبهَ خالية؛ جلدُ أيّل طويل الأذنين مفروشٌ على الأرض، وجلدُ غُريرٍ يغطّي الوسادةَ على السرير، وصندوقٌ صغيرٌ في الزاوية. عبس لودلو لعلمه أنّ الجلد على الوسادة كان لحيوان تريستن حينما كان في العاشرة من العمر، أطلق عليه لودلو النار بعد أن قتل كلبَ زوجته الصغيرَ فجُنّ جنونها. كان بطبيعته حيوانًا شرسًا، يمتطي ظهور الخيل صحبةَ تريستن، يجثم متكوّرًا على مقدّم السرج ويهسّ بصوتٍ طالعٍ من حلقه في وجه أيِّ أحدٍ يقترب منه ما عدا ون ستاب. انحنى لودلو بالفانوس على الصندوق. انتابه بعض الشعور بأنّه متطفّل عجوز لكنّه لم يستطع مقاومةَ فضوله. داخل الصندوق اقتنص الضوءُ اللمعةَ من مهمازي فضّةٍ إسبانيّين كان لودلو قد أهداهما تريستن في عيد ميلاده الثاني عشر. كان هنالك خراطيشُ بندقيّة من طراز شاربس لصيد الجواميس، مسدّسٌ صَدِئٌ مجهولُ

1- Sitting Bull الثور الجالس (1831 – 1890) أسطورة محاربي الهنود الحمر شمال السهول العظمى، زعيم الهنكبابا (فرع قبيلة لاكوتا) ورمز مقاومة سياسات الولايات المتحدة الجائرة ضد السكان الأصليين. قاد تجمع القبائل المنتصرة في معركة ليتل بيغهورن سنة 1876.

2- الدبّ الظربان. أكبر الأنواع في فصيلة ابن عِرس.

الأصل، جرّةٌ من رؤوسِ سهامٍ صوّانيّة، قلادةٌ يتدلّى منها مخلبُ دبّ، لا شكّ أنّها هديةٌ من ون ستاب الذي طالما شعر لودلو بأنّه كان يعامل تريستن بأبوّة تفوق حتى الأبوّة الطبيعيّة. في قاع الصندوق عثر لودلو مندهشًا على كتابٍ له مخبوءٍ بعناية في جلد أيّل، كان مطبوعًا عام 1875 من قِبَلِ مكتب الطباعة الحكوميّ وقد كُتِب على غلافه الداخليّ بخربشةٍ طفوليّة «أبي كتب هذا الكتاب».

انتصب واقفًا بغتةً فاهتزّ الفانوس في يده اهتزازةً خَطِرة. لم يفتح الكتاب طيلة ثلاثة عقود أسىً في الغالب على أنّه لم يؤخذ بتوصياته الخاصّة بقبائل الـ«سو»[1] الهنديّة، بل لقد أُهين بسببه، فاستقال من مأموريّته وغادر إلى فيراكروز. لاحظ أنّ تريستن قد خطّ على الصفحات وعلّم فازداد فضولًا لمعرفة ماذا قد يستفيد فتىً جاهلٌ ومتعنّتٌ من كتابٍ كهذا يراه هو تقنيًّا بحتًا. أخذ الكتاب راجعًا إلى غرفته و صبّ كأسًا من قنّينة ويسكي كنديّ كبيرةٍ محفوظةٍ تحت السرير لحالات الأرق.

لم يكن في العنوان نفسه ما هو مميّز إن غضّ المرء طرفَه عن مفارقاتٍ بعينها تاريخيّةٍ ساخرة: «تقريرٌ استطلاعيّ عن التلال السوداء Black Hills في داكوتا، أنجزه صيفَ عام 1874 ويليام لودلو، نقيب مهندسين، برتبة مقدّمٍ في الجيش الأمريكيّ، كبيرُ مهندسي دائرة داكوتا». لكونه عالِمًا، أو هكذا اعتُبِر حينها، أُلحق بفرقة الخيّالة السابعة تحت قيادة ضابطٍ بمثل رتبته العسكريّة، المقدّم جورج آرمسترونغ كستر. لودلو بطبيعته الكورنوليّةِ المتحفّظة شعر بالنفور من كستر واكتفى بمرافقة حلقته العلميّة التي ضمّت جورج برد

1- من مجموعات السكان الأصليين الكبرى في أمريكا الشمالية. مقسمة بحسب اللغات إلى ثلاثة فروع رئيسة: داكوتا، لاكوتا، ناكوتا.

غرينل[1] من كلية ييل، صديقٌ مقرّب. كان كستر إذا قلِق خصوصًا أو غضِب يقلّد باستهزاء لكنةَ لودلو الإنجليزيّة، تصرّفٌ طائشٌ لا مبرّرَ له في حقّ ضابطٍ من أنداده. لقد احتفل لودلو سرًّا عندما بلغه مصرعُ كستر في معركة ليتل بيغهورن بعد مرور ثلاثة أعوام. توصياته الخاصّة في خاتمة تقريره كانت موجزةً ومباشرة. بعد تعداده المزايا الواضحة للمنطقة، بما فيها الحماية التي أتاحتها ضدّ الحرّ اللاهب وعواصف القطب الشماليّ، أوصى لودلو:

> مع هذا، فإنّ الحلَّ النهائيَّ للمسألة الهنديّة إجراءٌ أوليٌّ ضروريّ. المنطقة عزيزةٌ على أهلها لأنّها أراضي صيدٍ وحمى. إنَّ أبعدَهم نظرًا، وهم يترقّبون الوقت الذي لا يعود فيه صيدُ الجواميس- مادّةُ عيش القبائل الرحّل الأساسيّةُ- كافيًا، قد تطلّعوا إلى الاستقرار في منطقة التلال السوداء وحواليها، لقد رأوها مُقامَهم المستقبليَّ الأبديّ، وهناك سينتظرون الخمود التدريجيَّ مصيرًا لهم... لا مكان للهنود أبعد غربًا كي يرتحلوا إليه.

ارتشف بعمقٍ من الويسكي، مهتمًّا بخربشات تريستن أكثرَ منه بخطل الحكومة وفظاعاتها التي جعلت منه ناسكًا منعزلًا إلّا قليلا. تذكّر جيّدًا جائحةَ الجنادب التي وجدها تريستن مثيرةً:

1- (George Bird Grinnell 1849-1938) عالم إنسان وطبيعيات ومؤرّخ أمريكي اشتهر بدراساته حول السكان الأصليين.

> عددتُ منها خمسةً وعشرين ذات صباح وقدّرت أنّها تغطّي مساحةَ قدمٍ مربّع تقريبًا. بحسبةٍ مختصرة ما يزيد على مليون لكلِّ فدّان... تأكل الأخضر واليابس، يمكن تخيُّل حجم الدمار الذي تُلحقه بالغطاء النباتيّ. قدراتها على الطيران المتواصل عجيبة... تبدو قادرةً على التحليق ليومٍ كامل، تتحرّك دائمًا مع الريح، وتملأ الهواء إلى ارتفاعٍ شاهق... الأجنحة تعكس الضوء فكأنّها إذّاك نُدَفُ قُطنٍ تطفو بكسلٍ في الريح... في هبوطها خلال أشعّة الشمس المائلة، تشبه تهافت رقاقاتِ ثلجٍ كبيرة.

تذكّر لودلو خطبةً متذبذبةً ألقاها كستر على الجنود وخصلات شعره الأشقرِ الطويلِ منقَّطةٌ بالجنادب المتشبّثةِ بها. واصل القراءة مركِّزًا فقط على الأجزاء التي علّم عليها تريستن، من ذلك مقطعٌ عن قمرٍ أحمرَ أشعل ضياؤه الدامي مشهدَ الطبيعة البيْجيّ، أضاف إليها تريستن: «رأيتُ هذه الظاهرة. مرّةً مع ون ستاب الذي غَشِيه الصمتُ عند نار المخيّم». الفقرةُ الآسرةُ حقًّا، رغم ذلك، كانت عن جماجمِ جواميسَ وصفها لودلو مستعيدًا ممارسةَ ون ستاب طقوسَ ‹رقصة الشبح›[1] ولَعَ تريستن الطفوليَّ بها، «من يطلق النارَ على جاموسٍ ولا يأكل لحمَه كاملًا ولا يصنع من جلده خيمةً أو فراشًا يجب

1- رقصة شعائريّة ابتدعها سنة 1869 رجلٌ من قبيلة البايوت مدّعيا ارتحالَه إلى أرض الموتى ووعْدَهم له بالعودة إلى أهاليهم. تحوّلت في العام 1889 إلى حركة مقاومة دينية انتشرت بين قبائل السكان الأصليين غربَ الولايات المتحدة تقوم ممارستها الطقوسيّة على فكرة اتحاد الأحياء بالموتى، قتال أرواح الموتى عنهم، طرد المستعمر الأبيض، عودة الأرض والجواميس والسلام. قُتل ‹الثور الجالس› في ديسمبر 1890 أثناء محاولة الحكومة اعتقاله على خلفيّة دعمه للحركة وسماحه للراقصين بالتجمّع في منطقته.

أن يُردى قتيلًا، حتى مخُّ العظم إذ خَليقٌ بآكله كما يقول ستاب أن يستعيد الصحّةَ كلَّها». استحضر لودلو مشهدَ الجماجمِ والضوءَ على ريشِ شاهينٍ مرَّ مجنِّحًا من تحت حصانه مطاردًا حمامةً مهاجرةً مشؤومة: «أعوامٌ قليلةٌ لا غير منذ صارت هذه البلاد التي عبرناها مرعى الجواميس المفضّل، وها جماجمُها البيضاءُ نقاطٌ على المرج مبعثرةٌ في كلّ الاتجاهات. يجمعها الهنود أحيانًا، وينظمونها على الأرض في أشكالٍ رائعة. في واحدٍ من هذه التشكيلات التي استرعت انتباهي، كانت الجماجم مصبوغةً بالأحمر والأزرق في خطوطٍ ودوائر، ومنظومةً في خمسة صفوفٍ متوازية، اثنتا عشرة جمجمةً في كلِّ صفٍّ، كلّها تستقبل المشرق».

أنهى شرابه وغفا، دون أن يطفئ المصباح خشيةَ أن يعاوده الحلم بأسئلته القاتلة، بالموت الأوبراليِّ والملوّنِ بوحشيّة. لم يكن لودلو بحماقة من يحاول طلبَ حياةٍ قد عيشت من قبل، لكنّه كان واعيًا بصورة غير ناضجة بأنّ حياته الثانويّة التي عاشها في أبنائه قد أُسيئت إدارتها، ليس بذلك القدر مع ألفرد وصمويل اللّذين كانا محْضَ ما كاناه، إنّما مع تريستن. ربما يعزّي لودلو، وإن مؤقّتًا، أيُّ مفهومٍ علميٍّ فيه مسٌّ من غرابة ولقد تداولت الأوساط حينها فكرةَ أنّ السمات الشخصيّة غالبًا ما تخطّت جيلًا بأكمله. والدُ لودلو كان ربّان سفينةٍ ذاتِ صَوَارٍ، ما زال في الحقيقة كذلك حتى وهو في الرابعة والثمانين، بسحرٍ وعنفوانٍ دائمين، طالما تميّز بهما في نظر أبنائه خلال أعوام راحته من الترحال وهو يرعاهم بينما كانوا يكبرون. شغفه بترويض البحر تولّد من حكايات أبيه عن رؤية جبّارٍ عملاق يصارع في نور القمر عبابًا من أمواج همبولت قربَ البيرو، وكيف أنّ الرجل لا يعود أبدًا كما كان بعدما يبحر حول كيب هورن[1] بسرعة سبعين عقدةً في عاصفةٍ هوجاء. في عامٍ قد

1- آخر بقعة في الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية.

تكون هديّةُ لودلو في الكريسمس رأسًا مقلّصًا من جاوا وفي الذي يليه تمثالًا ذهبيًّا صغيرًا لبوذا من سيام مع تدفّقٍ مستمرٍّ لعيّناتٍ معدنيّةٍ من كلِّ أصقاع العالم. إذن لعلَّ تريستن في قفزةٍ جينيّةٍ قد صار جدَّه ومثل كين لم يكن ليأتمر بأمر أحد بل سيبني قدره الخاصّ بإشاراتٍ شخصيّةٍ جدًّا حتى إنّ أحدًا من العائلة لن يعرف أبدًا ما يدور في ثنايا عقله الجاحد، في ما يظهر منه. في الرابعة عشرة ترك تريستن المدرسة واصطاد ما يكفي من الوشق لشراء أيِّ شيء لكنّه صنع من الفراء معطفًا وأرسله إلى أمّه المذهولةِ في بوسطن. ثمّ استعار من لودلو بندقيّةَ (بردي) واختفى، رجع إلى المزرعة بعدها بثلاثة أشهر ومعه كيسُ مالٍ حصّله من فوزه في منافسات الرماية على الأطباق في أندية الرماية. أنفق ذاك المال في شراء سرجٍ وبندقيّةٍ جديدين لون ستاب، ومجهرٍ لصمويل، ورحلةٍ لألفرد إلى سان فرانسيسكو. ربما كانت العائلة ترفل في خيرٍ وفير، لكنّ لتريستن لمستَه الذهبيّةَ الخاصّة. كتب قائد الشرطة في هيلينا أنّ تريستن قد شوهد صحبةَ عاهرات، عمره آنذاك خمس عشرة، وأنّ أمّه قد داهمتها نوبةٌ عصبيّة وأنّ لودلو قد أعطاه محاضرةً إلزاميّةً تحوّلت بدافع الفضول إلى استطلاعٍ عمّا إذا كانت العاهرات اللواتي انتقاهنّ فاتناتِ الجمال. اعتاد لودلو في سفراته كلَّ شهرين إلى هيلينا على تمضية بضع ليالٍ مع معلّمةٍ كانت عشيقتَه السريّةَ لعقدٍ من الزمان. لرفقته القديمة في الـ(كاتلمنز كلب) كان يحبّ أن يقتبس من تِدي روزفلت قولَه: «أحبّ أن أشربَ نبيذَ الحياةِ ممزوجًا بالبراندي» وشعر بالحماقة في ما بعد، معتبرًا كلَّ السياسيين أوغادًا. لكن الآن كان تريستن بعيدًا عن مدى تأثيره وعلم بأنّ فرصةَ أن يسمع شيئًا منه باتت ضئيلة، تمامًا كما كان الأمر مع أبيه. قبل بضع سنين جنح أبوه بالسفينة في جزر أوركني فتحمّل لودلو تكاليفَ شراءِ سفينةٍ أخرى لم يحصل منه مقابلها إلا على كلمات شكرٍ شحيحة، رسالةٍ قصيرةٍ فقط: «ولدي العزيز. واثقٌ أنّ العائلة بخير. أرسل الأولاد إليّ لتدريبهم. اللعنةَ على مالك. سيرجع إليك

كلِّ سنت». وكانت دفعاتٌ قليلةٌ تُودَع في حسابه البنكيّ في هيلينا بين فترةٍ وأخرى من أماكنَ متنوعّةٍ تنوّعَ ما بين قبرص ودكار. وإذ غشّى النعاس عينيه عرف أنّ عليه أن يكاتب سوزانا، مخطوبةَ تريستن، ربما بلغها منه شيء. كانت فتاةً رقيقةً، حبيبةً متوقّدةَ الذهن.

نام لودلو متأخّرًا وكان مُحرَجًا لمعرفته أنّ دِكر قد بات مستعدًّا لرحلة الصيد منذ ساعات. نظر خارج النافذة ورأى كيف أنّ لكلبيه- من فصيلة الساطر- المرقّطين بالأصفر الليمونيِّ نائمَين على العشب تأثيرَ شعاع الشمس هابطًا خلال أوراق شجر البتولا. كانا كلبين مُصطفَيَيْن، شُحِنا مباشرةً من ديفونشاير بعناية صديقٍ اعتاد زيارته مرّةً كلَّ عامين ليشاركه متعةَ الصيد.

لم يحلّ الظهر إلا وقد اصطادوا سبعة أزواجٍ من الطيهوج المطوّق وكان كلا الكلبين حينها والرجالُ مرهقين من الحرِّ النادرِ في أواخر أكتوبر رغم أنّ الأفق الشماليَّ كان داجيًا وسقوط الثلج كان واردًا قبل الغسق على حدّ معرفتهم بتقلُّبات طقس مونتانا. بينما كان دِكر يقلّب طيهوجين على النار اقترح أن يشتروا ألفَ عجلٍ في الربيع القادم لأن الحرب سوف ترفع أسعارَ لحوم البقر. كان يحتاج أيضًا إلى مساعدَين اثنين كي يعوّضا غياب تريستن وقد كان لبِت ابنا عمومة قربَ فورت بنتون، أحدهما أمُّهُ سوداء، إن لم يمانع لودلو، وكانا راعيي بقرٍ ممتازَين. أطعم لودلو كلبيه كبدي الطيرين وقلبيهما ووافق على كلِّ مقترحات دِكر، متسائلًا في كسل كيف تبدو ملامحُ هنديٍّ نصفِ أسودَ من قبيلة كري. ربما كان باهيَ القباحة. غفا في الشمس على رائحة جلد الطيهوج المشويّ على الفحم. لمح دِكر ون ستاب بعيدًا على قمّة التلِّ المشرف على الوادي الصندوقيّ[1] وعلم أنّه لن ينزل إلا بعد الغداء لباقةً

1- أو أخدود صندوقيّ، وادٍ ضيّق عميق بمنفذ وحيد ومطوّق من ثلاث جهات بحوائطَ شديدةِ الانحدار.

منه، فطائرا طيهوج فقط بالكاد سيكفيان الجميع. لقد كان ون ستاب من جاء بِدِكر من زورتمن وقد ضمّه لودلو إليه رغم معرفته أنّه لا بدّ كان هاربًا من العدالة في جريمةٍ ما. أُوقِظ لودلو من غفوته وأكل بتلذّذ. لقد أحبّ هذا المكان ونوى أن يُدفَن هنا قريبًا من حيث ينبع ماءٌ قليلٌ منحدرًا بسرعة من صدعٍ في حائط الوادي. كان قد تمكّن من شراء العشرين ألف فدّان- ليست مساحةً كبيرةً على مزرعة مَوَاشٍ في المنطقة- لِقاءَ ثمنٍ بخسٍ بسبب علاقاته في عالم المناجم حيث انتهى التقرير إلى أنّه لا يوجد على هذه الأرض أيُّ شيءٍ ذو قيمةٍ معدنيّة. كان هناك الكثير من الماء، رغم ذلك، وفي وسع المزرعة أن تؤوي قطيعًا بما يسع مزارعَ بثلاثة أضعاف مساحتها على أنّ لودلو قلّل حجم الماشية كثيرًا فلا هو جشعٌ ولا عنده استعدادٌ لمشكلات عددٍ كبيرٍ من الأيدي العاملة. أضف إلى ذلك أنّه إن غدت حدود المزرعة مرعى للقطيع فإنّ طرائد الطير ستغادر. شمّ الكلبان ون ستاب نازلًا من التلّ وهزّا ذيليهما في اهتياج. أخذ الهنديّ جرعةً من قنّينة دِكر ومجّها في النار فاستعر لهيبها. طالما استأنس دِكر بأنّ ون ستاب كان يتحدّث وعلى لسانه أثرٌ قويٌّ من لكنة لودلو الإنجليزيّة.

آخرَ تلك الليلةِ جاء الشتاء. وجاء اليومُ التالي برسالةِ استعطافٍ غاضبةٍ من زوجته تتوسّل إليه أن يستخدم علاقاته كي يخلّص صمويل من الجيش. كانت تعاني الأرق رغم أنّ ألفرد قد راسلها من كالغري يطمئنها أنّهم جميعًا بخير. لكن ماذا بحقّ الربّ يعنيه للأولاد الدفاعُ عن إنجلترا لم يروها في حياتهم قطّ ثم إنّ حسَّ المغامرةِ الممسوخَ عند لودلو قد دفع بهم بعيدًا عن التفكير في مشاعرها. تواصلت الرسائل خلال أواخر الخريف إلى يناير ممزوجةً بهستيريا سنّ اليأس حتى غدت لا تطاق وحتى غدا لودلو، من بلغ حدَّه على أيّة حال من وساوس الشرّ النكِدة، لا يكلّف نفسَه عناءَ فتحها. لقد

ألغى رحلةً قبل الكريسمس إلى هيلينا وشبهَ مُفلسٍ من أيّ دافعٍ رومانسيٍّ شغل وقته بالقراءة والتفكير ما عدا ساعاتٍ قليلةً كلَّ صباح ألزم فيها نفسه بتعليم إيزابيل الصغيرة القراءة والكتابة. أرسل دِكر إلى هيلينا كي يشتري مؤونةً وهدايا وبعد مغادرته بيوم، توقّف عند البيت قائدٌ في شرطة الولايات المتّحدة مستعلِمًا عن جون ثرونبرغ، مطلوبٌ في سرقة بنك قبل سنوات قليلة في سانت كلاود، مينسوتا، وقد أُشيع أنّه موجودٌ في هذه المنطقة. لم يتفاجأ لودلو من صورةٍ قديمةٍ لدِكر عرضها الشرطيّ وأجاب بأنّ الرجل قد مرّ فعلًا من هنا قبل ثلاث سنوات في طريقه إلى سان فرانسيسكو كي يلحق بمركبٍ إلى أستراليا. أومأ القائد برأسه متبرّمًا، تناول وجبةً كبيرة، وانطلق راكبًا جوادَه في الظلام المتجمّع حول تشوتيا.

انتظر لودلو ساعةً خشيةَ أن يكون قائد الشرطة منتظرًا في الجوار ثم بعث بِوَنْ ستاب إلى هيلينا منذرًا دِكر وناصحًا إيّاه أن يرجع مباشرةً متجنّبًا البلدات والطرقَ الرئيسة. كان من البيّن أنّ الأمور ستسوء. وقعت عينه سهوًا على بِت واقفةً تُنشِّف نفسَها بعد الاستحمام فأوقعه ذلك في مشاعر بين الضعف والثقل والاختناق. كان سيتخلّى عن مزرعته بكلّ سرور مقابلَ رجوعِ ولو واحدٍ من أبنائه.

* * *

في بوسطن كانت إيزابيل مأخوذةً بمغنٍّ إيطاليٍّ عميقِ الصوتِ خفيضِه. لم يكن يتحدّث الإنجليزيّة لذا كانت علاقتهم الغراميّة تُدار من خلال معرفتها المحدودة بإيطاليّة السيّاح. كانا يستلقيان على أريكةٍ مشرقيّةٍ خُيَلائيّةٍ قبالةَ النار، رأسُه على صدرِها، ويتحدّثان عن الأوبرا وفلورنسا والهنودِ الحمرِ المتوحّشين الذين كان يأمل أن يراهم في رحلته الغنائيّة إلى سان فرانسيسكو ولوس آنجلس. في الحقيقة، أمست تشعر بالملل معه: لم تناسبها طريقته

الوجيزة والعنيفة في ممارسة الحبّ فلقد كانت أكثرَ شهوانيّةً ممّا افترضه عشّاقُها. حلمت بولدها تريستن حلمًا مزعجًا، وقد ذكّرها به رأسُ المغنّي على صدرها عندما أصيب في صباه بالتهابٍ رئويٍّ فأخذته في حضنها وقرأت له في الوضعيّة ذاتها، تقاربٌ روحيٌّ بينهما انتهى إلى شقاق حين آثرت الرجوع إلى بوسطن في الشتاء وهو في الثانية عشرة من عمره. تذكّرت كيف عذّبها الفتى العاطفيّ بسبب قرارها، كاتبًا إليها في الشتاء أنّه صلّى كلَّ يوم لأجل أن تعود قبل الكريسمس وعندما لم تعد في الكريسمس لعن الربَّ وكفر به. في الربيع عندما عادت كان باردًا وبعيدًا حتى إنّها اشتكت إلى لودلو الذي لم يستطع انتزاعَ كلمةٍ من تريستن تخصّ علاقتَه بأمّه. تظاهرت بعدها بالمرض وعندما اصطفّ الأولاد في غرفتها كي يقبّلوها قائلين تصبحين على خير استبقت تريستن وأجبرته مؤقّتًا على الخضوع لأمرها وهجمت عليه بعواطفها ودموعها، مستخدمةً كامل ترسانتها من الحيل. أخبرها بأنّه لن يتوقف أبدًا عن حبّها، لكنّه لن يستطيع الإيمان بالربّ بعد الآن لأنّه قد طرده فعلًا من حياته.

صدمت أولى المصائب الأبوين كلًّا على حدة في آخر يناير حينما بلغهما أنّ ألفرد، وهو الذي لم يكن قطُّ فارسًا ماهرًا، قد تهشّمت ركبته وانكسر ظهره واقعًا عن حصانه قرب إيبر. لكنّ تشخيص المستشفى الميدانيّ كان مبشّرًا إذ يستطيع أهلُه أن يتوقّعوا رجوعَه إليهم بحلول مايو. أرسل الرائد من كالغري رسالةً خاصّةً إلى لودلو مواساةً له. لقد كان ألفرد ضابطًا شابًّا لامعًا وسيفتقده الجيش بألم. من سوء حظّ تريستن أنّ استهتاره قلّل من كلّ أثرٍ لشجاعته لكنّ الرائد افترض أنّ المعارك ستنضجه أكثر. أمّا صمويل فقد أثبت نجاعتَه ببراعة حتى إنّ الرائد خاف أن يخسر خدماته لصالح الجنرال لأنّه كان فتًى من ذهبٍ لفت إليه أنظارَ الضبّاط جميعًا. قرأ لودلو

خلال السطور ما يشير إلى أنّ تريستن كان مغتمًّا من الانضباط العسكري. شعر للحظةٍ بالذنب إذ تمنّى لو رجع إليه في الربيع تريستن أو صمويل بدلًا من ألفرد. في فرنسا عسكر الكنديّون بين نيوف شابيل وسان أومير. ورغم أنّهم ما زالوا في مراحلِ التفاؤلِ المبكّرةِ من الحرب فإنّهم كانوا يُعتَبَرون خُرْقًا وعشوائيّين في نظر قرنائهم الإنجليز، لا سيّما ضبّاط ساندهرست الأجلافِ المندفعين الذين رأوا في الحرب كما هو متوقّعٌ على الأرجح جزءًا من سِيَرِهم المهنيّةِ العظيمة. مثلُ هذا الهراءِ الجرمانيّ لم يكن قصرًا على برابرة الهُوْن. لكنّ أحدًا لم يشكّك في بأس الكنديّين إذا نشب القتال، بل على العكس تمامًا، لقد كانت شجاعتهم فائقة.

جُعِل تريستن في خيمةٍ مع شرذمةٍ من الهَمَج. تضايق ألفرد عندما زاره تريستن في المستشفى الميدانيّ، متبخترًا بلباسه المهمل وبروث الأحصنة على حذائه. هرّب معه زجاجةَ نبيذٍ رفضها ألفرد. ضابطٌ من رفقاء ألفرد قَدِمٍ لزيارته وفَشِل تريستن في أداء التحيّة العسكريّة له، كان جالسًا هناك يكرع من النبيذ ثم غادر دون وداع غير أنّه طلب من أخيه أن يخبر ون ستاب بأن يأخذ حصانَه المفضّل إن لم يُكتَب له الرجوع. خارجَ خيمةِ المستشفى كان رفيقُ تريستن، كنديٌّ-فرنسيٌّ ضخمُ البنية اسمه نويل، صيّادٌ من بريتيش كولومبيا، ينتظر بعينين كسيرتين في المطر. وصلت الأنباءُ منذ قليل مخبرةً عن موت الرائد وصمويل. كانا في مهمّةٍ استطلاعيّةٍ جهةَ كاليه مع فرقة كشّافة عندما تعرّضوا لهجومٍ بغاز الخردل، ثمّ هاموا مُخدّرين في فضاءِ غابةٍ كستناء قبل أن تمزّقهم الرشّاشات أشلاءً. كشّافٌ وحيدٌ نجا عائدًا إليهم بالحكاية وقد جرى الآن استجوابُه. وقف تريستن هناك دائخًا في المطر والطين وصديقه يعانقه في أسى. اقترب منهما الكشّاف الذي كان ينتمي إلى خيمتهما وعلى إثره ضابطٌ. هرعوا إلى مُستراد الخيل وأسرجوا ثلاثة جياد. أمرهم الضابط أن

يتوقّفوا فأوقعوه جانبًا وجيادهم تَخُبُّ بهم متجهين شمالًا ناحيةَ كاليه حتى بلغوا الغابةَ منتصفَ الليل. قعدوا ساكنين خامدين بلا نارٍ خلال الليل وإذ طلع الفجرُ على الثلج الدقيق الرقيق زحفوا قُدُمًا على الثلج ومسحوه عن وجوه دزينةٍ أو أكثر من القتلى إلى أن عثر تريستن على صمويل، قبّله وغسل وجهَه المتجمّدَ بدموعه: وجهُ صمويل رماديٌّ لم يُمَسَّ لكنّ بطنَه انشقّ من قفصه الصدريّ. فصل تريستن القلبَ بسكّينِ سلخٍ وركبوا عائدين إلى المخيّم حيث ذوّب نويل شمعًا وغلّفوا قلبَ صمويل بالبَرافين وحفظوه في علبة ذخيرة لدفنه في مونتانا. قاطعهم دخول ضابط سرعان ما غادر دون أن ينبس بكلمة إذ خطر له أنّهم ربما خنقوه لو تدخّل. حين فرغوا شَرِب نويل وتريستن لترًا من البراندي من غنائمِ بيتٍ في مزرعة ثمّ خرج تريستن من الخيمة عاويًا باللعنةِ على الربّ حتى هدّأه نويل فنام.

استيقظ تريستن في الصباح ورفض بقسوةٍ أن يرِقَّ لألفرد عندما بعث إليه من يحضره إلى خيمة المستشفى. كتب رسالةً وألصقها بالعلبة قائلًا: «أبي العزيز، هذا كلُّ ما استطعت إرسالَه إلى الوطن من جسد حبيبنا صمويل. قلبي منفطرٌ كما سيكون قلبك. سوف يجيئُك به ألفرد. تعرف ذلك المكان الذي ينبغي أن يُدفَنَ فيه قربَ النبع في الوادي حيث وجدنا قرني الكبش الأعقفين. ولدك تريستن».

ثمّ جُنّ تريستن وثمّة قلّةٌ من المحاربين القدامى في كندا ما زالوا يتذكّرون انتقامَه، لأنّه قد قُبِضَ عليه وقُيِّد قبل أن يبلغ الثأرُ تمامه. في البدء تظاهر تريستن ونويل بالجدّية ملتزمَين بالأوامر العسكريّة ومتطوِّعَين في مهمّات الاستطلاع الليليّة. بعد ثلاث ليالٍ كانت سبعُ فرواتِ رؤوسٍ شقراءَ تتدلّى من عمود خيمتهم. في الليلة الرابعة جُرِح نويل جرحًا قاتلًا ووصل تريستن إلى المخيّم عند منتصف الليل حاملًا إيّاه على مقدَّم السرج. عبر حشدًا من

الجند إلى الخيمة حيث أضجع نويل على فراشه وسفح البراندي في حلقه الجافّ. غنّى أغنيةَ شفاءٍ شايانيّةٍ علّمه إيّاها ون ستاب وتجمّع الجند حول الخيمة. حُمِل ألفرد بأمر القائد على نقّالةٍ كي يتفاهم مع تريستن. عندما فتحوا باب الخيمة وجدوا تريستن وقد صنع عقدًا من فروات الرؤوس ووضع سكّينَه وبندقيّتَه على صدر نويل. قيّدوه في سترة المجانين وأرسلوه إلى مصحّةٍ في باريس فرَّ منها خلال أسبوع.

الطبيب الذي حاول علاج تريستن في باريس شابٌّ كنديٌّ من هاميلتون كأنّما مُنح له تلقائيًّا قسم الطبِّ النفسيّ. في دراساته العليا في السوربون اشتغل قليلًا على هذا العلم الحديث المتعلّق بدراسة السلوك لكنّه لم يملك الاستعداد الكافي للتعامل مع ضحايا الخوف والصدمات النفسيّة الوافدين إليه بشكلٍ يوميّ. قاده صِغَرُ سنِّه وتشاؤمه الباريسيُّ المتبنّى إلى الاعتقاد بأنّ الرجالَ كانوا مجرّد جبناء، لكنّ سلوكَهم الغريبَ سرعانَ ما حرّره من ذلك التصوّر. لقد كانوا جِراءً مصدومةً إمّا باكين في الليل يريدون أمّهاتهم أو منكفئين على صمتٍ دائمٍ لا عزاء له. شكّ الطبيب إذن في قدرته على رتق أرواحهم حتى كاد يغلبه السأمُ من مرضاه وفعل ما بوسعه كي يتخلّص منهم. لذا كان مأخوذًا بوصول تريستن حين أبلغه سائقُ الإسعاف أنّ «مجنونًا» حقيقيًّا ينتظر أن يُحمَلَ إليه. أرسل الطبيبُ الممرضيْن وقرأ تقرير القائد عن تريستن. شعر بأنّ الفروات المسلوخةَ لم تؤثّر في نفسه فاستغرب من ذلك وتفاجأ من ارتياع القائد. كيف لغاز الخردل أن يُعَدَّ عملًا حربيًّا طبيعيًّا بينما يُشنَّع على رجلٍ يسلخ رؤوس قتلاه انتقامًا لموت أخيه؟ كلُّ الأطباء قد أُطلِعوا على التأثيرات الصحيّة المعقّدة لغاز الخردل الذي أسَّسَ في الحقيقة لبداية الحرب الحديثة فعليًّا. كان الطبيب قد درس عيون الأدب الكلاسيكيِّ في أكسفورد وشعر بأنّه تعلّم فنون الانتقام. أمر بجلب تريستن إلى مكتبه، سرّح المسعفين

وخلّص الرجلَ من قيود سترته فشكره بأدبٍ ثمّ أردف «هل لي بشراب؟». أعاره الطبيب لباسًا رسميًّا واصطحبه في نزهةٍ عبر غابة بولونيا إلى مقهى صغير حيث أكلا وشربا بصمت. أخيرًا قال له الطبيب أنّه كان على معرفةٍ بما جرى ولا حاجة للحديث عنه، وأنّ تسريح تريستن من الجيش وإعادتَه إلى أهله سيستغرق أشهرًا مع الأسف لكنّه سيبذل قصارى جهده لضمان أن يحظى تريستن بإقامةٍ مريحةٍ قدرَ الإمكان.

أخذت الأخبارُ أسابيعَ عديدةً كي تصل إلى مونتانا. في ظهر يومٍ باردٍ لكنّه مشمسٌ وصافٍ إثرَ عاصفة في آخر فبراير، أقلَّ أحدُ العاملَين الجديدَين بِت بالسيّارة إلى تشوتيا للتبضّعِ وتفقّدِ البريد. مسح لودلو غشاوةَ الصقيع عن نافذةٍ في المطبخ وحدّق في مقدارٍ ضئيلٍ من الشمس رآه يحوِّم فوق ظلال الحظيرةِ المزرقَّةِ والمكبَّلةِ بالثلج. قعد دِكر مع ون ستاب يشربان القهوة ويتجادلان حول الارتفاعات وخرائطُ مفروشةٌ أمامهم على الطاولة. كان ون ستاب يُصحِّح الخرائط لأنّه رفقةَ صديقٍ من كري يُعرَف تبجيلًا له بالرجل الذي يبصر بعيني طائر، لامتلاكه حساسيّةً طوبوغرافيّةً عجيبة، كانا قد مسحا كاملَ المنطقة من برونينغ إلى ميسولا. لم يكن ون ستاب مقتنعًا بأرقام الارتفاعات المسندة إلى الجبال. كم يبلغ الارتفاع فوق أيٍّ من البحار السبعة التي أخبره تريستن عنها؟ ماذا تعني الأرقام ولا بحرَ في الجوار؟ بعض الجبال الكبيرة لا يوجد ما يميّزها بينما هناك جبالٌ بعينها أصغرُ لكنّها أميزُ وتحوي أماكنَ مقدّسةً وينابيعَ صافية.

ثمّ تخلُّصًا من النقاش طلب ون ستاب من دِكر أن يقرأ له من In the Grip of the Nyika لـ جي. إتش. باترسون، مؤلِّفِ The Man-Eaters of the Tsavo أيضًا، كلا الكتابين عن مغامرات الاكتشاف والصيد التي قام بها العقيد البريطانيُّ في شرق أفريقيا. ملّ دِكر من الكتابين لكنّ تريستن كان قد

بدأ قراءتها منذ سنوات وكان ون ستاب يكتفي بإغماض عينيه والإنصات برضا عميق إلى مقاطعه المفضّلة، مِن قبيل الأسودِ الضاريةِ هاجمةً على شاحنةٍ مكشوفةٍ كي تخطف عمّال سكّة الحديد وتلتهمهم، أو الفيلِ المتوحّشِ بنابه الوحيد طاعنًا الحصانَ المسمّى علاء الدين، أو الأفضل من ذلك كلّه، قطيع الكركدنّ الذي مات منه عددٌ كبيرٌ مُرتَصًّا في وجه القطار الجديد العابر من منطقته. جعله المقطع الأخير يتصوّر آلافَ الجواميس راكضةً على سكّة حديد نورذرن باسيفيك ثمّ ناطحةً القطار حتى أخرجته عن مساره. قبل سنوات عديدة حينما كان مرتبطًا بالبقايا الممزّقة من حركة رقصة الشبح، أخبره الرجل الذي يبصر بعيني طائر أنّه خلق جاموسًا جديدًا من جمجمة جاموسٍ رماها في أبخرةٍ كبريتيّةٍ متصاعدةٍ في يلوستون عندما كان لودلو يقيس شلّالات الماء العظيمةَ لفائدة الحكومة. كانت الرحلة مصدرًا لتندّر ون ستاب الذي رأى كميّة المياه الهائلة وصرخ بأرقامٍ حتى طلب منه لودلو المشوَّشُ ذهنُه أن يهدأ. وعده تريستن أن يأخذه يومًا إلى المكان حيث الحيوان يقاتل القطار.

دخلت بِت من الباب خابطةً حذاءها كي تنفض عنه الثلج. سلّمت لودلو رسالة تريستن وأشاحت بوجهها. كذا فعل دِكر. وحده ون ستاب شاهد لودلو يفتح الرسالة غيرَ متخوِّفٍ ممّا قد يجلبه القدر لأنّه امتلك الحسَّ الشايانيَّ بالهلاك وبأنّ ما حدث قد حدث. لن تملك تغييرَه ومحاولتك لفعل ذلك مثل رمي الحصى على القمر.

لم يزل لودلو متنعّمًا بثمالةٍ من شباب حتى شاخ في ليلةٍ واحدة. حزنه المذهول هوى به في دركات الغضب، وإدمانُه الشربَ فاقم من ندمه. في حالةٍ معيّنةٍ من السُّكْر يتحوّل غضبه إلى هيجان عنيف وهو ما دمّر نسيجَ قوّته كأنّما انفلتت أوتارُ عضلاته فارتخى منحنيًا وغير عابئ بمظهره. قرأ

رسالة تريستن القاتلة مرّاتٍ كثيرةً حتى اتّسخت بين يديه واهترأت. حين أتت رسالةُ التعزية الرسميّة لم يفتحها ولم يردّ على الرسائل المذعورة التي تبعثها زوجته كلّ يوم. لم يكن ذاهلًا عن نفسه بقدر ما كان مغمورًا بضعفه وقلّة حيلته. وكيف تراهم حبسوا تريستن قبل أن يسلخ رأسَ كلِّ هُونيٍّ ملعونٍ على هذه القارّة. وما غازُ الخردلِ هذا الذي جعل الرجال يهيمون عُميًا محترقي الرئات والأحصنةُ تنتحب من تحتهم. لن يكون العالم بعد الآن مناسبًا للحرب وقد ارتدّ سرًّا عن إيمانه بها. أعلنت بِت الحداد، وأفسحت لها إيزابيل الصغيرةُ مساحةً للحزن، منشغلةً بقراءة قصص الأطفال لون ستاب الذي شارك صديقَه ومعلّمَه ذات مساءٍ في الشرب، لم يمجّه هذه المرّةَ على سبيل التغيير. لكن خلال ساعةٍ كان على دِكر أن يقيِّدَه، ويسقيَه جرعةً أكبر حتى ينام ويحملَه إلى كوخه بعد أن غنّى أغنيةً بالشايانيّة عن حياة صمويل ونزهاته في الغابة ومجاهره الكاشفة عن عوالمَ خفيّة، ثم انتقل إلى أغنية موتٍ شايانيّة انهار على إثرها لودلو فلقد مرّت أربعون سنة منذ سمعها آخر مرة عندما مات كشّافٌ في الأراضي الوَعِرة Mauvaises Terres.

في باريس شرع تريستن في التخطيط لهروبه بعد الليلة الأولى في المصحّة، ضوضاء المكان كانت سمفونيّةَ مجانين. كانت جريرةُ تريستن محدَّدةً ومرتبطةً بجثّة أخيه، بالقلبِ غارقًا في علبة بَرافين، خلافَ لودلو الذي كان ذا طبيعة عاطفيّة في المجمل، لكنّه كان ثريًّا أيضًا، وكان الثراء في السنوات الأخيرة يقيه من آلة الحضارة في صورتها الحقيقيّة. ألفرد فقط لكونه ابنَ الواقعِ السائدِ تخلّص من هذا الشعور بالذنب. أخبر تريستن الطبيب في اليوم الثالث أنّه لا يطيق الملجأ وأنّه سيسافر بطريقةٍ ما إلى جدّه في كورنول. قال الطبيب لا يمكنك ذلك لكنّه لم يجزم بمنعه. كان قد تحدّث في موضوعه مع القائد الأعلى الذي كان يعرف صيتَ لودلو- كان الوسط العسكريّ أشبهَ بنادٍ في

تلك الأيام. نصح العقيدُ بأن يُخلَّى بين تريستن والهروب فالرجل كان عاجزًا تمامًا وينبغي أن يُمنَحَ طريقًا سالكةً إلى البيت.

في نزهته اليوميّة عبر غابة بولونيا وإلى إصطبل لونغشامب شبهِ المهجور كان قد شاهد جيادًا تُمتطَى وتُمرَّن. اشترى يومًا فرسًا أصيلة، لعلمه أنّ تصاريحَ ركوبٍ رسميّةً كانت تُطلَب في القطارات. أبلغ الطبيبَ بنواياه فدوّن الطبيب ملاحظةً بذلك. عند الفجر جمع تريستن متاعَه القليلَ في صرّةٍ وانسلّ من عند مناوبٍ نائم. استغرقته الرحلةُ إلى الساحل خمسةَ أيام ممتطيًا جوادَه في المطر الذي صار بَرَدًا مع فترات متقطِّعةٍ من الثلج. عبر سريعًا نقاطَ التفتيش مؤدّيًا في حماسةٍ تحيّاته العسكريّة للضبّاط دونما تمهّل، سقطت حدوة الفرس في ليزيو فأصلحها له حدّادٌ بسرعةٍ مقابلَ ثمنٍ باهظ. في شاربورغ أدرك بسهولة نسبيّة سفينةَ شحنٍ ذاهبةً إلى بورنمث واشترى بعد أن غادرها حصانًا آخر وامتطاه متّجهًا غربًا إلى فالمث على ساحل كورنول. في منتصف ليلةٍ باردة والمحيط الأطلنطيُّ يهدر على مِصَدِّ الأمواج في الخارج قدّم نفسَه عند باب جدّه. هذا الطرقُ المتأخّرُ في الليل أحضر جدّه في قميص نومه مسلَّحًا بمسدّس ‹بيسلي› اشتراه في نيو أورلينز. قال تريستن: «أنا ابن ويليام، تريستن». رفع الجدُّ المصباحَ عاليًا فعرفه من الصور وقال، «إذن فأنت هو». أيقظ الربّان زوجته التي أعدّت وجبةً وسحب أفضل زجاجة رم عنده من بربادوس ترحيبًا بهذا المجنون الذي ظلّ يسمع عنه طيلة عشرين عامًا.

قضى تريستن شهرًا من التكتّم والحيطة في كورنول وقد بلغ لودلو أنّه كان في مأمن بعد فراره. في صباح اليوم الأوّل ألزمه الربّان بأن يقوم بالأعمال الأكثر وضاعةً على متن السفينة الشراعيّة، لا درايةَ لتريستن بأيِّ شيءٍ عن السفن لكنّه تعلّم سريعًا حبالَ المرساة والعقدَ والأشرعة. كان عند الربان حمولةٌ من المولّدات معادةِ التصنيع متجهةٌ إلى نوفا سكوشا، في مارس،

ليحملَ شحنةً من لحم الأبقار المملّح تُسلَّم في نورفولك في طريق العودة. سيُنزِل تريستن في بوسطن كي يكون مع أمّه التي شجاها الفقد ثمّ في وسعه من هناك أن يرجع إلى البيت. أبحروا في مارس على سفينتهم العتيقة مع طاقم من أربعة بحّارة قدماء وحرسٍ شديدي المراس- الرجال الأقدر كانوا مطلوبين في الحرب خدمةً لإنجلترا. كسّر تريستن قطع الجليد عن القضبان لأسبوع قبل أن يصبح الجوّ أدفأَ قليلًا فحسب، لكن يمكن اعتباره معتدلًا. أنزلوه في بوسطن دون تكلّفٍ بعد ثلاثة أسابيع في البحر. شقّ تريستن طريقَه إلى المحطّة الجنوبيّة ورضع قنّينة رم في ذهابه إلى دِدهام على بعد ميل حيث أُغمي على سوزانا حين بلغ عتبةَ بابِ أبيها. لم تكن تعلم أنّه قد وعد الربّانَ العجوزَ بأن يلتقيَه في هافانا بعد ثلاثة أشهر.

تريستن، ألفرد، إيزابيل وسوزانا جلسوا في صالةِ استقبالٍ معتمةٍ في ميدان لويسبرغ؛ ولدان، وأمٌّ، وخطيبةٌ مُدلّهة شعرت بأنّ في وجودها انتهاكًا لحزنهم. تريستن كان جافًا وفظًّا وألفرد كئيبًا وخشنًا بعضَ الشيء، وإيزابيل غيرَ قادرةٍ على التحكّم بنفسها. جهّزوا أنفسهم لحضور حفلة تأبين أقامها أصدقاء صمويل في كليّة هارفرد وفاءً لذكراه. ثم أعلن تريستن أنّه سيتزّوج سوزانا خلال بضعة أيّام لكنّ أمّه رفضت السماح بذلك قائلةً أنّه من غير اللائق الزواج قبل انتهاء مأتم أخيه. تريستن كان جلفًا ومجنونًا فأخبرها أنّ بإمكانها الحضورَ إن أرادت.

تريستن وسوزانا تزوّجا في بيت عائلتها الريفيّ قربَ دِدهام وكانت المناسبة رصينةً بشكلٍ بئيس. أختا سوزانا وحدهما فَهِمتا كيف تزوّجت رجلًا أبغضه أبواها رغم صداقتهما المقرّبة بإيزابيل.

في صباحٍ من آخرِ أبريل ذهب لودلو إلى محطّة القطار في ملابس مُوحِلة خارجًا عن تقليعاته الغريبة المتزايدة. كان منشغلًا بإصلاح الخراب الذي

تسبّب به الجليد للسور الحجريّ الكورنوليّ حول بيت المزرعة. ليس لأنّ لديه موقفًا عاطفيًّا ضدّ الأسيجة الشائكة، لكنّ النظر إليها لم يكن يعجبه. طلبت إيزابيل قسّيسا من الكنيسة المشيخيّة لأجل مراسم الجنازة في اليوم التالي لكنّ لودلو لم يتّصل بالرجل، عاجزًا عن استيعاب أيّة علاقةٍ تربطه بصمويل.

بصعوبةٍ غيّر تريستن وسوزانا مقصورتهما في رحلة القطار إذ كانت في نظر إيزابيل غيرَ لائقةٍ بزوجين ممّا أشعل غيرةَ ألفرد الخبيثة. كان في ذهن تريستن أن ينجبا طفلًا يعوّض غيابَ أخيه وكانت تلك هي الغاية الوحيدة من زواجه، باعثٌ قاسٍ في جوهره، لقد أدركَ ذلك لكنّه لم يستطع منْعَ نفسِه. عندما عانق أباه في رأس المحطّة ارتجف لكنّه لم ينتحب حتى عانق ون ستاب.

باكرًا في الصباح التالي، صباحٍ ربيعيٍّ زاهٍ بالبراعم الخضراء الناعمة في أشجار الحور وبالعشب القشيب، دفنوا قلب صمويل قربَ النبع في الوادي. رأت إيزابيل حيواتهم كلّها تصبح تاريخًا في وحدات من أيّامٍ وليالٍ محاطةٍ بخصوصيّةٍ قاتلة فلم يعد ثَمَّ أحدٌ لتمنحَه الحب. شاهد ون ستاب من قمّة التلِّ دِكر يُهيل التراب. عندما غادر الجميعُ نزل وتأمّل الشاهدَ الحجريَّ غيرَ قادرٍ على قراءة الكلمات المحفورة.

صمويل دانت لودلو 1897-1915

لن نراه

ولكنّا به لاحقون

الفصل 2

منتصفَ الصيف كانت أحلامُ تريستن ملآنةً بالماء؛ الأطلسيُّ الموّارُ الباردُ غزا نومَه بانتشاراتٍ خضراء. إن استيقظ في الليل مسح بيده آمِلًا على بطن سوزانا. في الشهرين الأوّلين من زواجهما كان حقًّا عاشقًا مجنونًا ولا علاقة لهذا بأيّ سببٍ بيولوجيّ، لكنّه الجرحُ في عقله إثرَ موت صمويل. فكّر بكسلٍ في الصلاة وضحك من نفسه مخمِّنًا أن الربَّ على الأرجح سيهبه فأرَ مسكٍ ولدًا. كان على بُعد أسبوعٍ من رحيله غيرِ المعلن إلى هافانا للقاء جدّه، أمرٌ عرف يقينًا زيغَه لكنّه لم يستطع منعَ نفسِه. قبل مئة سنة كان سيرضيه أن يضرب في الأرض، والجبال، والأنهار التي تبدو بلا نهاية، لكن الآن في الحادية والعشرين في 1915 لم يبقَ إلّا القليلُ من ذلك أو لاشيء منه على الإطلاق، ودافعه كان أن يرى ما وراء الموجةِ السبعةِ مليونٍ وأبعد. وليس ذلك لأنّه لم يحبّ المكان الذي كان فيه: في الحقيقة كان شمال مونتانا على مسافةٍ قصيرةٍ من كندا مجالَه الوحيد. ربما لأنّه أحبّ زوجتَه كثيرًا بقدر ما يمكن لشابٍّ بمثل طبيعته الفذّة أن يحبّ. لقد شغُف بها، واستبقاها لنفسه، وتكلّما لساعات عن خططٍ مستقبليّةٍ أقربَ للخيال (بالنسبة إلى أمثاله): أن يملكا مزرعةً ويربّيا عائلةً وخيولًا أصيلة، وبالطبع، ماشيةً كي تسند المشروع. اعتادت سوزانا أن تجلس قرب الحظيرة تحت مظلّةٍ كي تقيَ بشرتها الفاتحة وتشاهدَ تريستن ودِكر يروِّضان الخيل بمساعدة الغريب نصفِ الأسودِ من كري الذي نشِب

في ظهر أجمح الأحصنة كحسكةٍ في شعر كلب.

انشغل لودلو بتسلية والد سوزانا، آرثر، الذي جاء إلى الغرب في بعثةٍ رياضيّة مع حقيبةٍ ملأى بقصبات صيد من صناعة إتش. إل. لينارد. كان غريبًا في نظر لودلو أن بدا الرجل على مرأى الجميع مهتمًّا بألفرد أكثرَ منه بتريستن. تحسّن ظهرُ ألفرد من تلقاء نفسه، لكنّ ساقه لم تزل محتاجةً إلى عكّاز. بعد بضعة أسابيع من صيد السمك، بحث المموِّلُ، مع أنّه كان مستمتعًا بوقته غايةَ الاستمتاع، عن شيءٍ يُشترَى بذلك الفضول التقليديِّ الخاصِّ بأصحاب الثروات الذين كلّما كانوا في مزاجٍ جيّد تلفّتوا باحثين عن شيءٍ يُشترَى. استقرّ رأيه على مزرعةٍ كبيرةٍ مجاورة وقدّمها هديّةَ زواجٍ لابنته وصهره رغم احتفاظه بالنصف ليضمن أن تكون في دائرة ما يسمّيه «استثمارات حكيمة».

طغت الرقّةُ مجدّدًا على لودلو مع زوجته: حزنهما بات أكبرَ من أن يحتملاه منعزلَين. صحا طريًّا في هاجرة يومِ أحدٍ حين كانوا في نزهةٍ على العشب وكانت فتاةٌ بفستانٍ صيفيٍّ رخيص قد قصدت البوّابةَ على ظهر حصانٍ غيرِ مُسرَج. هبّ تريستن، وقد عرفها، في لمح البصر وأنزلها عن ظهر الحصان فيما الآخرون نظروا في حيرةٍ متبرّمين بعضَ الشيء: كانت ابنةَ الفلّاح من نواحي كت بانك التي أعطاها صمويل ساعتَه الذهبيّةَ تعويذةً. اقتربت من طاولة النزهة ضامّةً حقيبتها إلى صدرها. عرّف بها تريستن، وأحضر لها طبقًا من طعام وكأسًا من عصير ليمون. قعد بجوارها وشاهدها ببالغ الأذى وهي تُخرج ساعةَ صمويل من حقيبتها. لقد علمت بموته من جريدة هيلينا وارتحلتَ على ظهر حصانها مسافةَ ثلاثةِ أيّامٍ كي تُرجِع الساعة، وكي يطّلعوا، إن أرادوا، على رسائلِ صمويل إليها. مئةُ رسالةٍ أو تزيد، واحدةٌ لكلِّ يومٍ من أيّام خدمته، وكلُّها بخطّه الأنيق. بدأت إيزابيل تقرأ ثمّ غلبها

الأسى. مشى لودلو على العشب لاعبًا بينما حدّق ألفرد في الأرض. أخذت سوزانا الفتاة لتستحمّ وترتاح. قبل العصر قالت الفتاة أنّ عليها أن تغادر وطلبت منهم أن يعيدوا إليها الرسائل متى فرغوا من قراءتها. وما قبِلت منهم شيئًا، لا ملابسَ، ولا مالًا، ولا حتى الساعةَ الذهبيّةَ سوى أنّها سألتهم أن يمنحوها صورةً لصمويل فلقد أهمل أن يرسل إليها واحدةً أو غلبه الخجل. رافقها تريستن أميالًا قليلةً متمنيًا لو أنّها كانت حاملًا بثمرة صمويل وأنّ ذلك سيعيده بصورةٍ ما، لكن هيهات، لقد مات طاهرًا وعذريًّا. وها هي الآن ترحل وليس سوى صورةٍ تواسيها. كم كان بودّه أن يخنق العالم.

عاد تريستن بمزاجٍ كريهٍ حاول معه ترويضَ حصانٍ فحلٍ لم يحالفهم الحظّ في ترويضه بعد. كان حيوانًا صعبًا وضخمًا من سلالةٍ عُرفت في ما بعد باسم حصان كورتر[1]. كان ينوي أن يلقّح به ثلاثًا من أفراس والده من سلالة ثوروبِرِد ورآها لودلو فكرةً مثيرة للاهتمام، لكن والد سوزانا، من هواة خيول السباق، أنكرها مشنِّعًا. عَمِل تريستن جهدَه خلال بقيّة النهار حتى خُيِّل لرائيه عند الشفق أنّ أحدَ الوحشين داخل السياج، إمّا الحصان أو تريستن، سينتهي به الأمر ميّتًا في النزال. هَزِئ والد سوزانا بالحصان قائلًا أنّ أفضل مهمّةٍ له أن يُقدَّم لحمًا للكلاب، خزّه تريستن بنظرةٍ وقال أنّه سيسمّي الحصان على شرفه (آرثر لحم الكلب) فنفر من مكانه رافضًا أن يشاركهم العشاء لاحقًا ومطالبًا باعتذارٍ لم يحصل عليه.

في الهزيع الأخير من تلك الليلة اقتحم المحيطُ مجدّدًا أحلامَ تريستن: اطّرح جسدَه المُجرَّحَ ورأى السماءَ السوداءَ وأمواجَ حارسِ الليلِ الهائلةَ الهادرة، وخشخشةَ صارٍ جمّده الثلج، ثمّ السماءَ مرصّعةً بنجومٍ أكبرَ من أن تكون نجوما. أفاق على سوزانا تُغطّيه وعلى الستائر تصطفق كأنّها أشرعة.

1- Quarter Horse سمّي بذلك لاشتهاره بالسرعة العالية في سباقات ربع الميل.

ذهب إلى النافذة ومنح الحصانَ في السياج نظرةً طويلة؛ استطاع في نور القمر أن يلمح جزءًا من عنقه المكتنز الغليظ. أخبر سوزانا أنّه سيغيب أشهرًا معدودة، أو حتى عامًا كاملًا، كي يستقبل سفينة جدّه في هافانا. قالت أنّها أدركت حاجتَه للرحيل وأنّها سوف تنتظره إلى الأبد. على الإفطار قبّل أمَّه وأباه مودِّعًا وركب حصانًا رفقةَ ون ستاب إلى غريت فولز كي يستقلَّ القطار. أعطاه ون ستاب سكّين سلخٍ فتذكّر تريستن أنّ سكّينَه دُفِنت مع نويل في يبريس. عانق الهنديَّ العجوزَ وقال أنّه سوف يرجع، فلم يزد ون ستاب على أن قال: «أعرف»، مجهِّزًا حبلًا لاقتياد حصان تريستن.

الرحلة لم تنتهِ قطّ، إلّا كما تنتهي رحلة كلّ شخص: في حياة هذا الرجل، على جانب تلٍّ مغطّى بالثلوج في ألبرتا آخرَ ديسمبر من سنة 1977 في الرابعة والثمانين من العمر (عثر عليه أحدُ أحفاده إلى جنب جثّة غزالة قد بات يُفرِغُ أحشاءها، كفّه متجمّدة حول سكّين السلخ التي أعطاه إيّاها ون ستاب ذلك اليوم في غريت فولز. علّق الحفيد الغزالة على شجرة الطمراق وحمل العجوز إلى البيت، كان حذاؤه يغوص في الثلج أعمقَ من العادة بقليل).

أخذ تريستن القطار شرقًا إلى شيكاغو، لبث أيّامًا قليلةً بدافع الفضول يدرس سفن البحيرات العظمى في المرسى، ثم جنوبًا إلى نيو أورلينز ومن بعدها موبيل حيث أمضى بضعة أيّام في سفينة رجلٍ ويلزيٍّ يقطن نيوفنلند ثم نزل عبر فلوريدا إلى كي وِست حيث أقلّته عبّارةٌ ليليّةٌ إلى هافانا بعد أن شاهد حمولةً من سلاحفَ خضراءَ تُفرَغُ في حظيرةٍ من على ظهر سفينةٍ قادمةٍ من جزر كايمان، سفينةٍ جميلةِ المنظرِ لكنّها غايةٌ في القذارة.

كانت أوّلَ مرّةٍ له في المناطق الاستوائيّة وليلةَ سفره إلى هافانا أصابه الأرق، فأنفق الساعات ماشيًا على سطح العبّارة ومتعجّبًا من الحرارة الرطبة الكثيفة التي لم تقدر نسائمُ تيّارِ الخليجِ الخفيفةُ على تبديدها؛ وتحت القيدوم،

حيث مشى إلى المقدّمة هاربًا من رائحة دخان الفحم المنبعث من الأكوام، كانت الأمواج فسفوريّة. مع الشروق وهافانا باديةٌ في الأفق ارتشف الرم من قنّينته مشاهدًا لأوّل مرّةٍ خنازيرَ البحر تقفز من أمام القيدوم، تتريّث، ثم تندفع في أَثَر العبّارة على الماء: ملتفتًا رأى تيّار الخليج يلقي بظلّه المُشعشعِ الأرجوانيِّ الغريبِ الشاسعِ على وجه السماء. كان أحمرَ العينين ومجهدًا من السفر لكنّه للمرّة الأولى خلال نصف عام شعر بشيءٍ قريبٍ من السكينة في روحه، كأنّما نسيمُ الفجر الساحليّ قد غسل السطح مهما يكن ما تحته من توتّر واضطراب. تبسّم للماء ولفكرةِ أنّ سفينة جدّه ذات الصواري رغم جِدّتها نسبيًّا كانت تحتلّ مكانًا صغيرًا في عالم السفن البخاريّة العظيمة الراسية في هافانا. لكنّ جدّه رغِبَ في أن يقتصد في المصاريف وأن يملك سفينةً يرسو بها حيث شاء حين كانت الموانئ طاردةً لشركات الشحن الكبيرة، والخلجانُ ضحلةً على غواطس السفن العملاقة والحمولات الثقيلة. ثم إنّ الشيخ قال أنّه يكره رائحةَ الدخان وصوتَ المحرّكات في البحر وأنّ الوقت قد فات في نظره على أن يُنمّيَ اهتمامًا بغرائب السفن وأشكالها البشعة.

الناس في النهاية يتحاشون الأسئلة الموجعة، مثل لغز الافتقار الواضح لنظامٍ عادلٍ يحقّق الثواب والعقاب على الأرض، كما يتحاشى أحدهم مصابًا بالجذام. لا يقلّل من إيذاء السؤال عقمُه ولا غرابتُه. ونحن لا نحفل بالقضايا الأكثرِ مأساويّةً: كأن يتلقّى أطفالُ قبيلة (نِز برس)[1] وابلاً من نيران فرقة الخيّالةِ في خيام نومهم. لا شيءَ أبشعُ من لقاء رصاصةٍ بطفل. ويالَلهوّة في الفهم: شدّدت الصحافة آنذاك على أنّنا انتصرنا. يطيب لنا الظنّ أنّ الكون المرصّع بالنجوم سيقشعرّ لوحشيّةٍ كهذه: أنّ نطاق الجوزاء انحنى، أنّ ذراعي صليب الجنوب تدلّتا. بالطبع لا: الثابت باقٍ على حاله، وكلٌّ

1- Nez Persé من قبائل السكان الأصليين في واشنطن وأوريغون وآيداهو.

منّا في فَلَكه الخاصّ يصطدم أبدًا بسؤال المعاناةِ الساطعِ على طول المدى. حتى الآلهةُ ليست بمستثناة: تأمّل صرخةَ اليأس من يسوع واطئًا ببعضِ تردُّدٍ عتبةَ الأبد. ولا يبدو أنّنا ننطلق في الفهم من الكبير إلى الصغير لأنّ كلَّ شيء بالحجم نفسه. جِلْدُ كلٍّ منّا شديدُ الخصوصيّة وليس في وسع أحدِنا أن يتخيّل الآخر.

لذا لم يكن لدى تريستن أكثرَ من ذرّة معرفةٍ بالضنى الذي سبّبه لسوزانا. صباحَ رحيله مشت مسافةً طويلةً على غير هدى وتاهت. وجدها ون ستاب عند الغسق وسأله لودلو بعد ذلك أن يراقب سيرَها إن هي غادرت الدار. مشيُها الطويلُ استمرّ لأسابيع وأبوها قطع إجازته تأفُّفًا عندما رفضت خطّتَه لفسخ الزواج. لكنّ شخصيّة سوزانا انتمت إلى بدايات القرن التاسع عشر أكثرَ منها إلى بدايات القرن العشرين ولأنّها عاشقةٌ مهجورة كانت عازفةً عن الشعور بالآخرين أو الإشفاق على أيّ أحد؛ لم يكن ليثنيَها عن ذلك شيءٌ وأمضت وقتها إمّا ماشيةً وبيدها كتيّباتُ صمويل عن النباتات والحيوانات أو جالسةً في غرفتها تقرأ وردزورث، كيتس وشيلي، شعراءها المفضّلين من عامي دراستها في رادكلِف قبل زواجها بتريستن. استمتعت بتبادل الأحاديث مع حماتها الموسومة بذكاءٍ يضاهي ذكاءها الاستثنائيّ ما دامت الأحاديث لا تقود إلى تريستن. لكنّ أكثرَ ما حُبِّب إليها كان التنزّه مشيًا لمسافات طويلة في الصيف وانهاكها إلى الحدّ الذي لم تلحظ فيه أنّ ون ستاب كان يراقبها. أحيانًا كانت تدعو إيزابيل الصغيرة لمرافقتها وتنبهر من توقّد ذهنها ومعرفتها بعالم الطبيعة معرفةً حصلّتها من أمّها ومن الملاحظة لا من الكتب. ذاتَ ظهيرةٍ قائظةٍ بينما كانتا تستحمّان في بركةٍ شكلّها النبعُ قربَ قبرِ صمويل لمحت إيزابيل ون ستاب في الغابة ولوّحت له بيديها. صرخت سوزانا وغطّت نفسها واعتراها الخجل أمام حيرة الطفلة. ثم ضحكت

إيزابيل وقالت بأنّها سوف تتزوّج ون ستاب عندما تكبر ما لم يصبح شيخًا كبيرًا فسوزانا قد سبقتها إلى الزواج بتريستن وليس على الأرض خيارٌ آخرُ سواهما. انزلقت سوزانا إلى عنقها في الماء متذكّرةً تريستن وهو يقلّد في أحد الأيام في هذه البركة ثعلبَ ماءٍ يطارد سلمونًا مرقّطًا ويأكل بقلةً مائيّة. كانت إيزابيل تقول أنّ ون ستاب ما لَحِقها إلّا حمايةً لها من الضياع أو من أن تهيمَ سهوًا بين أنثى دبٍّ رماديٍّ وصغارِها.

* * *

ذاك الصباحَ في هافانا أفطر تريستن ثمّ ذرع الشوارع حتى انتصف النهار، الوقتُ المحدّدُ لزيارةِ جدّه اليوميّةِ مكتبَ الشحن. كان اللقاء وديًّا في البداية لكن عندما خرجا في القيظ اللاهب بعيدًا عن الموظفين تجهّم جدُّه وأسرع الخُطى مائلًا بجذعه إلى الأمام كرجلٍ في عاصفةٍ مطيرة. لقد أُعِيد طاقمُ سفينته إلى الديار وكان مريضًا بالزُّحار، الشكوى الوحيدة التي سمعها خارجةً من فمه، لكنّها كانت حجابَه عن الواقع المحتوم: سوف يُستولَى على السفينة عند رجوعها إلى فالمث مساهَمَةً منه في المجهود الحربيّ. وكيما تبقى له اليد العليا عليها يجب أن يكونوا متعاونين. عندما اجتازا الحراسة حول القنصليّة البريطانيّة توقف العجوزُ ونظر إلى تريستن بعينيه الزرقاوين الباردتين وأمره أن يُمسِك لسانَه: الصفقةُ قد عُقِدت. ثم سكب العجوز معظم الرم الذي معه لتريستن قائلًا بأن على أحاسيسه أن تتبلّد قليلًا كي يحتمل هؤلاء الحمقى.

لاحقًا في تلك الظهيرة حمّلوا السفينةَ الإمداداتِ مع رفيقٍ جديد، دنماركيٌّ من سان فرانسيسكو اسمه أسغارد، وثلاثةِ كوبيين ذوي خبرةٍ سيشتغلون على ظهر السفينة. قبطان التسجيل الآن صار تريستن بينما أُدرِجَ جدُّه ضمن قائمة المسافرين إلى فالمث. أفلتوا من مرساهم في ثياب العتمة، رافعين العلمَ

الأمريكيَّ على الصاري الرئيس ومسجّلين وجهتَهم في سجلٍّ جديد. في ريحٍ شماليّةٍ شرقيّةٍ شديدةٍ أطافوا على كيب أنطونيو مع إشراقة الصباح التالي واتّجهوا جنوبَ غربٍ عبر قناة يوكاتان إلى بارانكويلا لينقلوا شحنةً محايدةً من أخشاب الورد والماهوغني وليقلّوا، لا على سبيل المصادفة، شخصيّةً بريطانيّةً مهمّة. ثم اتجهوا شرقًا، اجتازوا جنوبَ جزر كايمان، صعودًا عبر مضيق وندورد وخروجًا من معبر كايكوس مولّين وجوهَهم شطرَ الشمال عسى أن تساعدهم أمواج تيّار الخليج في الوصول إلى إنجلترا.

في مقصورته نبح الرجل العجوز على أسغارد بطلبٍ عارضٍ واستمرَّ في تدريب تريستن دونما كلل. أخذا معًا فترتي حراسةٍ مستعينَين على السهر بالقهوة الجامايكيّة. لشهرٍ كاملٍ كلُّ ما في عقل تريستن قد انمسح ما عدا تشرُّبَه ستين عامًا من تجربة جدّه: بات نومه مكدَّرًا بصفٍّ من زوابعَ متخيَّلَة، بحبالِ إرساءٍ متقطِّعة، بصوارٍ متصدِّعة، بالأمواج المهولة العاتية تضرب أحايينَ من الشتاء جزيرةَ مدغشقر. لم يروا إذ شارفوا ساحلَ إنجلترا الجنوبيَّ أيّةَ علامةٍ تدلّ على حصارٍ ألمانيّ. تسلَّلوا في الليل إلى فالمث حيث كانت الاستخبارات البريطانيّة في استقبالهم. كانت محطّةَ الوصول الأخيرةَ للرجل العجوز وقد استغرق الأبدَ ذاهبًا إلى سريره تلك الليلةَ مستعينًا بتريستن وبزوجته التي ما فتئت تعدّ مرّاتِ إيابه لأكثرَ من نصف قرن. كان طَروبًا حينما أخذ يدها وقال أنّه قد عاد إلى البيت ليبقى.

في اليوم التالي أُطلِع تريستن على المستجدّات من ضابطٍ كان في السابق مديرَ مصنعٍ وسطَ إنجلترا. كان الضابط محترمًا وصبَّ لتريستن شرابًا بينما بتوتّرٍ تحسَّسَ ملفًّا. ثم سأل تريستن إن لم يكن لديه مانعٌ أن يُرِيَه كيف يسلخ الإنسانُ فروةَ إنسانٍ آخر؛ في شبابه قرأ كتبًا كثيرةً عن الغرب الأمريكيّ لكنَّ أحدًا لم يصف الطريقة وصفًا دقيقًا وكان يودُّ أن يعرف. بصمتٍ حرّك

تريستن يدَه حركةَ تقطيع عند منابت الشعر أعلى الجبهة ثم حرّكها حركةَ نزعٍ سريعة. استثار ذلك لديه حسَّ الدعابة، نادرًا ما استخدمه، وقال أنّ على المرء أن ينتظر حتى يموتَ الرجل أو يقاربَ الموت بحسب بغضك له، وأنّه لن يمكنك سلخُ فروةِ رأسٍ مقطوع إذ لا مرتَكَزَ حينها. في الصباح التالي كان على السفينة أن تُحمَّلَ صناديقَ خشبيّةً عليها علامةُ لحمٍ بقريٍّ معلّبٍ بينما في الحقيقة قد خُبِّئت داخلَها أسلحةٌ متطوِّرة. كانت الشحنة موجَّهةً إلى ماليندي على الساحل الكينيّ دعمًا للبريطانيِّين في الصدامات المتوقّعة مع الألمان عند فورت إيكومو في تنجانيكا. في هذه المرحلة المبكّرة نسبيًّا من الحرب ينبغي ألَّا يشكِّل الألمان مشكلةً لهم فلقد كانوا يرفعون علمًا أمريكيًّا لكنّ الوضع قد يتغيّر في أيّة لحظة وإن وقع تريستن تحت إطلاق نار فعليه أن يُغرِق السفينة. إن كانت المناوشات بسيطةً قربَ كينيا فإنهم قد يضطرون إلى استخدام صندوقٍ من بنادق الصيد والمسدّسات المشحونة إلى نيروبي دفاعًا عن أنفسهم ويلزمه أن يجهِّز طاقمَه لذلك في نهاية الأمر.

جلس تريستن يومَه جنب سرير جدِّه منتظرًا أن يحلّ وقت الرحيل عند منتصف الليل. وفيما كان الرجل العجوز نائمًا كتب تريستن إلى سوزانا وإلى أبيه أنّه كان في مهمّة تابعة للحكومة غيرَ مدركٍ بأنّ رسائله ستُحجَب وأنه يومَها كان مراقَبًا في كلّ مكان من قِبَل ضابطٍ في الاستخبارات متنكّرٍ في هيئة صيّاد سمك من كورنول. وإذ كان يكتب الرسائل اجتاحته عاطفةٌ غريبةٌ كأنّها للحظةٍ لم يعد مصيره مرهونًا به ومدفونًا بين جنبات ذاته. تخيل أباه ودكر يتجادلان حول خطوط الإنتاج وأمّه في صالة الاستقبال وأوبرا Ca-valleria Rusticana تصدح من الغرامافون. رأى سوزانا جالسةً في السرير تمطّ ذراعيها في الشعاع الجديد، رأى شكلَها الرقيقَ يمشي نحو النافذة لتَرْنُوَ إلى الأجواء المحيطةِ بالجبال ورآها تعود إلى السرير لتديم النظرَ إليه دون أن

تنبسَ بكلمة.

بعض تصرّفاتنا الغريبة هي أيضًا تعبيرٌ عن طبيعتنا الأعمق: الرغبات السريّة تبقى خيالاتٍ واهنةً ما لم تدبّ فيها إرادةٌ قويّةٌ لتحقيقها. لا أحد بالطبع قد رأى «الإرادة» وربما هي تجريدٌ رخيص، كلمةٌ كليلةٌ بحاجةٍ إلى ألف نعت. عندما أبحر تريستن إلى أفريقيا ذلك الصباح بعد إفطارٍ صامتٍ على ضوء مصباحٍ رفقةَ جدّته- أعطته إنجيلًا ملفوفًا في سترةٍ غزلتها من الصوف الخام- كان يلبّي عددا من رغباته التي لا مفرّ منها. منذ حصّة الجغرافيا في الصفّ السادس في مدرسة ريفيّة وهو يحلم بالذهاب إلى أفريقيا، لا طمعًا في الصيد فلقد ربّى فيه ون ستاب إحساسًا بالفريسة أسمى وأجدى من تصويب بندقيّة عليها إشباعًا لذاته، إنّما ليراها، ليشمَّها ويحسَّها ويعرفَها، ليشهد كيف ينسجم حيوانٌ مع أحلام طفلٍ مهووسٍ بالخرائط كانه ذاتَ مرّةٍ. هوسٌ آخرُ نما من حكايات أبيه عن رحلتي صباه القصيرتين مع والده: إلى غوتبرغ في السويد صيفَ عامٍ ما وأخرى إلى بوردو وعن الحوت الذي شوهد يشقّ صدرَ الماء قافزًا في بحر الشمال. مرّةً، وهو الفارس المحنّك، رأى في منامه سفينةً شراعيّةً على هيئة حصانٍ عملاقٍ يبحر قافزًا فوق الموج قُدُمًا ويَكِرُّ بكامل سرعته على العباب. هناك كان الإحساسُ الذي لم يُنطَقْ، ولم يُفكَّرْ فيه، ولم يُجرَّبْ: أنّ الوقت والبعد سوف يكشفان له لماذا مات صمويل.

أسبوعٌ من الرياح الباردة المنعشة حملهم إلى كيب سانت فينسنت حيث توجهوا جنوبَ شرقٍ نحو جبل طارق. قدّر أسغارد أنّ سرعة إبحارهم كانت تعادل مئةً وخمسين ميلًا بحريًّا في اليوم، سرعةٌ ممتازةٌ ستتباطأ بعض الشيء مع دخولهم البحر الأبيض المتوسط. أنزلوا الأشرعة مرّتين ليتدرّبوا على البنادق. كان تريستن مبتهجًا إذ فتح الصندوق ليجد سبع بندقيّات من طراز هولاند آند هولاند بعيارات متفاوتة من ضمنها بندقيّةٌ لصيد الفيلة

إضافةً إلى أربعة أسلحة ناريّة. لكنّ البحار كانت هائجة وبات من الصعب مع أمواج صاعدةٍ وهابطةٍ أن يصيبوا القارورةَ المثبّتة هدفًا على الكَوْثَل. وحده تريستن فعلها مع كوبيٍّ تبيّن لاحقًا أنّه مكسيكيٌّ منفيّ. أسغادر، الدنماركيُّ المسالم، ضغط على الزناد مغمضًا عينيه؛ أحد الكوبيّين لم يتمالك نفسه من الضحك مع كلِّ محاولةٍ فيما الآخر كان قليلَ الخبرة رغم صرامته وجدّيته.

بعد يوم ونصف في البحر المتوسّط عابرين بحرَ البوران، مدمّرةٌ ألمانيّة في أوّل المساء أشارت إليهم أن يخفضوا الأشرعة ويوقفوا السفينة لكنّ ريحًا شديدةً مع ظلام هابط منحا لهم مهربًا آمنا. ارتأى أسغارد لدواعي السلامة أنّ من الحكمة أن يحاذوا الساحل التونسيَّ والجزائريَّ وبعدها يُفترَض أن يكونوا في مأمن، على الأقلّ حتى يبلغوا المحيط الهنديّ. لقد كان رأيا صائبا رغم أن تريستن بات نِضوًا هدّه السفرُ والسهرُ عندما هدأت سفينتهم ثلاثةَ أيّام قربَ ليبيا. خلافًا للأوامر توقّفوا في كريت في إيرابترا فترةً كافيةً ليتزوّدوا بالماء العذب ويتخلّصوا من الإمدادات المتعفّنة. على رصيف الميناء تفحّصهم خلسةً تاجرٌ ألمانيٌّ كما يبدو وعرض المكسيكيُّ على تريستن أن يقطع عنقه. لم يُبَلَّغ أيٌّ من أعضاء الطاقم بحقيقة المهمّة لكنّ أحدًا لم تنطلِ عليه خدعةُ لحم الأبقار. وممّا أقلق أسغارد أنّ تريستن قد أسقط تمامًا كلَّ قواعد البحريّة التي تفصل القبطان عن طاقمه، رسميّات أثارت اشمئزازَه ومقتَه من قبلُ في الجيش. أكل مع الطاقم، وجرّب الطبخ، ولعب الورق معهم وأخذ دروسًا في عزف الغيتار من الكوبيّ الخجولِ والصموتِ الذي كان يدعوه -caballero (فارس) بدل قبطان. والكحولُ لم تكن مقنّنةً بالحدّ المتعارف عليه بين البحّارة وهو أوقيّتان سائلتان في اليوم: مستودعات الكحول تُركت مفتوحةً ولم يعبث بها أحدٌ أو يتجاوز حدَّه. كان أسغارد راضيًا، رغم ذلك، إذ بعد يومين من مغادرتهم فالمث أعلن تريستن على العشاء أنّ من لا يلتزم

بالتدريبات سيُرمى به خارجَ السفينة. لكنّ الطاقم كان نشيطًا وكُفئًا ويتمتّع بأخلاقياتِ عملٍ عالية. يرجع السبب جزئيًا إلى أنّ الوجهةَ جنوبيّةٌ نحو المناخات الدافئة التي أحبّوها.

وصلت السفينة ذات فجرٍ إلى بور سعيد وعبرت قناة السويس بسلام. وحدهما تريستن وأسغارد كانا منزعجَين من الحرِّ اللاهب في البحر الأحمر. خفّت الحرارة كثيرًا بعدما اجتازوا مضيقَ بابِ المندب ونَفحَتهم نسائمُ المحيطِ الهنديِّ الجنوبيّةُ الجافّةُ في خليج عدن. بعد أسبوعين بلغوا ماليندي ليجدوا أنّ مكان اللقاء قد تغيّر إلى مومباسا على بعد يومين من الإبحار جنوبًا. ارتكس تريستن في حالٍ حزينةٍ حتّى تمنّى لو اعترضتهم مدفعيّة ألمانية، لكنّ عملية التبادل في مومباسا كانت سلسةً للغاية. أبلغهم الضابط البريطانيّ بأنّهم مُعفَون من أيِّ التزامٍ آنيٍّ آخرَ جزاء المخاطر التي اجتازوها في رحلتهم. قال الضابط أنّه سيوصي بمنحهم وسامًا عسكريًّا فاغتمّ قلب تريستن عندها وخرج من الغرفة. بعد شهر في البحر كان منظر هذا المتغطرس المغترّ بنفسه يُمْرِضه. لقد زار أسغارد مومباسا من قبل، فأمضى إجازته الساحليّةَ هذه مع أرملةٍ فرنسيّة فيما تريستن رفقةَ المكسيكيّ والكوبيّين ذهبوا بالقطار الجديد إلى نيروبي حيث أنفقوا ثلاثة أيّام في الشرب والمجون. أنهى تريستن صفقةً يشحن بموجبها إلى سنغافورة حمولةً من العاج، أنيابَ فيلةٍ وعاجًا مصنوعًا من قرون الكركدن عدّه الصينيون مقويًّا جنسيًّا. في نيروبي دخّن بعض الأفيون وأحبّ تأثيراتِه الحالمةَ المبدّدةَ للوعي. في طريق رجوعهم إلى الميناء طلب تريستن أن تُلتقَط له صورةٌ في محطّة وقود ورأسُ كركدنٍّ ميّتٍ في حضنه. دفع لمصوّرٍ إنجليزيٍّ مدمنِ كحولٍ وتالفِ أعصاب عشرين دولارًا كي يرسل الصورة إلى ون ستاب، بعنايةِ ويليام لودلو، تشوتيا، مونتانا، الولايات المتحدة الأمريكيّة. حملت الرسالةُ تعليقًا: «هنا كركدنٌّ ميّتٌ أَوْقَفَ

القطارَ ولو للحظةٍ فقط».

في مونتانا حلَّ الخريف من جديد، عامٌ منحوسٌ مرَّ منذ ذهب الأولاد إلى الحرب. إيزابيل وسوزانا غادرتا إلى بوسطن بعد أن شُفِيت سوزانا من نزلةٍ صدريّةٍ أصابتها خلالَ نزهةٍ طويلةٍ باردةٍ في المطر. ما عرفوا صيفَ ذلك العام سوى ثلاثة أيّام من الصيف الهنديِّ الحقيقيِّ وفي ظهيرةِ أحدها كان لودلو في رواق الدار يعبث براديو كريستال بينما ون ستاب وإيزابيل الصغيرة يتابعانه باهتمام. عندما انطلقت الموسيقا عاليةً عبر موجات أثير غريت فولز ارتعد الجميع رعدة واحدة. كلبا صيد الطيور النائمان في الرواق وقفا ونبحا، شَعُرَ الذكر بتهديد فمدّ عنقه نافشًا طوقَ الفراء على كتفيه. كاد لودلو أن يُسقِط الراديو الذي قضّى يومين في تركيب أجزائه. ثم ضحكت إيزابيل وصفّقت قافزةً حوله من البهجة. استغرق ون ستاب في التفكير إذ شرح له لودلو كيف أنّ لكلِّ شيءٍ صوتَه الخاصّ. وخلال ساعة من الشرود توصّل ون ستاب إلى رأيٍ مفاده أنّ الراديو عديمُ القيمة مثلُه مثلُ الغرامافون.

أمضت سوزانا الشتاء في بوسطن في منزل إيزابيل عند ميدان لويسبرغ. لم تزل بعيدةً عن والديها إثرَ الخلاف حول زواجها، ووجدت في إيزابيل صحبةً مؤنِسةً وقد تطوّرت علاقتهما من التصنّع الذي تتّسم به عادةً علاقةُ الكنّة بحماتها إلى صداقةٍ حميمة. قرّرت إيزابيل ألّا تتّخذَ لنفسها عشيقًا ذلك العام وأنّها عِوَضَ ذلك ستكرّس طاقاتها، إلى جانب اهتمامها المعتاد بالحفلات السمفونيّة والأوبراليّة، في تعلّم الفرنسيّة والإيطاليّة وفي الانشغال الفكري بالمسألة النسويّة وحقِّ المرأة في التصويت. أقامت عشاءً على شرف إحدى قريباتها من بعيد، الشاعرةِ أيمي لويل[1] من كانت في حدّ ذاتها فضيحةً من

1- Amy Lowell شاعرة أمريكيّة (1874 - 1925) من أبرز أسماء الحركة التصويرية، نالت بعد وفاتها جائزة البوليتزر، 1926 عن ديوان What's O'Clock. كانت شريكةَ روحٍ وسكنى مع

نوعٍ ما، مشتهرةً بتدخينها السيجار في الأماكن العامّة. ابتهجت سوزانا، العليلةُ مؤخّرًا، بالسيّدةِ العظيمةِ فخمةِ الصوت التي طلبت كأسًا من البراندي بعد العشاء، وأشعلت سيجارًا وقرأت من شعرها الرقيقِ الرهيفِ والمختلفِ بصورةٍ غريبةٍ جدًّا عن مظهر قائلته.

لم تتسلّم سوزانا قطّ رسالةَ تريستن التي بعثها من فالمث، ليس سوى إشعارٍ من الحكومة البريطانيّة أنّهم سيحتفظون بالرسالة ريثما يقرّرون أنّ حساسيَّةَ محتواها لن تشكِّل خطرًا على المهمّة العسكريّة. حيّرها هذا وأحزنها حتى كادت تتّصل بأبيها الذي بلغته عن تريستن أخبارٌ أدعى للتهنئة. أخطرته القنصليّة البريطانيّة في بوسطن أنّ تريستن سيُمنَح صليب فيكتوريا[1] لاضطلاعه بمهمّةٍ في غاية الخطورة، لا يمكن الإفصاح عن طبيعتها، وإنجازها بنجاح. والد سوازنا لم يمنع نفسه من أن يغمغم: «مغامرٌ ملعون» عندما بلغته البشارة رغم أنّه حينها كان في غداء نادي هارفرد وقد أحاطت به التهاني من كلِّ صوب على بسالة صهره. لقد كان آرثر نوعًا ما نسيجَ الخامةِ نفسِها التي منها جي. بي. مورغن[2] وجيسن غُولد[3] وإن كان قطعًا أقلَّ شأنًا منهما. لقد أثرى كثيرًا من الحرب في أوروبا ورمى بكلِّ ثقله في تجارة الحبوب والمواشي في قاعدةٍ للتصنيع والتنقيب عن المعادن. دبّر لألفرد عملًا مع مكتبٍ في هيلينا، وشجّعه على أن يدخلَ المعترك السياسي ويرسلَ إليه تقاريرَ أسبوعيّةً عن أيِّ تحرّكاتٍ اقتصاديّةٍ مثمرة. لقد حقّق له ألفرد سلَفًا مكاسبَ خياليّةً في صفقة قمح ولم يستطع والد سوزانا منع نفسه من

الممثلة الأمريكية آدادوير رسل (1863 - 1952)، وخصّتها بقصائد حبٍّ مثيرة ورافقتها حتى الموت.

1- أعلى وسام عسكري بريطاني.

2- 1913 - 1837 (J. P. Mprgan) رجل أعمال أمريكيّ ومصرفيّ شهير.

3- 1892 - 1836 (Jason Gould) مطوّر خطوط سكك حديد ومُضارِب أمريكيّ. أحد أثرى أثرياء عصره.

أن يفكّر يا لَه صهرًا رائعًا لو كان هو من تزوّج ابنته. كان آرثر فاعلًا مؤثّرا في (ستاندرد أويل) التي اشترت استثمارات التنقيب عن النحاس في مونتانا من مناجم (أناكوندا) مشكّلةً شركة تعدين النحاس المدمجة (أملغميتد كوبر). لقد فهم ألفرد بوضوح امتيازات أصحاب رأس المال بينما كان لودلو عاطفيًا ميّالًا إلى القلق أكثر على أجور العمّال وأوضاع معيشتهم. عندما شنق حرسُ الإضراب عضوًا في اتحاد عمّال العالم الصناعيّين وتركوا جسدَه يتدلّى من بُرجٍ في بلدة بيوتْ، حيّا آرثر صنيعَهم وهلّل له.

في الربيع قَدِم ألفرد إلى شرق البلاد كي يستشير آرثر في التخطيط لمستقبله، وليرى أمَّه ويلتقيَ، عن قصدٍ، سوزانا التي أحبّها سرًّا. كان ألفرد أخرقَ إذا ما قُورِن بتريستن وصمويل لكنه كان راسخًا في إعجابه الرفيع بأخويه، ومن طبيعةٍ مُحبّةٍ ومُخلصة. بكى ذات مساءٍ ساعةَ نومه إذ تمنّى أمنيةً عابرةً ألّا يعودَ تريستن وأن تقعَ سوزانا في غرامه. كان في الحقيقة ينطوي على براءةٍ طفوليّة، سرعانَ ما تغيّرت مع امتهانه السياسة. آلمه ألمًا عميقًا في بوسطن أنّ سوزانا بدت تقريبًا غيرَ عابئةٍ به ولا استرعاها وجودُه قبالتَها على مائدة العشاء في احتفالٍ عائليّ. في الأيام اللاحقة كانت لطيفةً عن بعدٍ في أكثرَ من نزهةٍ أبريليّةٍ مشياها في (بوسطن كمن)[1] وقلبه يكاد ينبثق من صدره. أعطته عند فراقه كتابًا من شعر أيمي لويل لم يدرِ لخَرَقِه الأصيلِ لماذا أو ماذا يصنع به، لكنّ الإهداءَ بخطّ يدها: «ألفرِد الأعزّ، يا لك من رجلٍ طيبٍ وشهم، محبّتي، سوزانا» قد أشعل فتيلَ روحه حتى إنّه ظلَّ الطريقَ كلَّه في مقصورته الخاصّة يفتح غلاف الكتاب، يشمّ خطَّ يدها ويرتعش ظانًّا أنّه استنشق عبيرها.

لم تكن السفينة بعيدةً عن مرأى دار السلام حيث حمّلوا العاج حينما أُصيب تريستن بزُحارٍ مُبرِّحٍ فتك بأمعائه حتى أُغمي عليه على مِقوَد السفينة.

1- Boston Common أقدم الحدائق الأمريكية، تأسست سنة 1634.

عانى المرحلة الأولى من المرض طريحًا فاقت درجةُ حرارته 105 فهرنهايت خلال أسبوعٍ ارتفع فيه البحر فخاف أسغارد على مصير القبطان والمركب معًا. ولولا أنّ تريستن والمركب كانا من خلقةٍ عجيبةٍ لبرِح كلاهما غريقًا غيرَ مسجّى في قاع المحيط الهنديّ. عند نهاية الأسبوع لم تنزع عنه الحمّى تمامًا لكنّها خفّت حتى بات على الأقلّ قادرًا على التجوّلِ في كابوسه الاستوائيّ. في أحلام يقظته رأى أبواب الجحيم وأراد أن يدخل منها والربّ وحده يعلم ما منعه حين جثم في منتصف ليلةٍ عاريًا على صاري القيدوم [1]مثل ميزاب ورذاذ المحيط يُبرِّده حتى ضعضع المكسيكيُّ قواه بوتدٍ وأعاده إلى السرير.

تراءى لتريستن أنّ الموتى كانوا على ظهر السفينة وفي مقصورته شَرِب، رغم حُمّاه، وسَمِعَ وقعَ خُطاهم. ضحك صمويل وتحدّث عن علم النبات لكن ثلجًا كان في شعره، شعرُه الأبيضُ هفهفته رياح الساحل وقد اقتربوا من كولمبو في سيلان. تبدّت سوزانا بأجنحةٍ زرقاء وعوى ون ستاب على أثر السفينة وهي تمخر عُباب الماء. سمعهم، بل ورآهم، من خلال ألواح خشب الساج والبلُّوط الأبيض. لم يدرِ أَحُمّى منامٍ أم حُمّى يقظةٍ ما جعل كُلًّا من أحلام منامه ويقظته مطارداتِ أرواح. ذاتَ فجرٍ وجده أسغارد في مخزن السفينة السفليّ عاريَ الصدر، شادًّا نابَ فيلٍ إلى صدره متفحّصًا جذرَه الدامي وقد اسودَّ وتعفَّن. هبّ تريستن ممسكًا بالناب صاعدًا به إلى سطح السفينة وحاول أن يطوِّح به في البحر لولا أن كتَّفه أسغارد وحُبِس في مقصورته تحت حراسة المكسيكيّ.

لقد بلغ تريستن في حُمّاه الحالَ التي يتوق إلى بلوغها الصوفيُّ لكنّه لم يكن مهيّأً لها: كلُّ الأشياءِ على الأرض حيّها وميّتها كانت معه ولكلٍّ الحصّةُ نفسُها، لم يدرك أيَّ معنىً لقدمِهِ العاريةِ عند نهايةِ السرير، ولا للمحيطِ الذي

1- صاري القيدوم أو الدقَل المائل في مقدمة السفينة. يسميه بعض بحّارة الخليج بالساطور.

دائمًا ما يكون ليلٌ تحت غطائه حتى في هاجرةِ النهار، الدّمُ في طرف الناب العظيمِ لا علاقةَ له بالسفينة وإلقاؤه في اليمِّ سيعيده بطريقةٍ ما إلى رأس الفيل. وصلت سوزانا شبحًا ورديًّا فاتحَ اللون مُغريًا، احتواه رَحِمُها مالحًا كالرذاذِ على صاري القيدوم، إلى أن صار هو الآخر شبحًا، وصار المحيطَ، وصار سوزانا نفسَها، والحصانَ الجامحَ تحته، وخشبَ حصانِ البحرِ تحته، والريحَ ممزِّقةَ الأشرعةَ والقمرَ فوقَ الأشرعةِ وصار نورَ العتمةِ بينَ بين.

تماثل للشفاء مع بلوغهم مدخلَ مضيقِ ملقا وإبحارِهم في أنسامٍ رائقةٍ عليلةٍ صوبَ سنغافورة. أُفرِغَت حمولةُ العاج بلا رسميّات في لقاءٍ على متن سفينة بأرباحٍ لم تتأثر بخوف رجال الأعمال الصينيّين من زمرة القتلةِ الذين كانوا يراقبون الصفقة. أنحل المرضُ تريستن ومطَّه كسلكٍ على وشك أن ينفلت لكن له الأمر والنهي. وافق أن يأخذ مقابلَ ثمنٍ باهظٍ حقيبةً من الأفيون إلى سان فرانسيسكو رفقة أحد رجال الأعمال. تحفّظ أسغارد لكنّ تريستن قد وزّع بينهم على العشاء حصصًا متساويةً من أرباح العاج، واحتفظ بالسهم الأكبر لجدّه مالك المركب. وقال أنّ الشيءَ نفسَه سيكون مع أرباح الأفيون فهوى أسغارد من فوره في حلمٍ بمزرعةٍ صغيرةٍ على ساحل الدنمارك قد تصبح بسهولةٍ ملكًا له. الكوبيّان احتفلا متخيِّلَين انبهارَ عائلتيهما بهذه الثروة الجديدة. وحدهما تريستن والمكسيكيُّ كانا بلا جذور، ولم يعنهما هذا المال المتراكم أمامهما في شيء فلا شيء مما أراداه يمكن شراؤه به: ربما فكّر المكسيكيُّ في بلده الحبيب والبعيد الذي لم يستطع الرجوع إليه دون أن يموت. والربّ وحده يعلم أيَّ شيء أراده تريستن غير أن يحيي الموتى: عقله كان أثرَ مذبحة، مدينةً محروقةً أو غابةً محروقة، ندبةً باردة.

يمَّمت السفينةُ صوبَ الشمال ماخرةً بحر الصين الجنوبيّ راسيةً في مانيلا للتزوّد بالماء والطعام. توتّر ناقلُ الأفيون بسبب الصيت السيّئ لذلك الميناء،

لذا فقد سلّح تريستن أسغارد والكوبيّين ببنادق صيدٍ على ظهر السفينة. ثمّ نزل إلى مقصورته وكتب رسالةً قصيرةً لكن قاتلةً إلى سوزانا («زوجك ميّتٌ إلى الأبد، أرجوكِ تزوجي بآخر») وأودعها مع قبطان سفينةٍ بخاريّةٍ سريعةٍ قابله مع المكسيكيّ في حفلة شرابٍ صاخبةٍ في مانيلا. قبيل الفجر في الطريق إلى السفينة اعترضهما أربعةُ لصوصٍ قربَ رصيف الميناء ولولا أنّ المكسيكيَّ جرّد أحد المعتدين من سلاحه بينما هاجم تريستن أكثرَهم جسامةً وجسارة لكانا الآن في عداد الموتى. قطف المكسيكيُّ رأسَ واحدٍ بمنجل ماشيتي سلبه إيّاه أمّا الآخرون، عدا الذي تولّى تريستن خنقَه، فهربوا، لكن ليس قبل أن يتلقى تريستن طعنةً أليمةً في ساقه، شقًّا عميقًا على جانب ركبته مزّق وترَه. لفَّ المكسيكيُّ عصابةً حول الجرح لوقف النزيف وشقّا طريقَهما إلى القارب يغنّيان وجدّفا سكرانين إلى مرسى سفينتهم. نظّف أسغارد الجرح وخيّطه بغُرزٍ مرتجَلَةٍ حول الوَتَر. بَرِئ الجرح إذ شارفوا هاواي لكنّه خلّف وراءه إلى الأبد عرجًا طفيفًا في مشية تريستن.

لا أحدَ من غير طاقمه القصيِّ يعرف الكثير عن السنوات الستّ اللاحقة من حياته ما خلا بعضَ التفاصيل، وكلّها تثير فضولًا أكثرَ بسبب عدم اكتمالها: نعرف أنّه وصل سان فرانسيسكو ثم اتجه جنوبًا نحو بنما آمِلًا أن يمرَّ خلال القناة الجديدة لكنّ انهيارًا أرضيًّا في مجرى غايلارد[1] أغلق المعبر مؤقّتًا فاضطرّ للتطواف حول الرأس وركّب مولّدًا بخاريًّا مساعدًا في ريو. ثم مرّت على السفينة ثلاث سنوات من الاستقرار النسبيّ في الكاريبي إذ اتُّخِذت للتجارة متنقّلةً بين جزرِ برمودا ومارتينيك ومنها إلى كارتاخينا.

1- وردت في الأصل مكذا: Gaitland Cut. لم أجد إشارةً إلى أيّ مجرى بهذا الاسم، أظنّه خطأً مطبعيًّا والأرجح أنّ المقصود هو مجرى غايلارد Gaillard Cut، الشقّ الموجود في بنما والمعروف الآن باسم مجرى كوليبرا.

اشترى تريستن مزرعةً صغيرةً في جزيرة دي بينوس ثم انطلق إلى دكار في مغامرةٍ أخرى لصالح الحكومة البريطانيّة في العام الأخير من الحرب. طاف برأس الرجاء الصالح عائدًا إلى مومباسا حيث أَقَلّ امرأةً من شعب أورومو لكنّ اهتزاز المركب أفزعها فأُنزلت على الساحل في زنجبار ومعها كيسٌ صغيرٌ من الذهب. كان يعيد خطَّ العاج والأفيون نفسَه شاقًّا طريقَه من جديدٍ جهةَ الشرق إلى سنغافورة، مانيلا، هاواي وسان فرانسيسكو، نزولًا في أواخر 1921 عبر القناة المفتوحة ومن ثَمّ عائدًا إلى هافانا حيث غادره أسغارد وبقيّةُ الطاقم عدا المكسيكيّ. لَبِث بضعةَ أشهرٍ في مزرعته ثم عندما رجع إلى هافانا عَلِم بموت جدّه قبل خمسة أعوام وأنّ أباه تعرّض لجلطةٍ وأنّه تمنّى منه أن يعود إلى البيت فيتاحَ لهما أن يريا بعضَهما البعضَ قبل أن يقضي لودلو نحبَه. وظّف تريستن مع المكسيكيّ طاقمًا جديدًا ومخروا الماءَ إلى فيراكروز حيث بات لدى المكسيكيّ ما يكفي من المال ليفتديَ حياته. وضع تريستن السفينة في عُهدة المكسيكيّ وارتحل إلى الشمال على متني حصانٍ وقطارٍ واصلًا في أبريل 1922، مسفوعًا بالشمس لم يزلْ، أعرجَ، مَفؤودًا، وينظر إلى العالم بأبرد نظرةٍ عرفها العالم.

ليس لنا أن نستوعب البهجةَ الخرساءَ التي باغتت لودلو قاعدًا مع ون ستاب في الرواق مستمعًا إلى السمفونيّة على الراديو في نهارِ يومٍ دافئٍ من أبريل عندما رأى حصانَ تريستن منتقيًا طريقَه حول الثلوج الذائبة في الطريق ومرتقيًا عبر البوّابة. قفز تريستن من على ظهر الحصان وأمسك أباه متهافتًا عليه من الرواق مرتميًا في أحضانه وكرّر النداءَ أبي يا أبي مرّة بعد أخرى لكنّ العجوز كان الآن أخرسَ حقيقةً من بعد جلطته. رنا ون ستاب ببصره عاليًا وأحسّ بالدموع الأولى من حياةٍ قاسيةٍ، دموعٍ لا يمكن، مثلما كان الحالُ مع بهجة لودلو، أن نستوعبَ انذرافَها مثلما كان الحالُ مع بهجة لودلو. بدأ ون

ستاب بالغناء. ركض دِكر قادمًا من الحظيرة وحاول تريستن ودِكر في الوقت نفسه أن يرفع أحدُهما الآخر. أمّا بِت فقد جَلَبَتها من المطبخ الجَلَبَةُ البهيجةُ وحاولت أن تنحنيَ حين عانقها تريستن. ابنةُ الستة عشر ربيعًا بضفيرة طويلة ترتدي ملابسَ رجاليّةً قَدِمَت قربَ الزاوية حاملةً لجامًا: ملفوحةً بالريح لكنّ سمرتَها ليست بسمرة الهنود. نظرت إلى تريستن الذي لمح نظرتَها ثمّ ولّت ماشية. قال دِكر أنّها ابنتُه إيزابيل لكنّ الخجل اعتراها.

ذبحت بِت خروفًا وبهّرته، أوقدت نارًا خلف المطبخ وشرعت في شوائه. قعدوا في الرواق يشربون لكنّهم في الأغلب صامتون. كتب لودلو أسئلةً بالطباشير على لوح أسود. شعره كان أبيض لكنّ قامته منتصبة. أشاح دِكر بوجهه وأبان أنّ أُمّ تريستن كانت في روما، ثم توقّف مضيفًا كما في خطرةٍ متخيّلةٍ أو فكرةٍ كاذبةٍ أنّ ألفرد وسوزانا قد تزوّجا قبل عام وأنّهما في شهرِ عسلٍ ممتدٍّ رغم أنّه متأخّر في أرجاء أوروبا وسيمضيان الصيفَ في أنتيب. تنفّس دِكر الصعداء وعبّ من الشراب إذ بدا تريستن غيرَ مكترث. مشى تريستن على العشب مستديرًا وقال أنّه سيخرج في جولة سريعة آمِلًا بألّا يعودَ وقد غلبتهم نشوةُ الخمر قبل العشاء.

رَكِب جوادَه صاعدًا بسرعةٍ على طول الجدول المؤدّي إلى النبع في الوادي الضيّق. بَقيّةٌ من كومة ثلجٍ غطّت قبرَ صمويل وطائرُ عَقْعَقٍ طار عن الشاهد الحجريّ حالما وصل وترجّل. رأى الزخرفةَ الخفيّةَ التي نقشها الطائرُ في الهواء صاعدًا إلى قمّة الوادي فوق رأسه. قرّر أنّ القبور لا تستثيره لأنّ القبر تحت قدميه كان مجرّد ثلج وتراب وحجرٍ كدّره الطقس وأخفى ملامحَه. في عودته إلى المنزل شاهد إيزابيل تزيّن ثلاثةَ أمهارٍ في ضياء الشمس. كان دِكر يناديها تُو (اثنان) تجنّبًا لأيِّ لبسٍ بينها وبين أمّ تريستن. سألها عن مكان الغُرير فقالت أنّ الحيوان اختفى لكنّ صغارَه ما زالوا يعيشون خلف بستان

الفاكهة. أخذته إلى الحظيرة وأرته جروَ أيرديل[1] اشتراه لها لودلو بمناسبة عيد ميلادها. رغم أنّ عمرَه عشرةُ أسابيع انتفض يهرّ في وجه تريستن الذي مسح عليه بالتدريج محاولًا تهدئته إلى أن أخذ يلوك في أذنه. عندئذ حدجها تريستن بنظرةٍ من قرب فاحمرّت خجلًا وأطرقت ناظرةً إلى قدميها.

على العشاء قطّع لودلو لحمَ الضأن احتفالًا، ثم كتب على لوحه الأسود «احكِ لنا» ومرّره إلى تريستن. على نحوٍ غريب، ومثلَ كثيرٍ من الناس المدفوعين إلى المغامرة لا ولعًا بمعنى المغامرة إنّما لقلقٍ في الروح والجسد، لم يرَ تريستن أيَّ شيءٍ استثنائيًّا بالتحديد بشأن أعوامه السبعةِ الماضية. لكن كانت لديه فكرةٌ دقيقةٌ جدًّا عمّا أرادت الطاولةُ أن يدارَ عليها من أحاديث لذا فقد حكى وحكى لأجل خاطر أبيه: عن قطع رأس اللصّ الفلبينيّ، عن إعصارٍ مداريٍّ قربَ جزر مارشال، عن أفعى أناكوندا اشتراها وهو سكران في ريسيفي لفّت نفسها على الصاري لفّةً محكَمَةً عجزوا معها عن فكّها حتى أغروها بخنزيرٍ صغير، عن جمال بعض الأحصنةِ التي تركها في عناية طاقمه في كوبا، وكيف أنّ بعض مواطني سنغافورة كانوا يأكلون الكلاب، الأمر الذي صدم كلّ من على الطاولة ما عدا ون ستاب الذي سأل تريستن عن أفريقيا. بعد العشاء وزّع عليهم من رحل سرجه بعض الهدايا ووضع قلادةً من نيوب ليثٍ حول ون ستاب الذي رحل بعدها بأيام قليلة راكبًا مدّة ثلاثة أيام إلى فورت بنتون كي يُرِيَ القلادةَ للرجل الذي يبصر بعيني طائر. أرغم تريستن تُو على أن تقبل خاتمَ ياقوتٍ كان قد نواه هديّةً لأمّه، ألبسها إيّاه في بنصر يدها اليسرى وقبّلها على الجبين. كانت الطاولة صامتة وهمّت بِت بالتدخّل لكنّ دِكر طَمأنَها.

لاحقًا في تلك الليلة بعد أن ذهب كلٌّ إلى سريره تنزّه تريستن في المرْج

1- ضربٌ من كلاب الصيد.

تحت نور القمر: كانت بقع الثلج بياضًا شبحيًّا وبعيدًا جهةَ الغرب ممّا مكّنه أن يرى القممَ الأنصعَ بياضًا حتّى من جبال الروكي. أرخى سمعَه لذئاب السهوب تغمغم وتعوي متجاوِبةً وأحايينَ تعوي عواءً قصيرًا. قربَ الإصطبل سمع نُباح الجرو فذهب إلى الحظيرة وحمله. أدخله المنزل وصعد به إلى غرفته حيث أراحه على جلد الأيّل طويل الأذنين وبنى حوله عشًّا وغطّاه بلحافٍ اتّقاءَ بردِ الليل. ثم نام تريستن إلى منتصف الليل حين أيقظه هريرُ الكلب، وفي نور القمر المنساب من النافذة رأى تُو واقفةً عند قدم السرير. ترامى إلى يدها وبعد حينٍ تشاركا نومةً عميقةً خِلْوًا من الأحلام، مُلتفَّين حول بعضهما وكلُّ شعورٍ بالوحدة قد تلاشى أخيرًا من على وجه البسيطة.

بَدَت حياةُ تريستن ماضيةً في الزمن في مُدَدٍ من سبع سنين: والآن كان مقبلًا على سبعٍ من النعيم: مدّةٌ ذهبيّةٌ ومنقطعةُ النظير في حياته حتى إنّه في المستقبل البعيد سوف يعود إلى ذاك الزمان؛ التفصيلِ الدقيقِ في كتابِ الأيام، مخطوطٍ هيراطيقيٍّ عِيش ثانيةً ببطءٍ فكانت كلُّ صفحةٍ فيه تُطوى بشيءٍ من التوق. لا نعيمَ منعزلٌ، ولقد كان نعيمه إلى مدى بعيد مرتبطًا بالناس الذين أحبّهم، لكنّه بالكاد استوعبهم باعتبارهم أناسًا عندما رحل؛ أولئك الذين هدوه إلى النور والدفء؛ لكن في ذلك الصباح الأول استطاع أن يراهم من النافذة بوضوح بعد أن لبست تُو على عجلٍ ثوبَ نومها، وقبّلته وغادرت الغرفة: أوّلًا كان في المرجِ البعيد ضجيجٌ عالٍ يصعب تمييزُ مصدرِه تبيّن أنه لسيّارة فورد تي[1] ترتجّ فوق الحجارة وعبر الطين في مسارات دائريّة هائلة يقودها ون ستاب ويقعد منتصبًا إلى جانبه لودلو في معطفه الجاموسيّ. استند دِكر إلى الحظيرة بقبعة صوف إيرلنديّة يدخّن سيجارةَ الصباحِ في بقعةٍ من ضوء الشمس ويَحُكُّ نُخرةَ ثورٍ من سلالة هِرفورد بارزةً خلَلَ ألواح السياج.

1- Ford T طراز من سيارات فورد بأسعار ميسورة صُنِّع بين عامي (1907 - 1927).

كانت بِت تنثر الحَبَّ للدجاج وبعض الإوزّ ناهِرةً الجروَ الذي كان يطارد الدجاج. وعندما نزل للإفطار كان موقد الحطب دافئًا والضياءُ انساب من النافذة الجنوبيّة مع منظر الوادي. صبّت له تُو قهوةً ووقعت عينه على آنية خزفيّة مليئة بسمك الرنجة الذي كان روسكو دِكر مدمنًا عليه فأكل منها قطعةً مع بصل مخلّل. قدّمت له تُو سلمونًا مرقّطًا مقليًّا اصطاده فجرًا ون ستاب. حدّق في ظهرها وفي شعرها الأسود اللامع في ضفيرةٍ واحدةٍ وهي تغسل أطباق الطعام. أغمض عينيه وتموّجت الأرض من تحته في هذه اللحظة كالبحر وأمكنه أن يستافَ في سمك الرنجة رائحةَ البحر المنعشة عند انحسار الموج في سواحل الشمال. فتح عينيه وسأل تو بابتسامةٍ إن كانت ستقبل الزواج منه قريبًا وهكذا يجنّبان البيت فضيحةَ الزيارات الليليّة. نشّفت يديها وأخذت خاتمَها الياقوتيَّ من حافّة النافذة كأنّها تُمسِك بالكأس المقدّسة وقالت نعم إن كان هو واثقًا من نفسه ونعم إن لم يكن واثقًا.

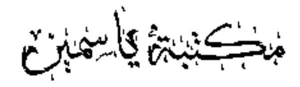
كان عرسًا كبيرًا في أوّل أكتوبر، أُجِّل إلى ذلك الحين حتى يتسنّى لإيزابيل أن تعود من أوروبا وامتثالاً لإلحاح بِت لأنّها خافت أن يغادر تريستن راحلًا مع أيّة نزوة، فكرةٌ بعيدةٌ عن هواجسه. قضى تريستن الصيفَ يبني منزلًا صغيرًا أعلى الوادي الصندوقيّ بإطلالةٍ على النبع. مجموعة من نجّارين نرويجيّين أتوا من سبوكين رفقة ثلاثة نحّاتين إيطاليّين من بيوت. التصميم كان بسيطًا بغرفةٍ رئيسةٍ واسعةٍ ومطبخٍ ومدفأةٍ في جهة، وفي الجهة الأخرى موقدٌ حجريٌّ بحجم الجدار. في المنزل جناحان بثلاث غرف نوم لكلِّ جناح. خَجِلت تُو من حجم المكان وكان ون ستاب ودِكر زائرين يوميّين يحملان معهما في الفورد غداءَ العمّال. اعتاد لودلو أن يكتب رسائلَ طويلة وأنيقة يردّ عليها تريستن حولَ النار بعد العشاء.

ضرب الكساد العظيم مونتانا أبكرَ من غيرها بعشر سنوات. في السهول الشرقية انهارت تمامًا سوق الحبوب التي ازدهرت في ظلّ الحرب وازداد الأمر سوءًا مع سنتين من القحط الشديد. البنوك أفلست وسوق الماشية تضخّمت مع تراجع الإنفاق العسكريّ على إطعام الجنود. قلّص دِكر حجمَ الماشية مكتفيًا بأبقار هِرفورد، لكن دخل المزرعة الوحيد كان من نتاج الحصان الفحل، المعروف للجميع باسم آرثر لحم الكلب، الذي لقّح به دِكر أفراس ثوروبرد. لم يكن للنسل قوّةُ حصان كورتر ولا جلادتُه لكنّ الأحصنة كانت رشيقةً حادّةً ورفيعة، متعةً للناظر والراكب، وجريئة. وكانت فائقةَ السرعة في سباقات ربع الميل وقد شارك بها تريستن ودِكر في مهرجانات مونتانا، آيداهو، واشنطن وأوريغون. من الفوز بالرهانات، اشترى تريستن للودلو سيّارة باكارد ساقها ون ستاب بعناية ومهابة، كان لا يزال متزيّنًا بقلادة نيوب الليث. قَدِم الرجال من أماكن بعيدةٍ بُعْدَ سان أنتونيو وكينغسفيل، في تكساس، ليشتروا الأحصنةَ بمبالغ وجدها دِكر ولودلو محيّرة، لكنّ تريستن أصرّ عليها بألمعيّة ودهاء.

مرّ عرس الخريف في الذاكرة دون حضور ألفرد وسوزانا. في الواقع كانت أربعُ سنين قبل أن يرى تريستن سوزانا على عشاءٍ راقٍ في الكريسمس بأجواءٍ احتفاليّة. كان ألفرد يتردّد على المنطقة من وقتٍ لآخر إبّانَ حملته للفوز بمقعدٍ في مجلس الشيوخ، منافسةٌ انتخابيّة فاز بها بسهولةٍ بمساعدةٍ كبيرةٍ من أموال حماه وتأثيره. لا أحد سوى بِت وتُو لمس حزنَ سوزانا في ذلك الكريسمس. لم ترزَق بعدُ بأطفال، وعندما مسح صغيرا تريستن، صمويل دِكر وإيزابيل ثري (ثلاثة)، على شعرها في صالة الاستقبال، أجهشت بالبكاء.

أثارت الأوضاع الاقتصاديّة وقتئذ مزيدًا من الشكوك فسحب لودلو بالتدريج أرصدتَه في بنك هيلينا عملًا بنصيحة آرثر وإلى أن يجد فكرةً أفضل

دفن ذهبًا تحت حجرٍ عظيمٍ في موقد تريستن. أصرّ تريستن بتعاليه المعتاد رغم مسحةِ السحر التي يضفيها عليه على أن تغطّي المزرعةُ كاملَ نفقاتها من إنتاجها الخاصّ. ما زال يرسل سنداتٍ رسميّةً ومبالغَ ماليّةً إلى سوزانا وأبيها نظيرَ استخدامه الأرض التي يشاركهما ملكيّتَها.



الفصل 3

ما شَجَاه من جديد (إذ ليس سوى القليلِ ليُروَى عن السعادة) السعادةُ هي ذاتُها فقط، ساكنةٌ، خاملةٌ عاطفيًّا، حالةٌ متبنّاةٌ بقلبٍ خَلِيٍّ ولكن بعقلٍ بَرِم) كان رحلةً إلى غريت فولز مع تُو وعمّال المزرعة ليسوقوا قطيعا من عجول الخريف إلى رأس سكّة الحديد. كانت رحلةً ممتعة، لم يقلّل من سعادتها أنّها قديمةُ الطابع. كان ذلك في شهر أكتوبر وسوقُ الأسهم، أيًّا كان ما يعنيه ذلك، قد انهارت لتوّها. لكن كان لدى تريستن مالٌ قليلٌ لأجل القطيع وقد بَقُوا جميعًا- تُو، تريستن، دِكر، نصفُ الأسودِ من كري، ونرويجيٌّ من النجّارين تخلّف منذ سنين عن رفيقيه وظلّ مقيمًا في المكان- كي يحتفلوا بعد صيفٍ مرهقٍ وقائظ. نعموا بأفضل وجبةٍ في البلدة مع كثيرٍ من الشراب، لكن أخمدت حماستهم مظاهرُ الثراء والترف على طاقم مزرعة في الجوار اغتنوا من تهريب الخمور من كندا في تحدٍّ لقانون فولستِد[1].

كان ون ستاب سيأتي في اليوم التالي بالباكارد ليصطحب تُو إلى البيت مع ما تبضّعته من لوازم الخريف، لذا أخبر تريستن زعيمَ المهرّبين بأنّه سيأخذ عشرة صناديق من الويسكي لاستخدامه الشخصيّ وليبيع منها لجيرانه.

1- Volstead Act قانون حظر الكحوليّات في الولايات المتحدة (1920 – 1933) نسبةً لأندرو فولستِد رئيس لجنة القضاء في مجلس النواب الذي شارك في كتابة مشروع القانون ودعمه وسهّل تمريره والتصديق عليه.

أخبر رفاقَه بأنّه سيقاسمهم الربح وكانوا سكارى منتشين من اللذّة يفكّرون بالكسب السريع، حتى إنّهم طالبوا بالمزيد من الويسكي ليحملوه في أخراجٍ على ظهور الخيل.

مضوا في موكبٍ غريبٍ متقاطرين عبر أخدودٍ ضيّقٍ في وادٍ قربَ تشوتيا، الخيول ليست بعيدةً عن الباكارد التي كانت في المقدّمة وقد بطّأها ورنّحَها مطرُ أكتوبر. ثم عند فم الأخدود قربَ انعطاف الطريق شمالًا جهةَ تشوتيا، أغلق عليهم المنفذَ النظامُ مُمَثَّلًا في رجلين مسلّحين وسيارة فورد كوبيه. أطلق المسلّحان النار بعشوائيّةٍ في الهواء كما ينبغي لضبّاطٍ فِدراليّين. توقّف الموكب الذي لم يزل في مزاجٍ بهيج. الضابطُ الفِدراليُّ قال أنّه قد نمى إليهم نبأ الشحنة وأنّ على تريستن أن يسلّم الويسكي. عرفا تريستن واعتذرا منه قائلَين بأنّ تُهمًا ستوجَّه إليه في نوفمبر في هيلينا لكن يلزمهم الآن التخلّص من الكحول. أشاح تريستن بوجهه عن الضابطين ملتفتًا إلى عويلٍ من ون ستاب. مشى إلى الباكارد، نظر إلى وجه ون ستاب، ثم إلى تُو في المقعد الخلفيّ مع الهدايا والمؤن. كأنّما قُدّت من حجرٍ ورصاصةٌ مرتدّةٌ عن جدار الأخدود قد اخترقت جبهتَها بدقّةٍ مثل قطعةٍ معدنيّةٍ حمراءَ من فئة عشرة سنتات. عندئذ جُنّ جنونُ تريستن واندفع كالمسعور يبحث عن سلاحٍ غيرِ موجود، ثم لكم هائجًا كلا الضابطين المذهولين، واضعًا أحدَهما لأشهرٍ على شفا الموت. سحب جسدَ تُو من الباكارد وجرى به أسفلَ الأخدود. حاملًا جسدَها لأميالٍ في المطر البارد والموكبُ في إثره. حاملًا جسدَها ويعوي من حينٍ لآخرَ بلغةٍ غيرِ معلومةٍ على الأرض.

بعد ثلاثة أيّامٍ قَدِم مأمورُ السجن إلى منزل لودلو قائلًا أنّ على تريستن أن يقضّي شهرًا في سجن هيلينا عقوبةً على الكسور البالغة التي أحدثها في جمجمة أحد الضابطَين الفدراليّين. تخفيف العقوبة كان من جرّاء التأثير

الرهيب لألفرد في سياسة مونتانا. قاطعتهما بِت لتقول أنّ إيزابيل ثري قد اختفت. رَكِب تريستن حصانَه ماسحًا اثني عشر ميلًا حتى وجدها في الأحراش قربَ النبع. كان ون ستاب يغنّي أغنيةَ موتٍ شايانيّةٍ وهي تشاركه الغناءَ بصوتٍ عالٍ وحزينٍ حتى انفطر ما تبقّى من قلب تريستن. رفع جسمَها المهزولَ على السرج وحملها إلى البيت.

ما زال مثارَ جدلٍ بين كبار السنّ في المنطقة إن كان الخمر أو السجن أو الشجا المرير أو الطمع ببساطةٍ هو ما جعل من تريستن مجرمًا مطارَدًا: لكنّ هذا الجدل كان فقط فاكهةَ مجالس المتقاعدين، المثير أنّه بعد أربعين عامًا ظلَّ تريستن موضوعًا جاذبًا للقيل والقال، آخرَ الخارجين عن القانون، لا رجلَ عصابات.

في الحقيقة بعد أن عثر تريستن على ثري ذاتِ ستِّ السنوات عند النبع تغنّي مع ون ستاب، دخل في حالة صمتٍ شهورًا عديدةً، ما عدا مع صغيريه. بات صامتًا في السجن رافضًا كلَّ الزوار، من ضمنهم ألفرد الذي جاء معزِّيًا ومبلِغًا إيّاه تعازيَ سوزانا في رسالة. صحيفة هيلينا غطت الزيارة تحت عنوان «نائبٌ يزور أخاه الأرملَ في السجن».

في الحقيقة، كان ألفرد يأمل في بعض العزاء والشفاعة من تريستن. لقد وصل إلى المزرعة بعد الجنازة بيوم وبعد ساعاتٍ قليلةٍ فقط من اقتياد مأمور السجن تريستن إلى السجن. لزِم لودلو غرفتَه وأبى أن يلتقيَ ابنَه الأكبر. أرسل بِت بلوحه الأسود إلى الصالون في الأسفل قائلًا أنّه لن يطيق الحديث إلى ألفرد ما دام ممثّلًا لحكومة الولايات المتحدة وممارساتها الدنيئة.

لودلو في الحقيقة رأى تُو مثلَ بنتٍ له وأحبّها مثلَ كذلك. قبل سنوات كان قد ابتهج بتعليمها القراءة والكتابة ولَكَمْ خيّبت محاولاتُه المستمرّة تدليلَها بالهدايا رجاءاتِ دِكر وبِت. لقد كان لودلو من كتب إلى إيزابيل في بوسطن

وطلب منها أن تجلب معها أبهى وأغلى فستان زفافٍ ممكن. الآن عندما زار قبرَها راكبًا الفورد القديمةَ مع ون ستاب شعر بأنّه أكبرُ من سنينه الخمسِ والسبعين مفكِّرًا في أكتوبر آخرَ غيرِ الذي هم فيه حينما أرسل أولاده إلى الحرب، ثم في ذاك النهار الأكتوبريِّ الجميل قبل سبعة أعوام عندما احتفل تريستن وتُو بزواجهما في بستانٍ من أشجار الحور، ينعكس لألاءُ الشمس من فستانها الأبيض على ألوان الخريف الذابلة، على العشب الذاوي والحَور الأصفر. فجيعةُ المرء بفقد حبيبين في أربع عشرة سنة ليست بالأمر النادر إلا للثاكل المفجوع الذي فقد كلَّ حسّ بالشائع والنادر ودُفن في هوسه بالأشياء المُهمَلةِ وكيف كان لها أن تكون.

عاد ألفرد إلى واشنطن ممضيًا رحلةَ قطارٍ طويلةً في اضطرابٍ مؤرِّق. سياسيًّا، كان الحظر في رأيه سفاهةً فارغةً لم تخدم سوى مصالح العنصر الإجراميّ، ولا أدلّ على ذلك من سنوات الانحطاط التي صاحبت قانون فولستد. كان أبوه على الدوام بطلًا في نظره. وكم أحبّ أن يقتبس من أقوال الشيخ الأنيق المقيم على الحدود في خطبه التي ألقاها على مسامع النواب رغم أنّ لودلو، يقينًا، ما كان يحمل تصوّراتٍ كهذه عن نفسه. أفكارٌ بسخافة ما يُرَوَّج عن «رعاة البقر» أو «ساكنِ الحدود» أو قانونِ الحظرِ نفسِه ظهرت في أطوار التاريخ المنطوية على الاغترار بالذات، عندما تتوجّه الطاقات نحو التصنيف والنظام الاجتماعي.

لكن مشاكل ألفرد كانت أعمقَ في طبيعتها من السياسة وجفاء الأب. سوزانا جدُّ مريضة، دائمًا ما كانت مريضةً بصورةٍ خافتة هادئة. وواشنطن، المطالبُ الاجتماعيّة لكونها زوجةَ نائبٍ في مجلس الشيوخ، فاقمت متاعبَها. لقد اشترى ألفرد منزلًا ريفيًّا وإصطبلات في ميرلند حيث اعتنوا بكثيرٍ من خيول السباق التي يملكها حماه. أقامت هناك معظمَ الوقت يزوها مرّتين في

الأسبوع مختصّ في طبّ النفس الجنائيّ من جون هوبكنز، يهوديٌّ فرنسيٌّ كبيرٌ في السنّ أقسم على السريّة، إذ طالما شكّلت الزوجة المجنونة عبئًا سياسيًّا. وفي عمايةٍ من هواه، رفض ألفرد أن يعترف بحدّةِ المشكلة. في ظهيرةٍ قبل سنوات عندما أُقِلّا بسيارةٍ من فالوريس إلى نيس كي يعودا بالقارب إلى البيت، ألحّت سوزانا على السائق أن يتوقّف، ومشيا بجانب تلّةٍ مغطّاة بالأشجار ومارسا الحبّ. بدت لأسابيع سعيدةً للغاية وإن ألمّت بها نوباتُ بكاءٍ متقطّعة. رغم هذا لم يبصر ألفرد بنفسه قطّ بريق السعادة، لكنّ سوزانا هوت بعدُ في برحاءِ ألمها الخاصّ، رافضةً أن تغادر جناحها الحكوميَّ طيلة الرحلة التي امتدت أسبوعين إلى نيويورك. المكان الريفي والتخفف من ضغوط واشنطن المباشرة بدا أنّهما يساعدانها.

لكن في كل سنة من سنين زواجهما التسع مرّت بها فتراتٌ ممّا يجب أن يُدعَى جنونًا على درجاتٍ متفاوتةٍ من الحدّة. لم يكن الطبيب النفسيّ مشجِّعًا رغم أنّ سوزانا في السنوات القليلة الفائتة كانت مريضتَه المحبَّبة. لقد ألزمها بمناشطَ ذاتِ علاقةٍ بالإصطبل وسباق الخيل، مدرِكًا من موقعه أنّ الانشغال بالحيوانات قد يساهم في تهدئة المريض، وأن الأحصنةَ برقّةٍ بدت قادرةً على أن تخلِّصها من السمّ ولو مؤقّتًا.

الأسابيع التي تلت عودة تريستن من مونتانا كانت جحيمًا كلُّها. سوزانا بلغت ذروةَ هوسِها المجنون حيث غدت كلّ الأشياء على الأرض أسطعَ وأوضحَ من أن تُحْتَمَل: أمكنها أن ترى قلبَ حصانٍ خلال الجلدِ والعضلِ والعظم، والقمرَ رأته على بعد قدمٍ فقط من النافذة؛ زهورُ المزهريّة كانت ميّتة ومرعبة ولوحاتٌ بعينها من فرنسا كان يجب أن تُقلَبَ جهةَ الحائط؛ كانت تدّعي افتقارَها إلى طفلٍ مخيّلةٍ مهما حاولت جاهدةً أن تخترع واحدًا ولقد كان رفضُ تريستن أن يجيب على رسالة العزاء ذريعتَها إلى مهاوي الاكتئاب.

في أبريل رجع ألفرد إلى الغرب كي يزور بزعمه دائرتَه الانتخابيّة. اشترى منزلًا كبيرًا في هيلينا، مفكّرًا في سوزانا لعلّه من الأفضل في حالتها أن تقضّي مواسم الصيف في مونتانا. ستكون إيزابيل موجودةً وتريستن أيضًا، وقد تسمح بِت لسوزانا بمساعدتها في العناية بصمويل وثري. لحظةَ خاض بسيارته في الأرض الطينيّة قرب تشوتيا ارتفعت، وهو المتفائل دائمًا، معنويّاته وانشرح صدره لفكرته ولجمالِ المزرعة.

تريستن ودِكر كانا خارجَ السقيفة يبنيان هياكلَ لسروج التحميل فيما كان لودلو وون ستاب يشاهدانهما ويدخّنان غليونيهما. عندما نزل ألفرد من سيّارته انسلّ لودلو عبر السياج ومشى بعيدًا في المرج يتبعه ون ستاب. تريستن ودِكر وألفرد شاهدوه ماضيًا في طريقه حول أكوام الثلج الذائبة كأنّه قد عقد النية على المضيّ إلى نهاية العالم. علّم الدمعُ بخطّين على خدّي ألفرد وأخذ تريستن بذراعه. سأله ألفرد أن يسامحَه لكنّ تريستن كان واقعيًّا ولم يزد على أن قال، «أسامحك على ماذا، لستَ من أطلق النارَ على زوجتي». قعد دِكر على منضدة للنجارة وتابع بنظره تريستن وألفرد يمشيان في المرج خلفَ رسمي لودلو وون ستاب المبتعدين. كان أساه مجترَحًا من قسوة الشمال التي لا ترحم. (انتظَرَ ثلاث سنوات حتى كان في مزادٍ للماشية في بوزمن قبل أن يجدَ الفرصةَ ليطلق النار على أحد الضابطَين الفِدراليّين في طريق بوزمن-ليفينغستون الذي اعتاد الضابطُ ارتيادَه كلَّ يوم. قعد على صخرةٍ عاليةٍ بين أشجار الصنوبر الطينيّة في حجره بندقيّةٌ (270.)، صوّب أوّلًا على العجلة، ثم حالما خرج الهدفُ من السيّارة رماه بعشر طلقات بانتشاءٍ عظيم. الضابط الآخر نُقِل إلى الشرق وبات على دِكر أن يَقْنَعَ بالثأر من واحد فقط).

عندما انتصفا الطريق في المرج توقّف ألفرد وشرح في عُجالةٍ أنّ على تريستن أن يكاتب سوزانا ويريحَها من عقدة الذنب. أومأ تريستن برأسه

رأفةً بأخيه. وحين أدركا لودلو، وقد استند من التعب إلى صخرة، ابتعد ون ستاب عن مدى السمع. أخذ تريستن ذراعَ أبيه وسأله الصفح عن ألفرد فهو ولدُه وليس الحكومة. اختلج لودلو اختلاجةَ بردٍ وحدج ألفرد بعينين قاسيتين لكن رقراقتين، هازًّا رأسه لتريستن أن قد غفرت له ومشيحًا بوجهه. لم يكن لوحُه معه فاكتفى بعناق ألفرد ثم عاد أدراجه إلى البيت.

عندما ارتحل ألفرد في الصباح التالي شعر بنفسه خفيفةً وإيجابيّةً رغم أنّها كانت تمطر. لقد غُفر له وأمضى أمسيةً لطيفةً مع طفلي تريستن إذ حكى لهما قاعدَين في حجره قصصًا عن الحياة في مدن الشرق العظيمة. تمهّل قليلًا قبل أن يسلك الطريق الرئيسة فاسحًا المجال لقافلةٍ من البغال وأحصنة النقل يقودها عاملان غيرُ غريبَين عليه، الزنجيُّ من كري والنجّارُ النرويجيُّ الضخم. استغرب متسائلًا دون كبير اهتمام لم يا ترى أراد تريستن كلَّ هذا العدد من الدوابّ.

بحلول أوّل مايو حين تأكّد دخولُ الربيع وأنّ أيّةَ عاصفةٍ جبليّةٍ لن تكون إلا قصيرةً ومتقطّعة، أتى الرجلُ الذي يبصر بعيني طائر نازلًا من فورت بنتون دليلًا لتريستن ودِكر والنرويجيّ وابنِ كري وقادهم من تشوتيا مجتازًا بهم فالير وكت بانك إلى كاردستون في ألبرتا حيث أثقلوا خمسين حصانًا بالأحمال على ظهر كلِّ حصانٍ أربعةُ صناديقَ من الويسكي، سالكًا بهم في العودة طريقًا مختصرةً عبر شلبي وكونراد إلى غريت فولز حيث باع تريستن الويسكي بستة آلاف دولار. هذا المبلغ كبير لأنّ الويسكي كان من صنفٍ كنديٍّ فاخر، لم يُمزَج بأيٍّ من الأنواع العُمّاليّةِ الرديئة، ممارسةٌ اعتادها المهرِّبون المرتشون والعصابات الأكثر فسادًا. السبب الآخر كان ندرةَ الطرق في شمال مونتانا ما سهّل على الشرطة مراقبتَها وضاعف سعرَ التهريب من خلالها. الرجل الذي يبصر بعيني طائر أمّن لهم السبيل على أنّ صديقَه ون

ستاب كان حزينًا إذ ألزمه تريستن بالبقاء كي يعتني بلودلو وبالمزرعة.

مع الأسف، لم يكن تريستن راضيًا. لقد أمّل دون أن يعي أن يلقى بعضَ المقاومة. ثم كان أن واساه دِكر مذكّرا إيّاه بطفليه وبأنّ التعداد القليل لسكان مونتانا كان سيلقي بهم أخيرًا في قبضة الشرطة. وافقه تريستن مع أنّ غضب دِكر كان هادئًا هكذا لأنّه ما عبّر عن تحفُّظاته أساسًا إلا استجابةً لإلحاح بِت الخائفةِ على حفيديها. قام تريستن بعمليّةٍ أخرى في عزّ الصيف وعند عودتهم أبلغه ون ستاب أنّ بِت أخذت طفليه واختفت عن الأنظار. وأردف بأنّه كان سيتبعها لولا أنّ لودلو كان مريضًا. فهبّ تريستن ودِكر إلى فورت بنتون على الباكارد وأثرُ الرصاصة محفورٌ في المقعد الخلفيّ وأعاد بِت وطفليه إلى البيت.

من ثَمَّ هدأ نشاطُ تريستن بعد أن راسل المكسيكيَّ في فيراكروز طالبًا منه أن يبحر بسفينته إلى سان فرانسيسكو حيث يلتقيان مع الربيع القادم. هنالك أموالٌ لتُجنَى. أتت إيزابيل مصيِّفةً في الغرب كي تساعد سوزانا على الاستقرار في هيلينا في منزلٍ يليق بنائبٍ في مجلس الشيوخ. انضمّ إليهما لشهرٍ حفيداها رفقةَ بِت وتحسّنت صحّةُ سوزانا مع عنايتها بهما وبادلها صمويل وثري حبًّا بحبّ. ما أدرك أحدٌ أنّ الصحّة البادية على سوزانا مبنيّةٌ على أوهن التوهُّمات. حين ردّ تريستن على رسالتها بطلبٍ من ألفرد كان مستكينًا لحقيقةِ أنّ القدر قد فرّق بينهما وأنّ عليهما رغم كلِّ ما حدث أن يتعايشا مع هذه الحقيقة برضا. كانت الرسالة قاسيةً دونما قصد لأنّها بصورةٍ ما قد منحتها أملًا؛ لقد دخلت من جديدٍ إلى فترةٍ كان عالمُها ساطعًا على نحوٍ مضلّل، منزوعةً عنه القشور حتى إن الأيّام كانت سلسلةً متواليةً من جوهر الأشياء. كان ألفرد يُعدّ حفلةَ عشاء لحلقته السياسيّة والاجتماعيّة في مونتانا وقد جُنّت على الأرجح من الترتيبِ لها مع مساعدةِ إيزابيل التي كانت خبيرةً بمناسبات كهذه.

نزل تريستن إلى هيلينا ليلتقيَ وكيلَ تاجرٍ كنديٍّ يصنع كحولًا مقطّرةً كان قد قابله في كاردستون. ناقَشَا آنذاك المشاكلَ التي تسبّبت بها عصابةُ تهريبٍ مشهورةٌ باسم (العصابة الإيرلنديّة) في سياتل وتضييقَهم الخناق على توزيع الكحول في كاليفورنيا والشمال الغربيّ. زبائنُ متطلّبون في سان فرانسيسكو كانوا عاجزين عن الحصول على ويسكي النخْب الأول الذي يفضّله زبائنهم. اتفق الرجلان مبدئيًّا على أن يقوم تريستن بعمليّة تهريبٍ على متن سفينته الشراعيّة من جزيرة فانكوفر إلى سان فرانسيسكو وعزم تريستن في هذا اليوم المشمس في هيلينا على أن تكون صفقةً ضخمة. أحضر معه خمسة صناديق من ويسكي هيغ آند هيغ هديَّةً لألفرد مع رفضِه دعوتَه للعشاء. لطالما نفر من الأصدقاء المتظاهرين بالأهمية الذين اعتاد ألفرد استضافتهم في المزرعة خلال موسم الصيد: كانوا إلّا قليلًا منهم يسكرون ويلعبون الورق طيلة الليل، ويسهرون، وكان ابن كري يدوّن لهم رخصَ صيدِ الغزلان والأيائل، رغم أنّ تريستن لم يعد يتعاون معهم منذ أطلق تاجرُ خردوات نارَ بندقيّته على دبٍّ رماديٍّ نائمٍ في جانب تلّ.

انتهى تريستن من لقائه ثم دار بالسيّارة حول القصر الفيكتوريّ المزخرف الذي يقطنه ألفرد إلى أن وجد المدخل الخلفيّ. كان ينوي التسليمَ على أمّه، إيصالَ الويسكي، تجنُّبَ سوزانا ما استطاع والعودةَ إلى المزرعة. لقد أرهقت هيلينا روحَه بصورةٍ غيرِ طبيعيّة، كلّ هؤلاء الرجال يُشار إليهم بوصفٍ مريبٍ موظّفين مدنيّين كانوا يتجوّلون في الأرجاء، ناهيك عن التجاهل البارد لحبسه شهرًا هناك حين كان حلقه وصدره باستمرار على وشك أن يختنقاه بذكرياته مع تُو. حتى بعد حملها الطفلين كانت تقفز إلى سرجها على متن جوادٍ دون أن تضع قدمًا في الركاب وعندما انطلقت بحصانها الأغبرِ المخصيِّ كان شعرها يطير من سرعة العدو مثلما يطير شعر حيوان مفترس.

لكنّه تجاوز مفاهيم الثأر البسيطة وربما أنّ الشجا قد خشّنه وسمّمه حتى عَلِم يقينًا أنّه لن يدرك ثأرَه من العالم، حتى وإن أدركه فإنّ ذلك لن يعيد إليه المرأةَ التي ضربها المطرُ حتى تهدّل شعرُها الأسودُ الطويلُ على ساقيه.

لذا في ما يتعلّق بهذا الرجل فإنّ نحسَه سيقوده حتمًا إلى أن يدخلَ مطبخ أخيه ويجد سوزانا في وجهه تضحك وتتحدّث مع صمويل وثري. حيّا طفليه وعانقهما قبل أن يسرِعا لمساعدة جدّتهما في تعليق زينة الحفل. قعد تريستن وسوزانا هناك في حال شديدة من التوتر شارف معها المطبخ على أن ينفجر. قالت سوزانا نصفَ كاذبةٍ أنّها رأت نفسَها في المنام وقد أصبحت أمًّا لصمويل وثري، لكنّ تريستن هزّ رأسه لا، فقامت شابكةً يديها كأنّها ستسحب كتفيها معًا. تركت الطاولة ومشت إلى المخزن. بقي تريستن في مقعده يتصبَّب عرقًا في حرّ أغسطس الخانق، ثمّ سمعها تنادي اسمَه بصوتها الناعم الصافي. ضغط بيديه ضغطًا شديدا على وجهه وذهب إلى المخزن حيث وقفت عاريةً بعينين لامعتين، شعرها منسدلٌ على كتفيها، ثيابها عند قدميها. أغلق باب المخزن وحاول أن يهدّئها، ثم استسلم دون تردّد حين هدّدته إن لم يضاجعها أن تبدأ بالصراخ وتصرخَ حتى يدركَها الموت. غاص كلٌّ منهما في حضن الآخر، جلدُهما ملتصقٌ ببلاط الأرضيّة البارد.

بعدما غادر تريستن، قصّت سوزانا شعرَها بمقصّ خياطة وحُبِست في غرفتها طيلةَ الحفلة تحت رعاية طبيبٍ وطاقم تمريض. صُبْحَ اليوم التالي نُقِلت إلى تشوتيا شمالًا مع الطبيب، وإيزابيل، وبِت والطفلين. ذهبوا في سيارتين وكان ألفرد منفعلًا، دون أن يفارقَه اللطف، غيرَ مستوعب تمامًا لما أصابها. عندما وصلوا أخذ تريستن طفليه إلى كوخ صيدٍ بناه على بعد اثني عشر ميلا تقريبا في الجبال لبضعة أيام.

حين رجع كانت سوزانا متحمّسةً ومتألّقةً من جديد، واطمأنّ الجميع

وغادر ألفرد بعد أيّامٍ قليلةٍ إلى هيلينا ليتابع عملَه السياسيّ. كان تريستن على بعد أسبوعٍ فقط من رحلته إلى سان فرانسيسكو ليلقى المكسيكيَّ والسفينة. حرص على أن يقلّل الطاقم، مقتصرًا على النرويجيِّ وابنِ كري لثقته بهما.

حلّ أوّلُ سبتمبر الآن، وموجةُ بردٍ قصيرةٌ دامت ليومين ناثرةً على سفوح التلال ثلجًا ذاب عن شجر الحور قبيلَ الضحى. جلس تريستن وحده في البيت بعد أن مرّ ون وستاب ولودلو واصطحبا الطفلين للغداء مع إيزابيل. مغمومًا استغرقه التفكير على صوت احتراق الحطب في الموقد في خيانته لأخيه، أيًّا تكن الظروف فلقد خانه. لم يُلقِ بأدنى لائمةٍ على سوزانا عالمًا بأنّها كانت بين فينةٍ وأخرى أقلَّ مسؤوليّةً عن تصرفاتها حتى من أصغر الأطفال. أوجعه قلبه من حجم الارتباك والألم الذي سبّبه على الأرض. صبّ كأسًا من الويسكي، وبدأ التحضير مبكّرًا لرحلته إلى سان فرانسيسكو، مقتنعًا أنّ أفضلَ خيارٍ أن يكون أبعد ما يستطيع عن سوزانا إذا ما انهارت من جديد.

جهّز حقيبته سريعًا، مستذكرًا أن يخبر دِكر عن مخبأ ماله في حالِ تعذّر عليه الرجوع. لكن حين عاد إلى الغرفة الرئيسة وجد سوزانا على الأريكة قُبالةَ النار. ناداها باسمها فلم تجبه. مشى إلى الأريكة ونظر إلى النار وإلى شعرها القصير المبتلّ بالمطر وإلى ملابسِها. تحدّثت بصوتٍ خفيض وواضح، طالبةً منه الصفح عمّا فعلت. لم تستطع منع نفسها لأنها أحبّته غايةَ الحبّ وعلِمت في قرارة نفسها أنّه ذات يومٍ قد أحبّها وأنّ هذا ليس عدلًا وأنّها تدمّرت رجاءَ أن تكون معه مرّةً أخرى على الأرض. وأنّها كانت عذابًا بلا معنى لنفسها ولكلٍّ من حولها وأنّها إن استقرت الأحوال وعادت مع ألفرد إلى الشرق سوف تضع حدًّا لحياتها. أكدّت لتريستن أنّ الأمرَ لا علاقةَ له بشفقةٍ على الذات ولا أسى، ليس سوى أنّها لم تعد تطيق احتمالَ غيابه وأطوارِ جنونها.

حين توقّفت حاول تريستن أن يستجمع الوقتَ لحظاتٍ معدوداتٍ

وعقله يدور في هلع. تسابقت أفكاره وكلماته، شاعرًا بقلبه ثقيلًا ويغوص أبعدَ عن الواقع. رجاها ألّا تأخذَ حياتها فالحياة غريبةٌ ومعقّدةٌ وربما جمعتهما التصاريف يوما ما مرّةً أخرى. على الأقلّ سوف يرجع بعد عام وسوف يتسنّى لهما إذّاك أن يريا بعضهما ويتكلّما بهدوء بروحين رائقتين وعقلين صافيين.

ثمّ رحل، وتعلّقت بالأمل تارةً أخرى، وتشبّثت بوهمه الذي أنقذ حياتها. كان أملها أكبر ممّا أمّلت حين رحل من سنين طويلة لأنّها اعتقدت هذه المرّة أنّه قد أراد باستماتة أن يكون معها من جديد. صحّتها تحسّنت فجأة عندما رجعوا إلى واشنطن وابتهج ألفرد وطبيبها النفسيّ لسلوكها خلال الأشهر العشرة اللاحقة وأمّلوا آمالًا مشرقةً وزائفةً كآمالها.

في سان فرانسيسكو، تواصل تريستن والنرويجيّ وابن كري سريعًا مع المكسيكيّ، ركبوا السفينة وغادروا تحت جنح الظلام. بناء على نصيحة وكيل تاجر الكحول المقطّرة، كان المكسيكيُّ قد أعطى على الرصيف انطباعًا بأنّ السفينة متجهةٌ إلى هاواي لإيصال شحنةٍ في ماوي. مخروا البحر شمالًا في طقسٍ باردٍ عاصف وبلغوا المنفذ قرب تشرش بوينت في جزيرة فانكوفر خلال أسبوعٍ من الإبحار السريع. حملوا الشحنة في الظلام واتجهوا إلى نقطة اللقاء في خليج بوليناس شمالَ سان فرانسيسكو.

حالفهم الحظّ في بوليناس وكانت عمليّة الإنزال والدفع سلسةً دون حوادثَ تُذكَر. ركب تريستن والمكسيكيّ سيارةً إلى سان فرانسيسكو يقودها رجلٌ كان يساعد في التنسيق للشحنة القادمة التي سيدفع ثمنها مجموعةٌ من ملّاك المطاعم. بعد اللقاء في شقّة فوق حانةٍ في نورث بيتش قادهم الرجل بالسيارة عائدًا من جهة غولدن غيت، متوقّفا خلافَ الأوامر في مطعم مرفأ لتناول وجبةٍ سريعة. توتّر المكسيكيّ إذ اشتبه أوّلَ الظهر بسيارة فورد آي

مغبرّة. عندما خرجوا من موقف السيارات أحاط بهم أربعة رجال وأوسعوا تريستن والمكسيكيّ ضربًا بالهراوات ورموا بهما كأكياس قمامة في السيارة التي نزلا منها، بعد أن ذبحوا السائق سلفًا. قبل حفلة الضرب قال أكثرهم أناقةً أنّ من الخير لتريستن وجماعته أن يبتعدوا عن أعمال الخمور على الساحل. تذكّر تريستن بدلتَه الرماديّة وعينيه المبتسمتين، لكنتَه الإيرلندية، عندما أفاق في السيارة بعد منتصف الليل. أنعش تريستن المكسيكيّ ثم جرّا جثّةَ الرجل المذبوح خارجَ السيارة، وعادا إلى الحانة وسألا إن كانت الصفقة لم تزل قائمة. لقد كانت كذلك.

عندما رجعوا إلى كاليفورنيا من كندا، هذه المرّةَ إلى خليج توماليس قرب بوينت رييس، كانوا على أهبة الاستعداد عندما شارف في الفجر زورقٌ بخاريٌّ على بلوغ مرساهم. أولئك الذين في الزورق ما عرفوا أنّ تريستن قد أنزل الشحنة سلفًا على بعد بضعة أميال أعلى الساحل. حين اقترب الزورق أكثر من السفينة استلقى تريستن والمكسيكيّ تحت ألواح رطبة يراقبان الوضع، والنرويجيّ وابن كري في الأسفل جاهزان لموجة ثانية من إطلاق النار حالَ الحاجةِ إليها. رشّ الزورقُ رشّة قصيرةً من البنادق الآليّة على النزل الرئيس قبل أن يفتحَ تريستن والمكسيكيّ عليهم النار من بندقية لصيد الفيل وأخرى من عيار (.375). عرف اثنين ممّن ضرباه ونسفهما أوّلًا برصاصٍ صُمّم لقتل أكبر حيوان ثديّي على الأرض فتطايرا أشلاءً من القارب. راقبَ المكسيكيُّ خطَّ الماء، ثم سدّد طلقتين من كثب في رأس كلٍّ من الرجلين الباقيين إذ سبحا مع المدّ القادم مثلما يسبح الكلب.

أبحروا بعدها جنوبًا إلى إنسنادا، وقد أدرك تريستن أنّه رغم ربحه المعركةَ لن يستطيع أن يربحَ الحرب. قضّى شتاءً في تبدّدٍ كلّيٍّ وعاد المكسيكي إلى فيراكروز، محفظته مليئة لكنّه يعلم أنّ اللعبة انتهت. بعد شهرٍ أرسل

النرويجيَّ وابنَ كري إلى الديار برسالةٍ طويلةٍ إلى طفليه وكي يبلغا لودلو وذِكر أنّه سيعود إلى المزرعة بعد أن يزور ألفرد وسوزانا خلال موسم السباق في ساراتوغا. وظّف صيّادَ سمكٍ مكسيكيًّا مسنًّا وزوجتَه للعناية بالمركب والطبخ له. شرب وفكّر في سوزانا وماذا عساه أن يخبرها في يونيو ولا شيءَ عنده ليخبرها به. حنّ لطفليه وسمح للصياد وزوجته أن ينقلا أحفادهما الثلاثة إلى متن السفينة عندما تخلّت عنهم أمّهم. أمضى أيّامَه في الشرب وصيد السمك باستخدام الخيوط اليدويّة صحبةَ الرجل المسنِّ في قارب شراعي مسطّح. في مطلع مايو لم يعد تمامًا إلى رشده بل بالأحرى عاد إليه إدراكُه كم كان يفتقد طفليه فترك السفينة في رعاية العجوزين وسافر شمالا. ليس لديه أدنى فكرة كيف قد يحرّض سوزانا على حياة أطول، لكنه سيذهب إلى البيت قبل السفر شرقًا إلى ساراتوغا.

لم يتح له يونيو مونتانا سوى ساعاتٍ قليلةٍ من الراحة عندما وصل إلى المزرعة. الكلّ كان على ما يرام بعد شتاءٍ قاسٍ رغم التعب البادي على لودلو ممّا عجّل من قدوم إيزابيل في منتصف مايو لتكون قريبةً منه. ثم عند العشاء أشار دِكر إلى أنّ صديقين قديمين لتريستن، إيرلنديّين من كاليفورنيا، مرّا قبل وصوله بيوم لكنّه أخبرهما متأسّفًا أنّ تريستن كان في طريقه إلى ساراتوغا. شعر تريستن ببرد الموت صاعدًا في صُلْبِه، وبالغضبِ أيضًا أن عرّض كلَّ هؤلاء الذين أحبّهم لخطرٍ جسيم.

عند فجر اليوم التالي أوصله دِكر وون ستاب بالسيّارة إلى محطة القطار في غريت فولز. كان دِكر خائفًا وأراد أن يأتي معه لكنّ تريستن رفض إذ من سيهتمّ حينها بشؤون المزرعة. في آخر المساء قبل أن يغادروا أمر النرويجيَّ وابنَ كري بالتمركز في الرواق وإطلاق النار عند مرأى الغرباء. صعد تريستن على متن القطار ببدلةٍ قديمةٍ لصمويل (ليس لديه واحدة) وبحقيبةٍ

من الجلد مملوءةٍ بالمال وملابسَ داخلية، ومسدّسٍ بيسلي من تركة جدّه وسكّينٍ ون ستاب.

* * *

عندما بلغ تريستن نيويورك اشترى مستعجِلًا ملابسَ وسيّارةً اتجه بها شمالًا بأقصى سرعةٍ إلى ساراتوغا سبرينغز. موسم السباق كان في أبهى حلله عاجًّا بالناس رغم الكساد فلم يجد مكانًا للسكن، واستقرّ في كوخٍ سياحيٍّ صغيرٍ قربَ غلنز فولز. حلق شاربه وفي الصباح التالي اشترى بعض الملابس من سائس خيل ولبسها تحت المدرج وهتاف الجمهور من فوقه. بين السباقات حمل دلوَ ماءٍ ومِحسَّةً وشاهد موكب الخيل المهيب على العشب المجزوز خلف المنصّة معروضًا للسباق القادم. تفحّص الجمهور من كثب والتقطت عينه ألفرد وحماه، وسوزانا تحت المظلّة واقفة مع جماعة من ملّاك الخيل المتأنّقين، من أمثال آل ويتني، وفاندربلت، وغست، وويدنر: ثم لمح من يبدو أنّه واحدٌ من العصابة الإيرلنديّة واقفًا قربَ حوضِ أزهارٍ مزخرف، أنيقَ الملبس لكنّه بصورة ما واضحُ الانتماء. مشى إلى المستراد قرب الحظيرة، مارًّا برجلٍ ضخم متورّدِ الوجه يتحدّث إلى خيّال. عندما مرّ به تعرّف من صوته إلى الرجلِ الثالث الذي ضربه في نورث بيتش. لم يلتفت تريستن بل واصل مشيه إلى الإصطبلات حيث قيل له أن ينشغل بتنظيفها. ثم دخل الرجل إلى الحظيرة وتلفّت حوله في حالٍ مختلفة. مشى في مربط خال لكي يبول. تبعه تريستن وأنشب في رأسه سِنَّي شاعوبٍ ثقيل بعد أن خبطه في الجدار. دفنه تريستن في الروثِ والقشّ عند زاوية الإصطبل ثمّ عاد إلى حمّامات المنصّة وغيّر ملابسه. حدّد موقع الإيرلنديِّ الثاني وتبعه إلى نزل سياح بعد أن أمضى الرجل وقتًا طويلًا يبحث عن صاحبه إلى أن بات الميدان شبهَ مهجور. تبع تريستن الرجل إلى وقتٍ متأخّرٍ في المساء متحيّنًا فرصةً حتى توجّه الرجل إلى النزل

بعد تناوله العشاء والشراب ماشيًا في زُقاقٍ مشبوهٍ في الجوار. كسر تريستن عنقَه، أفرغ برميلَ قمامةٍ وحشر الرجل فيه، رادًّا الغطاءَ بلطف.

في الصباح التالي، بعد نومةٍ عميقةٍ بمعونة الويسكي، قاد سيارته عائدًا إلى ساراتوغا لابسًا بدلةً غالية اشتراها في نيويورك. كان يأمل أن يختلي بسوزانا قليلًا ويؤكّد لها بطريقةٍ ما حبَّه علّه يستبقيها على قيد الحياة. واتته الفرصة بعد الغداء حين وقفت وحدها تتأمّل حصانًا كميتًا مرشَّحًا للفوز بالسباق الأوّل. وقف بجانبها وانتبهت له لكنّها لم تُبْدِ اندهاشًا واكتفت بالقول أنّها كانت متيقّنةً من قدومه.

أسرعا الخطى بعيدًا عن ميدان السباق نحو منزلٍ على بعد بضعة مربّعات سكنية اتخذه أبوها مسْكنًا له خلال موسم السباق. تردّد تريستن لكنّها شجّعته مشيرةً إلى أنّه لا أحد سيفتقدها قبل مرور ساعةٍ على الأقلّ من الآن. من سوء حظّهما أنّ ألفرد قد أوصى أحدَ مساعديه في مجلس الشيوخ بمراقبة سوزانا مراقبةً لصيقةً بسبب مشكلاتها العقليّة. بعد أن رأى المساعدُ سوزانا تلجُ البيت مع رجلٍ غريب عجّل إلى المضمار ليُبلِغَ ألفرد.

أخذت سوزانا بيد تريستن إلى غرفة النوم الرئيسة تفاديًا لأيِّ تطفُّلٍ من الخدم. في البداية كانت هادئةً ومتطلِّبة، سألت تريستن أن يلتقيَها في باريس منتصفَ أكتوبر. رفض متعذِّرًا بأن الوقت لم يكن بعدُ مناسبا. فتحوّلت إلى حالٍ هستيريّةٍ ممّا جعله يقترح عليها الربيعَ القادم، تسوية لم تكن لترضى بأبعدَ منها. ثم ران صمتٌ فظيعٌ لا يطاق لَمَسَ في نهايته أمارات جنونِها الوشيك. تداركه بتقريبها منه مطمئنًا إيّاها أنّه لن يحلَّ مايو إلّا وهو جاهزٌ للرحيل. ارتعشت في حضنه وحالما رنا من فوق كتفها باغتهما ألفرد مقتحمًا الغرفة. أحسّت سوزانا بيدي تريستن تضغطان على ظهرها وسمعت صفْقَ الباب. خمّنت ما حدث وانشرح صدرها مفكِّرةً ها قد قُضِيَ الأمر وصار بوسعها أن

تذهب مع تريستن.

لم يزالوا ساكنين كمُجسَّماتٍ رخاميّةٍ في حديقة يسمعون تنفُّسَهم وضجّةَ الميدان البعيدة. وجّه ألفرد كلامَه لتريستن، «أريد أن أقتلك»، فأفلت تريستن نفسَه من سوزانا وناول ألفرد مسدَّسه. حدّق ألفرد في المسدّس ثمّ ضغط بالفوّهة على صدغ تريستن. نظر كلاهما إلى الآخر وسارت إليهما سوزانا كالمسرْنمَة. أدار ألفرد المسدّس إلى رأسه فأوقعه تريستن من يده. انهار ألفرد على الأرض نائحًا وانحنت عليه سوزانا وبكلامٍ باردٍ ومنفصلٍ عن الواقع قالت أنّ لبْسًا كبيرًا قد حصل، وأنّها ستبقى دائمًا معه. قام ألفرد وبادل تريستن نظرةً غريبةً فاقت أيَّ فهمٍ يمكن التعبير عنه، لكنّ نظرةَ ألفرد لم تحمل أدنى ضغينة. لحقت سوزانا بتريستن في البهو، قبّلته وضحكت قائلةً أنّهما ربما سيلتقيان يومًا ما في الجحيم، أو ربما في الجنّة، أيًّا كان ما يذهب الناس إليه إن ذهبوا إلى أيِّ مكان أصلًا.

في رحلة العودة ظلّ تريستن ساهيًا ساليًا بأفكاره وبالخمر، ضحك مرّةً في شيكاغو عندما انتقل من قطار إلى آخر ورأى في دكّان بيع الجرائد أنّ قانون فولستد قد أُلغي، وأنّ الحظر انتهى. في الديار انشغل بترويض الخيل وبالترفيه عن طفليه وبالصيد مع ون ستاب الذي تمتّع برشاقته الزائفة التي يتمتّع بها كلّ مسنّ يرفض أن يقبل أحكام العمر.

وإذ شارف سبتمبرُ على الانتهاء تلقّى تريستن برقيّةً من آشفيل، نورث كارولاينا، من ألفرد تقول: «لقد فزتَ بها. سأرسلها إليك...». خبَّ إلى تشوتيا وتأكّد من العنوان بالهاتف واتّضح له بصورةٍ مقلقةٍ أنّه عنوان مصحّة عقليّة. استعار شاحنة فورد وذهب إلى غريت فولز ليلقى القطار، متحيّرًا بعض الشيء إذ تخيّل كيف سيقضّي البقيّة من حياته المنكوبة معتنيًا بسوزانا رغم اعتقاده أنّ حالها قد تتحسّن أخيرًا في المزرعة. بلغ المحطّة شاعرًا بالبرد

في أحشائه لكن متجاهلًا لشعوره. دنا منه صديقٌ لألفرد يشتغل في السياسة، وقاده إلى عربة الأمتعة، سلّمه قائمةً بتعليمات الدفن بينما أنزل الحمّالُ التابوتَ المصقولَ المصنوعَ من خشب الورد.

هناك المزيد ليُقال. دُفنت سوزانا بجوار صمويل وتُو، والقارئُ، إن كان مؤمنًا إيمانَ الغَريرِ الجاهل، ربما توعّد الربَّ أو سبّه قائلًا فلتدعه وشأنه أو شيئًا من هذا القبيل. لم يفهم أحدٌ بعدُ مصادفةَ الارتباطِ بين الأقدار والتجديف على مقدّرها. عالمُ لاهوتٍ قديمٌ وحده ربما قد يتنبّأ بتريستن لاعنًا الربَّ والقدرَ قبل سنين طويلة في فرنسا عندما غلّف مع نويل قلبَ صمويل بالبَرافين. يرى العقل المعاصر مِحِقًّا أحداثًا كهذه عصيّةَ الاستقراء مخالِفةً للتوقّعات، لها صفة الماء في أبعدِ امتدادات المحيط الهادئ وأعمقِها.

في صبيحةِ أَحَدٍ دافئةٍ من منتصف أكتوبر أسابيعَ قليلةً بعد الدفن كان صمويل وثري يلعبان على أرجوحة الرواق ومهراهما مسرجان ومربوطان إلى السياج. صعدت إيزابيل بالإفطار إلى لودلو الذي كان يشعر ببعض التعب. كانت تقرأ له من رواية ملفيل Pierre, or the ambiguities. أحبَّ لودلو ملفيل بينما رأته إيزابيل كاتبًا مُمِلًّا.

في المطبخ جهّزت بت الغداء لنزهة تريستن مع طفليه. أصغت بعنايةٍ للحديث الدائر بين دِكر وتريستن. كانا يحاولان تدبُّرَ مخرجٍ لهما من مأزقٍ مستحيل: حقيقة أنّ الإيرلنديَّ قد يرجع طلبًا للثأر. تمطّى تريستن ومشى إلى بِت وسألها رأيَها. قالت بأنّ الطفلين هما مدارُ اهتمامهم جميعًا وأنّ أهمَّ شيءٍ في نظرها أن يكونا آمنَين. دخلت ثري وتعلّقت بذراع أبيها. قبّلها وقال عشر دقائقَ فقط فركضت إلى صمويل عبر الصالون صارخةً: «عشر دقائق».

اقترح دِكر كُوبَا حيث لتريستن أرضٌ صغيرةٌ اشتراها قبل سنوات وكانت الآن تحت إدارة الكوبيّين اللذين كانا في طاقم سفينته وقد شَحَنَا في

الربيع الماضي فرسين أصيلتين جاهزتين للتخصيب. أفصح تريستن عن قلقه على تعليم الأطفال فردّ دِكر بأنّ حياةَ أبيهم ألزمُ من التعليم. تجمّدت بِت، إذ سمعت السيّارة، لكنّ صمويل هتف بأنّ الشرطة هنا فاستراحت. لحق دِكر بتريستن إلى الرواق وتوقّف جنبَ حفيديه بينما اقترب تريستن من الشرطيَّين الواقفَين جوارَ سيّارة فورد كوبيه.

كان تريستن مسترخيًا وأقربَ إلى الضجر حين أومأ برأسه محيِّيًا لكنّ قلبه قفز من أضلاعه حالما رأى أنّ أحدَهما لم يكن في الواقع غيرَ الإيرلنديِّ الأنيقِ من سان فرانسيسكو، وأنّ الآخر لصٌّ بدا أحمقَ في ثياب شرطي. تفحّصوا بعضَهم البعضَ للحظة.

«لقد فقدتُ أخوَيَّ. يستحسن أن ننهي هذه المسألة»، قال الرجل.

ألقى تريستن نظرةً على الرواق حيث وقف دِكر جنبَ صمويل وثري وون ستاب. علِم أنّه بلغ النهاية وأنّ قلبه موجوعٌ على طفليه منتصبَين تحت ضياء الشمس في الرواق.

«هل تمانع إن ذهبتُ معك، لا أريد لطفليّ أن يشهدا مقتلي»، قال تريستن.

وافق الإيرلنديُّ بإيماءةٍ ثم جفل من منظر لودلو يتهادى مترنِّحًا على العشب البنيِّ اليابس حافيًا في قميص نوم ومشتملًا بالمعطف الجاموسيِّ الكبير. أشار تريستن بأدبٍ إلى أنّ هذا أبوه لكنّ لودلو هزّ رأسَه الأشيبَ ممسكًا بلوحه وقد كتب عليه: «ما معنى هذا؟»

تكلّم الإيرلنديُّ بهدوء معتذرًا لكنّه أضاف أنّ على تريستن أن يدفع الثمن بقضاء مدّة طويلةٍ في السجن. انتفض لودلو، كان جسده يختلج كأنَّ صقرًا يغطّي فريسته. رفع بندقيّةَ (بردي) عيار12 – من جانب ساقه عبر فتحةٍ في المعطف ونسف الإيرلنديَّين نسفًا إلى الآخرة.

خاتمة

ذلك الصباح من أكتوبر كان نهايةَ قصة تريستن بالنسبة إلى مرامينا. في أعقاب الواقعة تهدّم بنيانُ لودلو لكنّ الحياة انتعشت فيه على العشاء. عانق تريستن طفليه اللذين شرحت لهما بِت لاحقًا أنّ الأشرار قد جاؤوا لاغتيال أبيهم. إيزابيل دخلت بهدوء في حالة هستيريّة. تولّى دِكر وابنُ كري والنرويجيُّ دفنَ الجثتَين وفي الليل رمى ابنُ كري بالسيّارة في بركةٍ عميقةٍ أعلى نهر ميسوري. لكنّ ون ستاب هو من تجنَّن قبل أن يتلاشى الصدى الكاملُ للطلقات. رقص حول الجثّتين وغنّى بصوتٍ مترنِّمٍ متبخترًا بجذعه المتقوّس، ثمّ انحنى على لودلو المنهارِ واحتضنه بذراعيه. عرف تريستن أنّه لولا أنّهما قتيلا لودلو لطفِق ون ستاب في غمرة النشوة يسلخ فروة رأسيهما.

ثم كان أن أخذ تريستن الطفلين إلى كوبا على متن السفينة الشراعيّة ولم يغادرها إلا بعد ثلاثةٍ وعشرين عامًا إبّان بدايات الثورة قاصدًا مزرعةً لثري وزوجِها قرب مكليود في ألبرتا. إذا ما كنتَ قربَ تشوتيا وهبط بك طريقُ رامشورن إلى درب مزرعة، يملكها الآن ابن ألفرد من زواجه الثاني، فلن يؤذنَ لك بالدخول. إنّها الآن منشأةٌ تشغيليّةٌ حديثةٌ ومُنتجة، لكن خلفها في الوادي تثوي قبورٌ تعني شيئًا لقلّةٍ من الناس على الأرض: قبورُ صمويل، تُو، سوزانا، وأبعدَ بقليلٍ لودلو مدفونًا بين صديقيه الحميمين، ون ستاب وإيزابيل؛ وعلى مسافةٍ قصيرةٍ منهم دِكر وبِت. ودائمًا منفردًا، منفصلًا،

منعزلًا بصورةٍ ما، يُدفَنُ تريستن في أعالي ألبرتا.

الرجل الذي تخلّى عن اسمه

الفصل 1

أُولِع نوردستِرم بالرقصِ وحيدًا. رأى أن لا غبارَ على صحّته العقليّة وأنّ رقصَه الليليّ بديلٌ لرتابة التمرينات الرياضيّة. لقد وبّخ نفسه مؤخّرًا على العيش بمثاليّةٍ وفقَ كلِّ فرضيّاته المستهلكةِ عن الحياة. الرقصُ كان شيئًا جديدًا وجريئًا وفيه لمحةٌ من توتّرٍ غيبيّ. في الرابعة والثلاثين كانت بنيته لائقةً لكنّها ليست رائعة، رغم أنّه منذ عهدٍ قريب شعر بنوعٍ من المرونة، بضبابيّةٍ في محيط جسده. اعتاد بعد تنظيفِ أطباقِ عشاءٍ متأخِّرٍ أن يجعل الأضواءَ خافتةً في غرفة الدرس ويشغّلَ على الإستريو زهاءَ ساعةٍ من الموسيقا مع أنّه بات كثيرًا ما يزيدها إلى ساعتين؛ كانت التسجيلات منتقاةً حسبَ مزاجه وربما اشتملت أمسيةٌ ما على منوّعات ما بين مِرل هاغارد، ألبوم Pearl لجوبلين، ذا بيتش بويز، باليه طقوس الربيع لسترافينسكي، أوتيس رِدينغ، وفرقة غريتفُل ديد. المغزى كان أن يتحرّك في نسقٍ مستمرّ، أن يتصبّب عرقًا وأن يشعر بالجسد المتمنّع سيّالًا ورشيقًا.

حقيقةُ الأمر أنّ نوردستِرم لم يكن راقصًا جيّدًا جدًّا لكن حينما ترقص وحيدًا، فمن ترى يهتمّ؟

بدءًا بصباه في ويسكانسن كان سبّاحًا ماهرًا، صيّادَ سمكٍ وقنّاصَ طيورٍ لا بأسَ به، لاعبَ كرةِ سلّةٍ لا بأس به، ظهيرًا لا بأسَ به، لاعبَ غولفٍ لا بأسَ به ولاعبَ تنسٍ لا بأسَ به. السباحة وحدها سكنت أحلامَه، كلُّ الرياضات الأخرى أُهمِلت. ربّما السباحةُ كانت رقصًا في الماء، فكّرَ. أن تسبح

تحت زنابق الماء رائيًا أعوادَها الخضراءَ الرفيعةَ تتمايل إذ تمرُّ بها، أن تسبح تحت أخشابٍ طافيةٍ عابرًا بأسرابٍ من سمك الشمس ذي الخياشيم الزرقاء، أن تسبح خلال مفارشَ من قصب فائتًا أفاعيَ ماءٍ ملتويةٍ وسلاحفَ صغيرة، أن تسبح في بحيراتٍ صغيرة، وبحيراتٍ كبيرة، في بحيرة ميشيغن، أن تسبح في بركِ مزارعَ صغيرة، في جداول، في أنهار، في أنهارٍ عظيمة حيث ينجرف المرء بسهولةٍ مع التيّار، أن تسبح ليلًا وحيدًا عاريًا في التاسعة عشرة من العمر وقد غلبك الشعور بالوحدة حتى كدت تختنق بكلِّ لحظة يقظة، وقد تركت البيت لأسبابٍ هرمونيّةٍ أكثر منها منطقيّة؛ أسبابٍ متعلّقةٍ بالمستقبل التجريديّ وبمكان المرء المشكوك فيه في عالم المستقبل، عبثٌ سخيفٌ لا يخفّف من وطأته أنّ طيفًا واسعًا من الناس مشتركون فيه.

كان صدفةً أوّلُ إيذانٍ بالرقص في حياته. لاحظ خلال سنته الثانية عندما كان طالبًا بمنحةٍ دراسيّةٍ في جامعة ويسكانسن أنّه لن يستطيع بأيّة حال أن يصل من قاعة المحاضرة إلى صالة الرياضة المخصّصة للرجال في الوقت المحدّد بعشر دقائق. لكن في العام 1956 كانت أربعةُ حصصٍ في التربية البدنية متطلَّبًا أساسيًّا. عند التسجيل اقترب من مدرّب المضمار الذي تذكّر نوردسترم من فصل الخريف يومَ تصدّر مجموعتَه في سباق نصف الميل ورمي الجلّة، حَدَثٌ غريبٌ أبرز نوردسترم وأبعده وإن مؤقتًا عن كمٍّ مجهولٍ من طلاب السنة الثانية. اقترح مدرّب المضمار أن يركض بين القاعات كي يدرك مواعيد الحصص الرياضيّة، اقتراحٌ غير واقعيٌّ نوعًا ما في ضوء كلِّ الثلج المتراكم على أرصفة الحرم الجامعيّ وممرّاته. امرأةٌ في منتصف العمر مفتولةُ العضلات قاعدةٌ بجانب مدرّب المضمار خلف طاولة التسجيل نصحت نوردسترم أن يسجّل في الرقص الحديث، مادّةٌ في التربية البدنيّة كانت تُعقَد في صالة النساء وعلى بعد خطوات فقط من مبنى القاعات الدراسيّة. سجّل

نوردسترم بالفعل ومشى مبتعدًا بخيالاتٍ متفرّقةٍ عن البراعة في رقصة الفالس وخطوة-الثعلب والسامبا والرومبا. كان متخصّصًا في الاقتصاد، يعمل ثلاثين ساعةً في الأسبوع في مكتبة الإحصاء ولم يكن لديه وقتٌ للحياة الاجتماعية، فخطر له أنّ هذا الرقص الإلزاميَّ سيفتح أمامه أفقًا رومانسيًّا جديدًا.

الصدمة التي قاربت في تأثيرها الشلل كانت أنّ الصفَّ يُدرِّس الرقص الحديث فعلًا على طريقة مارثا غراهام. كان الرجلَ الوحيد بين ثلاثين شابّة في بدل رقص (ليتارد) وكان في أذنيه طنينٌ وفي فمه جفافٌ من الخجل. لقد تربّى على احتمال الأشياء حتى النهاية وهذا، إضافةً إلى عدم رغبته في الاعتراف بغبائه، جعله يبقى مسجّلًا في المادّة. لكنّ الشللَ بقي معه وباستثناء تمرينات الإحماء الروتينيّة لم يستطع الحركة. خشي من أنّ الفتياتِ، اللواتي كنّ بوضوحٍ غربَ-أوسطيّات[1]، بدينات في الغالب وبقوامٍ غير متناسق، قد يحسبنه «شاذًّا»، الكلمة الأكثر شيوعًا في السكن الجامعيّ. بعد بضعة أسابيع امتلك الحدّ الأدنى من الفطنة كي يغيّر موقعه المتأخّر حتى صار مباشرةً خلف أجمل فتاةٍ في الصفّ. كان اسمها لورا وطالما رآها نوردسترم في المكتبة تدرس مع صديقها، نجم كرةِ سلّةٍ نحيفٍ وطويل. رشاقتها في التمرينات رمت بنوردسترم في غَيبْة اشتهاءٍ منحت للصفّ جوًّا حالمًا. كان يلبس خصّيصًا حمّالةَ ذَكَرٍ (جوكستراب) ضيّقة كي يخفي آثار أوضاعها الحركيّة فيه، لاسيّما انثناءة ردفيها المشدودين وطريقة جثوّها وتمطّيها كأجمل كلبةٍ على وجه الأرض وأنفه ليس أبعد من أقدام قليلة خلفها. لقد كلّمها مرّةً واحدةً فقط بعد انتهاء الدرس ذاتَ يومٍ كي يخبرَها أنّ عليها ألّا تلوكَ مفاصلَ أصابعها. نظرت إليه ببساطةٍ نظرةَ المنشغل وولّت مدبرة.

1- من وسط غرب الولايات المتحدة.

وإذ انزلق الفصل الشتويّ نحو الربيع صار الصفُّ أكثر إيلامًا من ذي قبل لأنّ الدفءَ الجديد أذِن للفتيات بأن يرتدين بدلات الرقص دون طِماقات. رأى نوردسترم أنّ ساقَيْ لورا بزّتا كلَّ ساقين رآهما في دعايات ملابس السباحة في المجلّات. أشعله غضبًا أنّ لاعب السلة ربما قطع معها «المشوارَ كلَّه»[1] كما كانوا يقولون في تلك الأيام. لم يحدث قطّ أن التفتت لترى العينين تتلظّيان على قفاها. كان نوردسترم متعثّرًا في أداء واجباته تعثُّرًا يثير الشفقة ما قد يعني فصلًا إضافيًّا في التربية البدنية. كان يائسًا. في ظهيرة يومٍ حارٍّ آخرَ مايو وقتَ الاختبار النهائيّ- رقصٌ منفردٌ لأربعِ دقائق إلى ستٍّ من ابتكار الطالب- عبَّ من زجاجة شنابس أعطاها له والده في إجازة عيد الفصح تهدئةً لأعصابه. لقد سهر الليل كلّه يعدّ لاختبار الاقتصاد بمساعدة كبسولة (دِكسدرين) بيضاءَ-خضراءَ موقوتة. شعر أنّ جميع اختباراته كانت جيّدة ولم يبقَ غيرُ اختبار الرقص قبل أن يحمل حقيبته إلى المحطّة ويركب الحافلة من ماديسن إلى رينلاندر في شمال ويسكانسن لقضاء الصيف. بوصوله إلى الصالةِ أحسَّ بمثل التفتّح الرطبِ والعفنِ لأزهار الليلك التي لحظها على طول الطريق المحاذية للنهر. ذكّرته الأزهار برائحة الصالة الرياضيّة ولخمرة الشنابس وخزٌّ خفيفٌ في دماغه الذي بدا أنّه يتعرّق مثلما يتعرّق بدنُه. تساءل لمَ أمكنه الرقص في خياله بينما ظلّ جسده متصلّبًا، يكاد يتجمّد في وعي ذاته بافتقاره الشديد إلى الرشاقة.

في الصالة أربع فتياتٍ فقط لمّا يتممن الاختبار المنفرد. استندت لورا إلى إطار نافذة في ظلِّ تيّار شعاعٍ طويلٍ منتظرةً دورها. انتقى نوردسترم النافذة المجاورة واختلس نظرةً إليها لكنّه أشاح بوجهه لحظةَ رآها محدّقةً فيه. شاهد فتاة ممتلئةً تخبط في المكان وتتثنّى على رباعيّة جاز حديثة وارتسمت

1- كنايةٌ عن ممارسة الجنس.

على وجهه ابتسامةٌ بلهاء في قلق. وبابتسامةٍ اقتربت منه المعلّمة وقالت أنّها تريده أن يشاهد الأداء القادم من كثب وأن يتجاوب معه فقط في رقصته. ابتلع ريقه بصعوبةٍ وأومأ برأسه إذ شغّلت لورا معزوفةً لديبوسي وشرعت في الرقص بجماليّةٍ حزينةٍ لا كفاء لها ولا عزاء. أحسّ بغصّة تصعد من تحت عظمة القصّ وتسبح باتجاه حلقه، ثم ببداية انتصاب لا مفرّ منه أدخل على إثره يده في جيبه وعصره بألم كي يُذهبَه. وما إن انتهت من رقصتها حتى كان هو ماشيًا على القمر بخطىً ناعمة.

في الحقيقة بالكاد انتبه للمعلّمة وهي تلفُّ عصابةً حول عينيه. كانت لورا قد قامت ببطءٍ من حيث نامت على بطنها مسترخيةً تحاكي المهات، وبدلةُ ليتارد ناعمةٌ، رطبةٌ، مشدودةٌ بين ساقيها فاصلةً أليتيها وعليهما لمعةٌ من عرق. ثم فجأةً لم يعد يبصر شيئًا وقالت المعلّمة بأنّ هذا سيريحه. تناهى إليه من فوق أنفاسه باليه الحكيم الصيني العجيب لبارتوك وجُنّ راقصًا مع الموسيقا المجنونة.

* * *

بعد ثلاثة وعشرين عامًا في شقّة كبيرة في بروكلين، ماساتشوستس، ما زال اختبار الرقص ذاك هو الحدثَ الاستثنائيَّ بامتياز في حياته. لقد استغرق تلك المدّة الطويلة كي يرقص وحيدًا من جديد. أزالت عنه المعلّمة عصابةَ العينين، ضحكت وقبّلت جبينه. رأى لورا تقف إلى جانب الباب ثم بغتةً تغادر. دفن وجهه في المنشفة، عائدًا بحريّةٍ إلى شعوره الأصيل بالإحراج. سَكِر مع رفقة السكن وفوّت موعد حافلته، بالكاد صحا ليدرك الرحلةَ في اليوم التالي. انهمك بالتفكير طيلة الصيف أثناء عمله في شركة أبيه الصغيرة المتخصّصة في بناء أكواخ سياحيّة لزائري شمال ويسكانسن كلّ صيف. كان نوردسترم من عائلة إسكندنافيّةٍ نشأت على الادّخار واشتغل في إجازات

الصيف منذ كان في الثانية عشرة، مدخّرا للكليّة بزعمه، لكنه حقيقةً لم يكن يسعى لغير «الادّخار» بحكم عادة التقتير الموروثة غالبًا عن لوثريين من الشمال قد كبّلتهم الثلوج. بينما التهى الآخرون بلعب السلة تعلّم هو صنعة النجارة، وطريقة خلط المِلاط، وفي النهاية طريقة صفّ الطوب والحجر. وفي تلك الصيفيّة بالتحديد تطوّع في كلّ الأعمال الشاقّة: حفرِ الآبار، صبِّ الأساسات، إنزالِ الطوب الإسمنتيّ والملاط وحمل مربّعات السقف صعودًا على السلّم. كان يحاول تفريغ هوسه بالفتاة في المهن اليدويّة لكنّه في السر تخيّل شجارًا مع لاعب السلة يوسعه فيه ضربًا. خجِل إذ وصلت علاماته وقد أخذ 'أ' في الرقص الحديث ما جعل والده يتسلّى بمداعبته قائلًا: «يجدر بك أن تشتغل رقّاصة».

اختصارًا لحكايتنا، مضت سنةٌ قبل أن يتواصل نوردسترم مع لورا مجدّدًا. صدقًا، كان يعوزه الخيال. يطالع اسمها ورقمها في الدليل الطلّابيّ، يتنهّد وأحيانًا يذهب مع فتاةٍ من مسقط رأسه تملك على الأقلّ ذوقًا عصريًّا متحرّرًا يشجّعه على الخروج. لكنّها من نوعيّةِ فتياتِ فرقِ التشجيعِ ولقد قدّر غيرَ مرّةٍ وهو يراوح مكانَه فوقها أنّ ممارسة الجنس هذه شكلٌ من أشكال الاستمناء المقبولة. عقله كان في مكانٍ آخر. مرّةً رأى لورا في المدرّج المقابل في مباراة كرة سلة فاضطرّ إلى المغادرة، ما أعمقَ ما خسف مرآها بقلبه. ثم في منتصف مايو، في حانةٍ مألوفةٍ لصنوف نوادي الطالبات وروابط الأخويات حيث لم يأوِ إليها في نهار جمعة إلّا ليحتمي من المطر شعُر، من دون كلِّ الأشياء، بإصبعٍ رطبةٍ في أذنه إذ وقف على البار.

«لم تكلّمني مطلقًا، حسِبتُك ستكلّمني،» قالت لورا.

ذُهل وشربا لبعض الوقت وتنادما مع «أختين» لها، تغلّب نوردسترم سريعًا على خجله؛ ثم تجاوزه بأسرع حتى ممّا كان يتصوّر حين انضمّت

إليهم مجموعةٌ من الرياضيّين. تصارعوا في تحدٍّ بالأيدي ليروا من ستُدار على حسابه أباريقُ الجعّة وأدهشهم أنّ نوردسترم غلبهم جميعًا ولا غرو فقد نشأ صغيرًا على الرياضة وأعمال البناء. ثم راهنوا على نوردسترم ضدّ كل القادمين حتى عادله لاعبُ كرةِ قدمٍ أمريكيّة من بولندا ونهضت لورا حينئذ وقالت أنّ عليها أن تعود إلى البيت كي تستعدّ لموعدها الغراميّ. ذهل نودسترم مرّة أخرى ولحقها إلى الباب. لفّت ذراعًا حوله وقالت أنّها مشغولةٌ نهايةَ الأسبوع، ربما ما عدا بعد ظهر الأحد، وأنها ستمرّ به عند الثالثة.

بعد سنوات تفكّر نوردسترم في درجة تأثير الصدفة على الهوى والغرام مثلما تتفكّر كلُّ المخلوقات الذكيّة. ماذا لو لم تمطر السماء في تلك الجمعة؟ يا لَها فكرةً حائرة ومشوَّشة: انتهى به الأمر متزوِّجًا لورا لأنّها أمطرت نهارَ جمعةٍ في مايو في ماديسن، ويسكانسن. المطر أدّى مباشرةً في خطواتٍ محدّدة إلى ظهر الأحد الذي ابتدأ بمطرٍ خفيف ثمّ به راكبًا سيّارتها منطلقةً في الريف ومعهما نصف غالون من نبيذ كريباري الأحمر. ثم صار المطر رذاذًا والجوّ دافئًا ورطبًا. مشيا عبر غابة محميّة في حقل من القمح الشتويّ الأخضر البالغ مستوى الركبة. على الطرف النائي من الحقل فرش معطفَه المطريَّ استجابةً لإلحاحها وقعدا يشربان النبيذ. كانت ترتدي حذاءً دون كعب، لا جوارب، وتنّورةً بنيّة من قماش بوبلين وبلوزةً بيضاء دون أكمام. جالسًا هناك بينما كانت هي تضحك وتتحدّث انتابه لأوّل مرّةٍ في حياته شعورٌ غامرٌ بأنّه محظوظ. ساقاها كانتا بنيَّتَين من قضائها إجازةَ الربيع في فلوريدا. رنت ببصرها عاليًا تتابع مُرْزَةَ شمالٍ[1] مجنِّحة. دنا ببصره يتابع ساقيها والتنّورة تنزلق مرتفعةً بعضَ الشيء إذ استلقت على ظهرها وعيناها تحوّمان مع المُرزَةِ الحائمة حول

1- مُرزَة الشمال أو طائر الهار الشماليّ أو صقر الشمال السلّاب، طائر جارح من فصيلة البازيّات يتكاثر في نصف الأرض الشماليّ في كندا وأقصى شمال أمريكا.

زوايا الحقل الأربع. تسمّر في مكانه وأراد أن يستلقي هناك إلى أن ينموَ القمحُ الأخضر من خلاله.

«أنت تنظر إلى أعلى ساقيّ»، قالت

«كلّا».

«إن صدقتني القولَ فلك أن تبوسَهما».

«بلى كنت أنظر».

باس ساقيها حتى لم يعد على أحدٍ منهما قطعةُ ملابس. والمُرزَة التي حطّت الآن على شجرةٍ في الغابة أمكنها أن ترى شبهَ دائرةٍ من القمح الأخضر الممهَّد وجسدَين متداخلَين في بعضهما إلى آخر الظهر حينما أمطرت من جديد. حاول الرجل أن يغطّي الفتاةَ بالمعطف لكنّها قامت، رقصت رقصةً وشربت مزيدًا من النبيذ.

إنّ أحداثًا بسيطةً كهذه يعيش بها العشّاق زمنًا طويلًا. نادرًا ما يدير أيٌّ منهم ظهرَه لأفضل شيءٍ حدث له.

بذا ذهبت إلى كاليفورنيا لتمضيَ الصيف واستعادها بسيّارته في الخريف لأجل العام الدراسي الأخير بعد مئة رسالة متبادلة. أزهر ونوّر إلى الغاية التي لن يبلغ مثلها ربما أبدًا وتزوّجا على ابتهاجِ أبويه وامتعاضِ أبويها الطموحين بعد التخرّج بأسبوع. انتقلا إلى كاليفورنيا حيث عمِلت لصالح شركةٍ صغيرة تنتج أفلامًا وثائقيّةً لمؤسسات وهيئات وعَمِل هو في شركة نفطٍ كبيرة. عاشا في منزل بطابقين في وستوود وبعد سنة أنجبت لورا بنتًا، وعادت لمزاولة العمل بعد إجازةِ سنة. إنّه الغموض الجنسيّ ما جعل زواجهما يدوم ثماني عشرة سنة. تظل الكلمةُ «غموض» مناسبة رغم ابتذالها في وسائل الإعلام، إذ يحمّلونها التعبيرَ عن رغباتنا في تحطيم هذه النغمةِ الرخيمةِ الأخيرةِ في

حيواتنا. (في طريق عودتهما من كاليفورنيا بعد الصيف قبل سنة تخرّجهما مارسا الجنسَ في السيارة في وضح النهار، وواقفَين على سبيل الابتكار في حمّامات محطة، ومثلَ كلبين بين أشجارٍ دائمة الخضرة على جانب الطريق وأوراقُ الصنوبر لاصقةٌ بالركب والأكفّ، وتطارحا الغرام على طاولةِ نزهةٍ في نورث داكوتا، وتضاجعا على أرضيّة غرفةٍ في نُزُلٍ رخيص، وداخلَ كيسِ نومٍ في ضبابٍ باردٍ قرب برينرد، مينسوتا، وتماجنا في قاعة سينما تعرض فيلم (شرق عدن) في لاكروس، ويسكانسن:

أترغب في مضاجعة جولي هاريس؟

لا أدري. ما خطرت لي الفكرةُ مطلقًا.

هل ترغبين في مضاجعة جيمس دين؟

أكيد. لا تكن سخيفًا. لولا أنّه مات مؤخّرًا).

عاشا زواجا بائسًا لسنوات قبل أن ينتهي ما بينهما بالتّراضي. لقد شكّ بأنّ لديها عشيقًا وتبيّن أنّ العشيقَ صديقٌ جيّدٌ للعائلة، مارتن غولد. نجح كلٌّ من نوردسترم ولورا في مجاله ولكنّهما لم ينجحا مطلقًا في البقاء معا. كانت دائمة الترحال وفاءً بالتزامات وظيفتها مديرةَ إنتاج وصنع هو ثروةً عظيمةً من عمله في النفط. نقطة الالتقاء الوحيدة كانت ابنتَهما سونيا، لم تزل طفلةً هزيلةً حتى صيفِ سنتها الثانية عشرة حين بين ليلةٍ وضحاها أينعت صحّةً وشبابًا. لكنّ هذا قد أزال في ما يبدو همَّهما المشترك فتواريا كلٌّ في مهنته. باتت لورا أكثرَ أهميَّةً لشركتها التي دخلت بالتدريج سوقَ التلفاز ببرامجَ خاصّة وأفلامٍ مصنوعة للقنوات، أغلبها مصوَّر في مواقعَ حقيقيّة. تملّكت نوردسترم غيرةٌ ساخطةٌ من أضواء عملها الساحرة مقارنةً بوقار قاعة الاجتماعات الذي تصطبغ به حياته المهنيّة. رجال الأعمال في المجمل بؤساءُ

مناكيدُ مثل أيِّ أحدٍ آخر وقد كانت لنوردستروم تلك القوّة النادرة عينُها التي للمنضبطِ، الذكيِّ، الوسيمِ، الصموتِ فليس يفشي البتَّةَ سرًّا: راسخٌ، ليس بالشخص اللزِج، مع تلك القدرة على الاحتمال التي أعجبت حماه عندما أبصر الثمرة- منزل فخم في بفرلي غلن.

ربما استمرّا على هذا المنوال إلى أجلٍ غير مسمّى لولا أنّ ابنتَهما في ليلةٍ على العشاء، بالحدّة المخيفة لمراهقةٍ في السادسة عشرة، أخبرتهما بأنّهما سمكتان باردتان[1]. ضحكت لورا لكنّ نوردستروم جُرِح جُرحًا عميقًا: أن تعمل جاهدًا ست عشرة سنة كي تسمِّيك ابنتك سمكةً باردة. لكنّه كان فَطِنًا بما يكفي ليدركَ أنّه كان سمكةً باردةً بعض الشيء، ما يُعرف في عالم الأعمال بـ «الرجل الفأس»[2]. حتى هذه اللحظة تحديدًا لم يسبق للفكرة أن أزعجته على الإطلاق.

تلك الليلة بعد تكدير العشاء كسر عاداتِ شرابه الصارمةَ التي قيّدته بكأسين من الويسكي بالصودا بعد العمل وقليلٍ من النبيذ مع العشاء. ألحّ في شرب البراندي وحاول أن يتكلّم بصورةٍ حميمةٍ أكثرَ مع ابنته. كانت متفهِّمةً مع أنّه فسّر ذلك لاحقًا بأنّها إنّما كانت تلاطفه. كان يصدق عليه كثيرًا وصفُ «أب نمطيّ» فهو لم يكن يعرف في الحقيقة ابنتَه وهي، شأنَ أيِّ طفل، لعبت اللعبةَ الصوريّةَ نفسَها مع أنّها لعبةٌ متقلّبة. بعد حديثهما لاحظ أنّه دخّن نصفَ دزينةٍ متعاقبةٍ من السجائر ووعد ابنته بسيارة بي إم دبليو إذا تخرّجت في الكلية شريطةَ أن تمتنع عن التدخين.

ثمّ تحدّث إلى لورا عن الانتقال إلى وظيفةٍ أقلَّ تطلُّبًا، أو إلى شيءٍ مختلفٍ

---

1 تعبير شائع عن قسوة القلب وبرودة المشاعر.

2 من توكَل إليه عادةً مهمّة الإشراف على تقليص حجم العاملين في شركة بما يتضمّنه ذلك من تسريح الموظفين وإبلاغهم بشكلٍ مباشرٍ بالاستغناء عن خدماتهم.

على أيّة حال. لكنّها كانت مشغولةً تتهيّأ للخروج مع السائق. كان آخرَ الليل موعدُ إقلاعها إلى نيويورك في رحلة عملٍ تمتدّ ليومين. وقفا في المطبخ يتحدّثان وسأل هل لهما بنكاحٍ سريع. قالت لا سيفسد ذلك مظهري، لكنّها عرضت عليه جنسًا فمويًّا. قعد في ركن الإفطار حاصلًا في النهاية على نصفِ جنسٍ فمويٍّ لأنّ السائق رنّ جرس الباب. قبّلت لورا جبينَه وغادرت، بالكاد نال منها نصفَ شهوته، لم يمانع، رغم كون نوردسترم عشيقًا جيّدًا بما يكفي ليحبِّذَ أن يتمّا ما ابتدآه من فعل الحبّ. الآن شعر بأنّه وحيدٌ تمامًا وبأنّ هلعًا بدأ يدبّ في روحه دبيبًا سيبقى معه لسنين. فكّرَ، «ماذا لو أنّ ما قمتُ به حياتي كلّها كان خطأً كلَّه؟» جلس ليلتَه في غرفة الدرس يقلِّب الفكرةَ في رأسه. عند الفجر قرّر أنّه أراد أن يفرَّ إلى العالم لا أن يفرَّ منه: لم يكن هناك شيءٌ محدّدٌ في حياته منفِّرٌ أو غيرُ مرغوب، ليس سوى افتقارٍ بعينه إلى الكمّ والكيف؛ خشي من أن يغدوَ به الحلمُ إلى الموت، على غرار غديرٍ في مرجٍ يرتمي دائخًا في أحضان نهرٍ عظيمٍ خلف نطاق الأشجار.

ليس أشقَّ في الحياة على امرئٍ يتمنّى أن يتغيّر من ضآلة الأمل في التغيّر. وما لم يكن المرء في الجوهر كائنًا سليمَ العقل فإنّ هذا قد يقوده إلى السّعار، أو ربما إلى الجنون. علِم نوردسترم أنّ التجارة بالأساس قائمةٌ على شراء الرخيصِ أو صنعِه وبيعِه نفيسًا غاليًا. قبل أن يأخذ 101 اقتصاد في جامعة ويسكانسن بوقتٍ طويل، كان منجذبًا إلى الجمال البسيط للرأسمالية: في صباه كان والده يبني ثلاثة أكواخ بخمسة آلاف، ويبيعها بثمانية؛ بعد سنوات كانت الأكواخُ تُبنَى بخمسة عشر ألفًا وتباع باثنين وعشرين، لكن برغم هذا التباين في السعر عبر السنين فإنّه ليس بمستغرب أن تتساوى القيمة الفعليّة إذا ما أُخذ في الحسبان زيادة أسعار المواد واليد العاملة والتضخّم. لم يكن والده رغم إلحاح نوردسترم يطمح إلى توسيع العمل أو زيادته، مثلًا عشرة

أكواخ في السنة. في تجارة النفط كانت المسألة أعقدَ بقليل لكون المكاسب الكبيرة تأتي من تجاوز الأنظمة والبنى الضريبيّة بذكاء والتحايلِ على العرب (كانت تسليته أن يرى الوضع منقلبًا على نفسه). لقد كان الأمرُ تقريبًا لعبةَ سادةٍ من داخل الهيكل الأساس.

لكنّ كلَّ شيءٍ قد فسد خلال تلك الليلة الطويلة في غرفة الدرس، لا يهمّ أنّ السمّ، مثل التغييرات التي تمنّى نوردسترم أن يُحدِثَها في حياته، كان بطيئًا في مجيئه. بين السابعة والثلاثين من عمره والأربعين بدأ يرتاد عددًا من المسرحيّات وحفلات العروض مع زوجته وملأته غيرةٌ فضوليّةٌ تجاه التباسط والألفة بين المشتغلين في السينما والمسرح، حتى وإن كانت شهوة الربح طاغيةً بينهم طغيانَها في تجارة النفط. كانت عوالمهم تنطوي على حسٍّ باللهو والمرح افتقده في عالمه ولقد نسي نوردسترم كيف يلهو ويمرح، في الحقيقة لم يتعلّم ذلك قطّ. لذا راح واشترى قاربًا شراعيًّا وتبدّى أن لا وجهةَ ليبحرَ إليها من شاطئ نيوبورت. لعِب التنس مع ابنته لعبًا محمومًا وبنى ملعبًا غاليًا خلف منزلهم، لكنّ كاحلها انكسر في صن فالي ولم يلعبا بعدها مطلقا. جرّب التزلّجَ في آسبن؛ حاول رمايةَ الأطباق الطائرة؛ ذهب في رحلة لصيد السمّان مع أصدقاء النفط في جزيرةٍ قرب كوربوس كريستي ونجا من لدغةٍ وشيكةٍ لأفعى مجلجلة. حادث الأفعى المجلجلة كان حقيقيًّا إلى الحدِّ الذي استثار فيه بصورةٍ خفيّةٍ مكامنَ الشغفِ لأشهر؛ مدّ يده تحت شجيرات المسكيت الشائكة ليستخرجَ طائر سمّان ميّت، سمِع الصوتَ الغريب لكنَّ ردّة فعله كانت بطيئةً إذ لم يسمع مثلَه من قبل، ثمّ إذا بالأفعى مندفعةٌ نحوه بفمها المفتوح بالكاد مسّت طرفَ كمِّ قميصه. غيّر قَصّةَ شعره. اشترى لنفسه خاتمَ فضّةٍ في كابو سان لوكاس حيث ذهب لصيد سمك المرلين الضخم. اشترى كاميرا. بدأ قراءةَ سيرٍ ذاتيّة وبعضِ روايات. ذاتَ مساءٍ سخيفٍ في

غيبة لورا لفّت له ابنته حشيشةً وضحك حتى أوجعته معدتُه، ثمّ بات ضيّق النفْس وعلى شيءٍ من الخوف. نَاكَ سكرتيرتَه وشعر بالحزن. اشترى سيّارةً رياضيّةً لم يقدها سوى ابنتِه وزوجتِه. اشترى لوحةً ثمينةً لفتاةٍ جميلةٍ تغسل قدميها. تعلَّم فنون الطبخ بعد استقالته من عمله المرهق في النفط ليتولّى وظيفةً أيسرَ نائبَ رئيس شركةٍ كبيرة لتوزيع الكتب. تعلّم المطبخَ الصينيّ والفرنسيّ والإيطاليّ والمكسيكيّ. استأجر شاحنةً صغيرةً وسافر شمالًا متنقّلًا بين كروم النبيذ حول سان فرانسيسكو، ذاق أنواعًا كثيرةً وعاد وقد ملأ الشاحنة بأطيبها. زار، بالتوصية، أغلى بيوت الدعارة سعرًا، وأندرَها نوعًا في سان فرانسيسكو ليحقِّق رغبته في أن يضمَّه سريرٌ واحدٌ بحسناوين معا. كلّفه ذلك ثلاثمئة دولار دون حتى أن يُحرز انتصابًا، أوّل نزوةٍ غراميّةٍ فاشلة. انشغل بالتفكير طيلة الطريق عائدًا إلى لوس آنجلس. فكّر في أيرِه، فكّر في صانع الأفلام الشابّ صديقِ لورا الذي ساعده في مشروعٍ لم يحالفه النجاح فيه. لم يكن المالُ ما أشغله (فالخسارة ستستوعَب في الميزة الضريبيّة) بل الشكُّ بأنّ زوجتَه ربّما ضاجعت الشابَّ على مرتبةٍ هوائيّةٍ في الأرض المحفوفة بالأشجار قربَ الجاكوزي في الحديقة الخلفيّة. فكّر في سأَمِه من المال لأنّ كلَّ شيء كان مؤمَّنًا لهم بذكائه وبموت والد لورا. فكّر في مغادرة ابنته كي تلتحق بكليّة سارة لورانس مدّة ثلاثةِ أشهرٍ فقط. فجأةً كان متروكًا وحده للخضرةِ، للبحيراتِ الباردة، للعواصف الرعديّةِ ولثلجِ طفولته. فكّر إن كان أفريقيٌّ قد ناك زوجتَه أو لم يَنِكها في رحلتها إلى كينيا في الشهر الماضي. هل ضمّها سريرٌ مع امرأتين من قبل في نزوةٍ شبيهةٍ بمحاولته الخائبة؟ ارتاع نوردسترم عندما انتصب عضوه تحت حزامه لمجرّد الفكرة. لقد حان الوقت كي يعيدَ حساباته ويتداركَ ما يمكن تداركُه.

ذلك المساءَ بعد عشاءٍ متأخّرٍ حيث شرب كلاهما حتى الثمالة رقصت لورا

رقصةً ساخرةً على أغنية ديبوسي نفسِها التي كانت قد رقصت عليها في صالة الرياضة قبل تسع عشرة سنة. شاهدها بعقلٍ تجمّد فَرَقًا لأنّه أيقن في نفسه بأنّ زواجهما انتهى وهي أيقنت بما أيقن به وكانت ربما دون قصد ترقص رقصتها الأخيرةَ، أغنيةَ بجعتِها. لم يطرأ على جسمها سوى تغيّر طفيف لكنّ الجمال قد شابته لمحةٌ خفيّةٌ من الابتذال. ذهب إلى الحمّام وبكى لأول مرة في سبع وعشرين سنة، آخرُ حادثةٍ أبكته كانت حين عضّ كلبُه الحبيبُ نائبَ قائد الشرطة وهو يصيد السمك في بحيرةٍ متجمّدةٍ أمام بيتهم ونُسِفَ جزاءَ ذلك إلى أبديّةٍ مكسوَّةٍ بالثلوج بستِّ طلقات من مسدّس خدمةٍ عيار (.38). نشّف عينيه بمنشفة لها رائحةُ لورا، وعاد إلى غرفة النوم حيث تضاجعا بشغفٍ مثل شغفِهما في القمح الأخضر الشتويِّ البالغ مستوى الركبة والمُرزَةُ حائمةٌ فوقهما، لكنّها الطاقةُ الهائلة النابعة من الفقد الأبديِّ، كانت هي ما جرحهما وجعلهما يعيدان كلَّ حركةٍ جنسيّةٍ مارساها في حياتهما معًا.

كانت تلك الليلةُ نغمةَ الزواج الرخيمةَ الأخيرة. ثلاثةُ أشهرٍ مرّت قبل أن تُرفع أوراق الطلاق (ظهرَ اليومِ الذي غادرت في صباحه ابنتُهما إلى الكليّة). كانت تملك من المال أكثرَ ممّا لديه، رغم أنّ الفرق ليس كبيرًا، تولّت العناية بشؤونها ببراعةٍ كأيّةٍ نسويّةٍ متحمّسةٍ فلم تكن تريد منه شيئا. أصرَّ لأسبابٍ أنانيّةٍ على أن يدفع تكاليف الكليّة (خوف أن يخسر الاتّصال بابنته) ووافقا على اقتسام ثمن البيت بالنصف. مرَّا ببعض العذابات الضروريّة لضمان أبديّة الطلاق. كان نوردسترم الضحيّةَ السهلةَ للوابل العاطفيِّ الذي رافق الانفصال، لتقطيع كلّ الأواصر التي ربطت العاشقَين معًا. وُصِفَ بأنّه أنانيٌّ، باردٌ، آلةٌ حاسبة، مسمَّمٌ بنجاحه الوظيفيّ، وبالألعاب التي زخرفت حياتَه لاحقًا. خلال العديد من أمسيات الصيف النبيذيّةِ سمع اجترارًا لأفكارٍ حول صبيانية الغرب الأوسط التي كان يتحلّى بها، حول

جهله بالعالم الحقيقيّ جهلًا مكتفيًا بذاته، حول بلادة إحساسه بالفنون. أحيانًا يخفِّف حرقتَه بالضحك أو باعترافها الجاهز بأنّ حياتها الزوجيّة إذا ما قورنت بغيرها لم تكن على تلك الدرجة من السوء. للأسف تضعضعت قوَّتُه بانسحابها بعيدًا عنه. بحث عن أخطاء، بل تخيّل أخطاءً يمكن تقديمها، وانتهى إلى أشياء ليست ذات قيمة. أحبّها ولم يَعِبْ عليها قطّ طبيعتَها الطائشةَ غالبًا. لم يغضبه سوى أن أخبرته عن عُشّاقها، لا لأنّه كان عشيقًا سيِّئًا، إنّما لأنّها رأت الحياةَ قصيرةً بصورةٍ تثير السخط على أن تُبْذَلَ في معرفة رجلٍ واحدٍ فقط. شعر بومضات من نار الغضب المستعر فيمن تخونهم زوجاتُهم لكنّ روحه باتت كليلةً قد أنهكها الأسى فليست تعينه على التعبير عن نفسه. اختلق بضع خيانات وشعر بأنّها لا تصدّقه وبأنّه كان يبدو لطيفًا في خياناته الملفّقة. أبقت ابنتهما على العلاقة في إطارٍ محترم: أحبّتهما معًا لأسباب طفوليّة لكنّها شكّكت في عقليّتهما حينما اقترحا انفصالًا مؤقتا. كانت تفهم طبيعة أبيها، كيف أنَّه وإن كان جديرًا بالحبّ، كان كذلك جَهولًا انطوائيًّا، مفتقرًا حتى إلى لمسةِ بساطةٍ وعفويّة. علِمت عن غراميّات أمّها منذ كانت في الرابعة عشرة وشعرت بالخجل قليلًا، ممتثلةً امتثالَ امرأةٍ للأمر الواقع في ما يتعلّق بشؤون الجنس.

وهكذا انتهى فصلٌ قارب عشرين سنة من حياة نوردسترم. تلك السنةَ بعد الكريسمس عندما أنهى أمورَه العالقة انتقل إلى بوسطن حيث كان قد نسّق لنيابة رئيسِ شركةٍ أخرى لتوزيع الكتب. كان ميّتًا جدًّا في نظر نفسه وكان الانتقال في الواقع طريقةً ليظلّ على الأقلّ قريبًا من ابنته على بعد مئتي ميلٍ جنوبًا. بل لقد أقامت عنده مدّةَ شهرين أثناء أخذها مقررات صيفيّة في هارفرد. وكانت تلك الزيارة المطوَّلة هي ما أدّت بنوردسترم إلى الرقص وحيدًا. كانت قد أمضت صيفيها الماضيين في أوروبا وصار عندها الآن

صديقٌ في هارفرد. جمعهما اهتمامٌ شديدٌ بتاريخ الفن والموسيقا المعاصرة، موضوعان بدا بسرورٍ أنّهما لا ينفعان لنوردسترم. الشاب كان يهوديًّا وأزعجه هذا بعضَ الشيء حتى إنّه أنفق أمسيةً يفكّر في الأمر ولم يصل في نهاية المطاف إلى رأيٍ حاسم. تزوّجت لورا من بعده وكان زوجها يهوديًّا؛ يظهر أنّها كانت سعيدةً معه، ربما لهذا لم يكن مفاجئًا أن تختار ابنتُه يهوديًّا. بروكلين كانت مليئةً باليهود ورغم أنّ نوردسترم لم يعرف أيًّا منهم معرفةً شخصيّة إلا أنّه كان يستلطفهم عن بعد. لم يكن يعلم أنّه كان بصورةٍ ما موضوعًا للتندّر في متجر الأطعمة الجاهزة حيث اعتاد أن يتناول إفطاره. أشار للمالك ذات صباح إلى المكتوب على علبة شاي أولونغ التايواني التي كان يبيعها: «لهذه التوليفة البنيّة النادرة من جزيرة تايوان عبق الخوخ الناضج» لكنّه لم يشمَّ فيها رائحةَ الخوخ. هذا النوع من دعابة الغرب الأوسط المقتضبة لم يلتقطه مالك المتجر الذي تنشّق الشاي وقال، «حسنًا ما المطلوب منّي بالضبط». ثم بعد أسابيع عديدة تغيّب طبّاخ الطلبات السريعة فاتصل نوردسترم بالمكتب وأبلغ سكرتيرته أنه سيتأخّر. بدا شكله غريبًا بعضَ الشيء وقد ارتدى المريلة البيضاء على قميصٍ (جي. برِس) بربطة عنقٍ حريريّةٍ معقودةٍ بطريقة (ويندسر). طبخ لساعتين خلال وقت الذروة مساعدًا في تجهيز طلبات الإفطار البسيطة- بيضٌ مقليّ مع البصل والسلمون المدخّن، بيغل محمّص مع جبن القشدة، أنواع من الأومليت، بطاطس مقلية. عندما انتهت الفترة وخلع المريلة وتساءل المالك ماذا يريد نوردسترم لقاء خدمته قال بمرح، «راهن لي فقط على حصان»، إذ كان قد رأى المالكَ يقرأ باهتمامٍ صحيفة ريسينغ فورم Racing Form. عندما أتت معه ابنته إلى المتجر في وقتٍ لاحق مدحه المالك على «قطعة المؤخّرة الجميلة» التي انتقاها لصحبته. لم يمتلك نوردستردم الجرأة على الاعتراف بأنّها كانت ابنتَه.

ولم يكن نوردسترم ليعترف بأنّه كان وحيدًا. لو خطرت له الفكرة، لم تخطر ولكن لو، لأصرّ على الاعتراف لنفسه بأنه كان وحيدا في أغلب الوقت لكي يتفرّغ فقط لحلّ المشاكل. في العمل كان باردًا وعمليًّا، لم يكن اجتماعيًّا إلا على السطح فقط بحكم الروتين. خلال سنواته الثلاث في بوسطن ذاع صيته من جديد رجلًا فأسًا بفصله عشرة بالمئة من موظفي الشركة المئتين ومساهمته المباشرة في تحسين الجودة وزيادة الإنتاج بأكثر من عشرين بالمئة. دار كثير من الهمز واللمز في أوساط الطبقة العاملة من الإيرلنديّين والإيطاليّين لكن ليس في حضرة نوردسترم. خلاصته أنّ نوردسترم كان متسلِّطًا دونها غاية. لو دخل حانةً وقال، «إنّها تمطر» لهزّ الشاربون رؤوسهم باهتمام موافقين حتى إن رأوا الشمس ساطعةً خلال النوافذ. ربما، رغم ذلك، قد صبغت تجهيزاته لقدوم ابنته في الصيف حياتَه المنعزلةَ بدقّة. لمساته لم تكن واعيةً على الإطلاق لكن أشبهَ بحيوانٍ يستعدّ للربيع أو الشتاء، دون أن يعي في الحقيقة أيّهما القادم. أمر بأن يُعاد طلاء غرفة النوم الرئيسة بالأزرق الفاتح، وأن تُركَّب رفوفٌ وتُملأَ بكتب الفن، ذهب لشراء إستريو وعاد بجهازين مرتبطين بنظام صوتيّ احتويا على مشغِّلَين للأشرطة. تقتيرها على نفسها في الكلية طالما أبأسه، مذكِّرًا إيّاه بسنواته الكئيبة. عندما قابل صديقها في نيويورك كان كلاهما يرتدي جينزًا أزرق، وغيرَ نظيفٍ حتى، فاضطرّ إلى أن يلغي حجزه في مطعم لا كارافل وانتهى بهم المطاف في (ذا فيلج)[1]. آلى على نفسه أن يعود إلى هذا الحيِّ مستقبلًا رجاءَ نادلةٍ خلبت لبَّه.

في مطلع صيف 1977 أراد نوردسترم لشهوة الجنس أن تغربَ عنه. في السنوات الثلاث التي أعقبت الطلاق أثبت في بضع مناسبات أنه عاجزٌ تمامًا عن التكيّف الجنسي. غادرته الرغبة مدّةً طويلة وكان مرتاحًا لكنها

1- حي شعبيّ شهير في الجانب الغربي من قلب مانهاتن.

مؤخّرًا ظهرت على السطح في لحظات غريبة: صورة في مجلة، الفيلم التحفة (الممرّضةُ في عش الوقواق، لويز فلتشر، منحته انتصابًا خاطفًا)، نادلة سمينة في متجر الأطعمة، والأكثر استهجانًا في رأيه، فتاة في الشقّة المقابلة لشقّته عبر الباحة. لقد انتقلت من وقت قريب واعتادت أن تطفئ الأنوار وتشاهد التلفاز في الظلام مفترضةً أنّها غيرُ مرئيّة. لكنّ الضوءَ الأزرق على جسمها كان شبقيًّا بصورةٍ مفزعة وذات مساء تحرّكت يدها نازلةً كأنّها تُدلّك نفسَها فهرع نوردسترم خارجًا من الشقّة كي يجد لنفسه بائعةَ هوى. لم يعثر على واحدةٍ في حانات الحيّ فخلص إلى مشاهدة مباراة لفريق رد سوكس على التلفاز، البيسبول مخدّرٌ شعبيٌّ فعّال. لكنّه فكّر في تجاربه الجنسيّة الفاشلة، في الإحساس الميّت في جسده إذ رأى المستقبل يتوارى في وحداتٍ ليليّةٍ مليئةٍ بالأحلام العجيبة؛ أحلام أعادت النهمَ الشهوانيَّ الغريبَ الذي طبع زواجه حتى توقّع نصفَ توقُّعٍ أن لو صحا مرهقًا في الصباح لوجد لورا إلى جانبه. قرأ عن الموضوع بتوسّع لكنّ القراءة كانت تشبه محاولةَ ترجمة لغةٍ أجنبيّةٍ بعد سنةٍ واحدةٍ من تعلّمها: الجنس في حياته كان رائعًا لثمانية عشر عامًا ثم تلاشى. لم تكن الكتب مثمرةً في تبيان ما يخصّ فعلَ التلاشي كأنّه كان مثالًا على شيءٍ مبطِلٍ لمفعول السحر وأدقَّ من أن يوصف وأغمض. لم يدرك نوردسترم أنّه اشتاق للوقوع في الحب. في فورة حماسه للنظام بدأ يحتفظ بمفكّرة يوميّة والفعلُ البسيط للكتابة خفّف عنه كثيرًا.

مايو ٧٧: بعتُ بعضَ الأسهم اليوم لأغطّي تكلفة إيجار منزلٍ على البحر في ماربلهد لشهر أغسطس. لقد كان فاحش الغلاء لكن خطر لي أنّها ستكون فرصتي الأخيرة لأمضيَ وقتًا مع سونيا. أيضًا لحظت عندما انتهى المصمّم والدهانون

من الغرفة أنّني جعلتها تبدو مثل غرفة كبيرة كنّا سكنّاها في فندق لوتي على شارع دو كاستيليون في باريس في 1967 وهي حينها في الحادية عشرة من العمر. سألني سِدْ من متجر الأطعمة أن أصحبه إلى مباراة رد سوكس-تايغرز الليلة ثم إلى حفلة ميلاد للرجال فقط احتفاءً ببلوغ أخيه الخامسة عشرة على شاطئ رفير. قال إنّ الكثير من «بنات الليل، القحابِ الجميلات وراقصات الإغواء» سيكنّ هناك إضافةً إلى الطعام والأفلام. عندما يتزيّا سِدْ فإنّه يبدو مثل كوجاك في مسلسل الجريمة على التلفاز، يشبهه حتى في أدّق تفاصيل الخياطة. أتساءل لماذا قلت لا؟ ربما نفّست بعض الشيء عن شهوتي المكبوتة وإن كنت أشكّ في ذلك. بعد عشرين سنة من قراءة الجرائد لم يعد بي جَلَدٌ على تصفّحها. لماذا؟ لأنّها لم تعد تعكس العالم الذي أراه. عليّ أن أتماشى مع الطريقة التي أراه بها حتى لو كانت خاطئة. وإن كانوا على صواب، فإنّ رؤيتهم تفتقر إلى الاهتمام. أنهيت شجارًا عنيفًا نشب بين اثنين من موظّفي المستودع على فتاةٍ جذّابة في إدارة الملفات. كل قسم الشحن كان يرى والفتاة كانت تبكي بكاءً دراميًّا. ملاكمان جيّدان لكنّني لويت معصمَ أحدهما بالطريقة القديمة إيّاها وثبّته على الأرض. الجميع ظنّ أنهما سيُفْصَلان لكنّ قلبي لم يطاوعني. في الثانوية كنت أعدّه عملًا عظيمًا أن تقاتل لأجل امرأة وقد اجتاحتني هذه المشاعر. ربما أنّني أتحوّل إلى مراهقٍ صغير. على أيّة حال لقد انشغل العمّال بالحديث عن المشاجرة كلَّ الظهر. واحدٌ قال إنّ الشابين قد أصيبا بـ«ضربة كُسّ»، مصطلحٌ غريب يعود إلى سنوات خلت، من التعبيرات الدارجة في

مهاجع السكن الطلابي إذ يتبادل الأولاد أنواع البذاءات ثم حين يكونون مع البنات يرددون مقاطع من أغانٍ رائجة ويصيرون مخدَّرين تماما. الفتاة التي كانا يتعاركان من أجلها لمحتني أنظر إليها، رطّبت شفتيها وابتسمت. حلوى دبقة. جرّبت وصفةً لتحضير موس اللوبستر من مطعم لوك-أوبر كيما أعدّها لسونيا يوم الأحد مع خلّ الهليون ونبيذ فتزر فيوم بلانك الذي تحبّه. أدري أنّها ستأتي السبت لكنّها ستقضي المساءَ رفقةَ الشابّ حبيبِها. لا بدّ أن أفهمَها أنّه لا بأس من أن يبقى معها أحيانا وإلّا لن أراها كثيرا. عمرها عشرون. نسأل عادةً ياه كيف مرّت السنين لكنّي أعرف جيّدًا كيف مرّت والعاطفة الجيّاشة لن تجدي أحدًا نفعا. كتب لي أبي ليقول أنه بسبب الكولسترول وقلبِه الرديء لزمه الامتناع من أكل الرنجة، والخنزير المملّح المقلي، والجبن، والبيض مع اللحم المقدّد، وشطائر الخنزير مع البصل- وجبتِه الأثيرة. هذا محزن. كنّا في الخميس ننزل إلى القبو ونملِّح سمك الرنجة ونخلّله لنتعشّى عليه ليلة السبت. لم تكن أمي تحب الاقتراب من برميل التخليل. مرّةً رأت في المخزن ثعبانًا وصرخت. ما زال مع ذلك يأكل سمك القدّ المجفّف. بعض كبار السن في العمل دائمًا ما يقولون نكاتٍ غبيّةً ولا بدّ أنّ ذلك يعني شيئًا ما. قرأت روايةً لكنوت هامسون لأرى ما قد يطلع من النرويجيّين (ليس الكثير). جعلني الكتاب حزينًا وذكّرني بأحلام محددة رأيت فيها لورا: مرّةً حين عادت من حفلة فيلم كنتُ قد خرجتُ منها مبكّرًا وقد تعاطت كميّةً كبيرةً من الكوكايين وأرادت منّي أن أضاجعها فضاجعتها وقتًا

طويلا. ومرّةً قبالةَ مرآة لكنّ الرجلَ في الحلم لم يكن إيّاي. بتُّ مشتّت الذهن مؤخرا. مثلًا راجعت التراب والنار والماء والهواء في الموسوعة البريطانية. وعلى الراديو أيضًا بها أنّني قد نسيت تقريبًا المبادئ التي تحكم عملها. أشياء أخرى مزعجة: لماذا أواصل العمل؟ زوجتي ذهبت ومن سخرية القدر أنها لم تحتجْ إلى ما أجنيه قطّ وابنتي ستذهب، ووالداي يعيشان في أحسن حال. لم يعد يمزّقني أشلاءً انهيارُ حياتي لكن ليس لديّ فكرةٌ عمّا سيأتي بعد. ربما لا شيء. طالما ختمت أمّي رسائلها بالقول، «إنّك في صلواتي» لكني لم أراهن قطّ على الدين، مؤمنًا أنّ الدعاءَ مرافعةٌ شخصيّة لإثبات استحقاق الذات.

الفصل 2

مرّ بهيًّا صيفُ نوردسترم مع ابنته، سعيدًا بمذاقٍ حلوٍ، مريرٍ في الواقع، إذ ظنّ أنّ هذه السعادة قد تعني أنّه ذاهبٌ إلى الموت. كان يتنفّس بأعمق ممّا كان واعتاد الضحك في أوقاتٍ غريبة. ظنّ أن المرء أقربُ إلى المنيّة إذا ما ازّينت له الحياة وسارت أموره على ما يرام لا العكس، وإلّا فقد سرير الموت لمسةَ الرهبةِ المعهودةَ التي رآها نوردسترم إضافةً خدّاعةً على أيّة حال. صاغ صورةَ ذاته دونما خرافةٍ أو خيال، رغم أنّ السبب في الغالب أنّ الناس أخبروه أنّه لم يكن يتمتّع بأيٍّ منهما. كانت لورا متّهِمتَه الرئيسةَ والأقوى حجّة. خلال الفترة الطويلة والمكلِّفة عندما كانت تتردّد يوميًّا على طبيبٍ نفسي سألها نوردسترم ماذا يا ترى وجدت كي تتحدّث عنه بتوسّع، مضيفًا أنّها لا بدّ قد اختلقت الكثير من الأكاذيب. تسبّب هذا في غضبٍ كبيرٍ قالت فيه لنوردسترم أنّه أفقرُ خيالًا من أن تكون لديه مشكلاتٌ عقليّةٌ تستحقّ النقاش. جرحه هذا قليلًا لذا فلقد ابتهج بعد سنوات حين اعتُقِل طبيبُ لورا إثرَ استمنائه في مكانٍ عامٍّ على طريق روديو. لكنّه بعد اعتقاله قضى سنةً في كولورادو حتى «يعود إلى صوابه» ثم رجع واستمرّ كلُّ شيءٍ على حاله مع مرتادي عيادته بمن فيهم لورا مستأنفين نبشَ أحزانهم بين يديه.

فعليًّا كان الأمر متعلّقًا بالصرعة المعروفة بـ«التواصل»: طبيعة نوردسترم

كانت في العمق متحفّظةً ولم تمرَّ قطّ مناسبةٌ عبّر فيها عمّا اعتقده أو تبنّاه تجاه قضايا محدّدة. في عيد ميلاده السابع أُهدِيت إليه مجموعة My Book House في اثني عشر جزءًا، بتحرير أوليف بيوبري ميلر، التي طمأنت قراءها الصغار بأنّ «العالمَ مليء بالعديد من الأشياء، أنا واثقٌ من أنّنا جميعًا يجب أن نعيش سعداء كالملوك»[1]. مشارفًا الثالثة والأربعين من العمر، لم يزل صعبًا إقناعُه أنّ الفتاة الإسكندنافيّة لم تمتط ظهرَ دبٍّ قطبيٍّ في رحلةٍ طويلة، أو أنّ أودين لم يكن موجودًا في غابات تايغا الشماليّة المطرة، لابسًا جلد غزالِ رنّة ومستدفئًا بنار عظيمة وقودها من عظام البشر وصرخاتُ الموتى طافيةٌ على بحيرة ضبابيّة. مرلين كان حقيقيًّا وكذا كان آرثر؛ في يابان القرن الثاني عشر عاش مجنونٌ رسم صورًا للجبال والأنهار بغمس شعره في الحبر وتحريك رأسه على الورق. أحيانًا كان يرسم بالدجاجات الحيّة. لماذا لا تعيش أشباحٌ بعينها في قيعان البحيرات وتعبّر عن نفسها عبر صوت طائرِ غوّاص؟ في الحادية عشرة اصطاد نوردسترم غرابًا، فامتنع هنري- هنديٌّ من قبيلة أوجيبوا كان يعمل، حين لا يكون سكران، نجّارًا عند والد نوردسترم- عن محادثته أشهرًا بعد أن أخبر نوردسترم أنّ أيَّ أحمق «يعرف أنّ الغرابَ ليس غرابًا». بحلول الخريف صار هنري مسالمًا وفي بواكير ذلك الشتاء صنع لنوردسترم زورقَ تجديفٍ من أخشاب الصنوبر الأبيض هديّةَ كريسمس. في آخر الربيع الآتي وجد نوردسترم فرخَ غرابٍ في الأحراش قد سقط عن عشّه فرعاه وأطعمه من ديدان الأرض. تعلّم الغراب الطيران فترك له نافذةَ غرفتِه مفتوحةً حتى يتمكّن من زيارته إن شاء. سأل أباه عن جنس الغراب أذكرٌ أم أنثى فقال أبوه أنّ ذلك شأنٌ لا يعني الغراب، تمامًا كما لا يعني الكلبَ أمرٌ كهذا. فكّر نوردسترم في هذه المسألة الغامضة. لقد فاجأ هنري وأسعده

1- ميلر مقتبسةً روبرت لويس ستيفنسون.

رغم ذلك أن حضر نوردسترم إلى موقع بناء وقد حطّ غراب بصخبٍ على كتفه. كان الغراب يلزم المقعد الخلفي على ظهر الزورق بينا كان نوردسترم يجدّف في صباحات الصيف، ناعقًا على تطفّل إخوته في السماء وهم يحوّمون عن بعد، وأحيانا محلِّقًا معهم. سمّى نوردسترم غرابَه كما جرت العادة باسم «غراب». اختفى الطائر آخر الخريف وعاد في ثلاثة مواسم ربيعيّةٍ متوالية. ثم لم يعد بعدها فحفر نوردسترم قبرًا صغيرًا، ثمّ توقّف قليلًا قبل أن يُهيل الترابَ على الحفرة الخالية. طالما تذكّر جلَبَة الغراب عندما كان يشاهد حيّة ماء تبتلع ضفدعًا صغيرًا. ليومين تخيّل نوردسترم نفسه متحوِّلًا من لحمٍ جامدٍ إلى سائلٍ في بطن أفعى.

ربما كانت هذه المخيلة السريّة الواسعة سببَ رباطةِ جأشه ، وبالتالي نجاحِه في عالم المال والأعمال الذي توصّل مؤخّرًا إلى أنه نجاحٌ بلا قيمة. فرجال الأعمال البارعون في تمرير ورق الحمّام على أنّه حاجة ضرورية قلّما يُظَنُّ بهم عقمُ الخيال أو ثقل الظلّ، فكّر. نشأت لورا في إيفانستون، من ضواحي شيكاغو على بعد ثلاثمئة ميل تقريبا جنوب رينلاندر، لكنّها حقيقةً جزءٌ آخر من البلاد بعيدٌ بعدَ الخيال أو خفّة الظل. كانت القطّةُ وهي نائمةٌ على منطِّ الغطس فوق المسبح في الحديقة الخلفيّة تُضحِكُ نوردسترم. وأضحكه جدًّا كذلك حين أُغرِم أرباب السينما بارتداء المجوهرات الهنديّة وبناطيل الجينز الفرنسية؛ موضوعات أخرى كانت مثارَ ضحكه كالاختناقات المروريّة (حتى وإن كان عالقًا في أحدها)، المثليّة (شيء ينبغي الإقلاع عنه في الرابعة عشرة)، السياسة وأخبار المساء، بما في ذلك حقيقة أنّ عددًا كبيرًا من الناس لم يصدّق بعد أنّنا وصلنا إلى القمر. الفرنسيون كانوا حقًّا مضحكين، إلّا أنّ طعامهم كان رائعًا: مستودع المُلَح والطرائف لدى نوردسترم لم يكن يحوي غيرَ واحدة، ولقد كانت عن فرنسيَّين تقابلا في الشارع. قال الأول:

«أمّي ماتت هذا الصباح تمامَ العاشرة». قال الآخر: «تمامَ العاشرة؟»، عدم شعبيّة هذه النكتة اللطيفة قاد نوردسترم إلى التفكير في أن الدّعابة المرتبطة بعرق أدعى لأن تمتنعَ ترجمة روحها. أقدام البطّ تبدو طبقًا مضحكًا للبعض لكنّها في رأي الصينيين وجبةٌ مشتهاة وعلامةُ ذوقٍ رفيع. عندما اصطاد السمك مع أبيه في أماسي الصيف وباغتتهما عاصفةٌ رعديّة واصلا الصيد في المطر لأنّهما لم يكونا يريدانها أن تمطر. أضحكهما هذا مثلما فعل الصيد في مياه متجمّدة في يومٍ درجة حرارته عشرون تحت الصفر وريح بسرعة ثلاثين عقدة، حيث بعد ساعاتٍ باردةٍ بلا انتهاء أقرّ والده أنّ الجوَّ كان «باردًا بعض الشيء». عندما أردى بطلقة ناريّة طريدتَه الأولى في الثالثة عشرة، كانت غزالةً، وأثناء انشغال أبيه وأعمامه بتفريغ الأحشاء وتنظيف الصيد ألصقوا بجبين نوردسترم فرجَ الغزالة الدامي إثرَ قَطْعِه. ظلّ هناك لحظاتٍ معدودات قبل أن يقع في حجره فجلس محزونًا على أصل شجرةٍ غطّته الثلوج. طيّبوا خاطرَه مؤكّدين أنّه كان طقسًا معروفًا أن يلطِّخ وجهُ الصيّاد المستجدِّ بدم طريدته، ثم ضحكوا أيّامًا على غرارته.

حبيب سونيا كان أذكى قليلًا من أن تستسيغه ذائقةُ نوردسترم، طليقَ اللسان مع ميلٍ إلى الحديث دون انقطاع في فقرات بجمل موصولة واستطرادات متشعبة في مسارات التاريخ والفنون. أحاطته شأنَ طالبٍ في هارفرد هالةٌ من التباهي ميّزها نوردسترم في أوساط المنتسبين إلى جامعات «آيفي ليغ»[1]. حينما كان في لوس آنجلس لاحظ أنّ خريجي ييل ودارتموث وما إلى ذلك كانت لهم حظوةٌ تلقائيّة رغم أنّهم كانوا خنازير، حمقى أو أغبياء كما هو الحال غالبًا، ينظرون إلى بقية البلاد باسترسالٍ لا مبالٍ كأنّما فُرِضنا فرضًا على حياتهم. من ناحيةٍ أخرى كان الولد رفيقًا جدًّا بسونيا، يوشك من

1 - رابطة من ثماني جامعات هي الأشهر والأقدم شمال شرق الولايات المتحدة.

الرقّة معها أن يصير أنثى وكان واضحًا للعيان أنّ رباطًا أبديًّا قد تشكّل. كان نوردسترم قد استغرب من توتُّر الشاب وانزعاجه وقالت سونيا أنّ عشيقها قد وجد نوردسترم في البداية مخيفًا بعض الشيء. كانت لنوردسترم فعلًا عادةٌ فريدةٌ بالتحديق في عيني أيِّ أحدٍ لدقيقة أو أكثر قبل أن ينشئ جملةً وكان هذا مثيرًا لأعصاب الموظفين والعشيقات والخدم وحتى المعارف والمسؤولين.

رغم هذا الانزعاج المتبادل فلقد مرّ الصيف بهيًّا، خصوصًا مع قدوم أغسطس وإجازةِ نوردسترم الممتدّة لشهر حينما انتقلوا إلى المنزل في ماربلهد. سيطر البحر على المشهد وغمر نوردسترم شعورٌ بالرضا أن امتلك الحاسّة التي قادته إلى استئجار هذا المنزل الحجريّ الضخم على الماء محاطًا بسياج من شجيرات الدفلى، وبأيّامٍ من الرياح الدافئة العاصفة، وبالمرفأ مرقّطًا بالقوارب الشراعيّة. كان ثمّة مسبح متواضع، وملعب تنس في حالة شبه مزرية. الأجمل أنّ نوردسترم أحبّ شُرْبَ قهوته الصباحية على شرفةٍ وتأمُّلَ البحر، تاركًا الصحف، والمجلات وخطابات العمل دون أن يفتحها مفضِّلًا البحر، يشاهد بالإمعان نفسه سطح البحر سيّان كان عاصفًا أو ساكنًا. الإضافة الأخرى الرائعة بحق كانت شوّايةٌ حديديّة (حديد-الزّهر) عتيقة من وقتٍ كان الناس لا يُعدّون وجباتٍ بل ولائم. قضّى نوردسترم صباحَه الأول كلّه محرِّكًا كتلةَ الحديد الضخمةَ من الحديقة الخلفيّة قرب باب المطبخ إلى الأمام حتى يتسنّى له أن يطبخ ويشاهد البحر في الوقت نفسه. ثم تجوّل عبر المرفأ على قارب (كريس-كرافت) قديم كي يتبضّع للعشاء.

كان يطبخ العشاء حين ألمّ به إحساسٌ غريبٌ فرض بالتدريج تغييرًا جذريًّا في حياته. كان ألمًا فوق قلبه مباشرةً بين عظمة القصّ والحلق؛ في البداية أفزعه ذلك ووضع يدًا على صدره وحدّق في الخارج متجاوزًا بنظره شجيرات الدفلى إلى حيث دفن المحيطُ نفسَه في غشاوة الغسق. حدّةُ انحسارِ

الماءِ امتزجت بانشواءِ اللحم فخفض بصرَه وأرسل تنهيدةً: «أوه، سحقًا له».
بات فجأةً غيرَ مكترثٍ على الأرجح لا بالماضي ولا بالمستقبل، ولا حتى بقلبه المنكسر الذي ربما قد أحسَّ للتوِّ بحكّة الالتئام الأولى. لكنه لم يعرف ذلك ولم يهتمّ. أخذت التنهيدةُ بصُلبه، صاعدةً في موجات عبر فقرات ظهره إلى دماغه الذي آنَسَه مقشّرًا برقّة، باردًا ونظيفًا. باغته الإحساس قويًّا فقرّر ألّا يختبره مخافةَ أن ينجلي. تأكّد من حرارة اللحم وذهب إلى المنزل وأخرج السلطةَ من الثلاجة، لم ترُق له برودة السلطة. وضع البطاطس الحمراء الصغيرة الجديدة في الماء، كانت جاهزةً لتُطبَخ حين سمع صوت سيّارة سونيا. فتح زجاجة كبيرة من نبيذ (بُرجِس زينفاندل) كي يجرّبها، ثمّ مرّر إصبعه على صحن صلصة ليتذوّق مرّةً أخرى التتبيلةَ التي قد غلّف بها ساق الضأن بعد أن نزع منها العظم: مزيجٌ من زيت الزيتون، إكليل الجبل، مسحوق الثوم، الخردل الفرنسي، وقليل من الصويا. زحفت لذعةُ الطعم إلى جيوبه الأنفيّة والتفت إلى تخميشِ قطٍّ ضالٍّ على باب المطبخ. جهّز إناءً من زوائد اللحم ووضعه خارجًا في الرواق الخلفيِّ لأجل القطّ توم، قطٌّ مقصوف الأذنين مسنٌّ ومنهوكٍ كان ينظر إليه من تحت شجرة تفاح بريٍّ مزهرةٍ عطّر تفتُّحُ أزهارها الحديقةَ الخلفيّة. نفحةٌ حادّةٌ من نسيم البحر أوهنت بعضَ البتلات فتساقطت على القطِّ المحملق. اقترب القطّ ببطء وثلاثُ بتلات عالقةٌ في فرائه والتهم قطع اللحم بهريرٍ خفيض، ثم تمطّى واستلقى خابطًا بذيله وتبادل النظر مع نوردسترم. بدا لنوردسترم أنه حقًّا كان ينظر إلى أوّل قطّ في حياته. حدّقا في بعضهما دون أن يرفَّ لهما جفنٌ حتى تشكّل الدمعُ ترطيبًا لعينيه المحملقتين. ثم توقّفت سيّارة سونيا في المدخل فصار القطّ مجرّد تشوّشٍ رماديٍّ وانسلّ من درابزين الرواق، أشبهَ بالزواحف منه بالثدييات.

زوّد الشهرُ نوردسترم بوقودِ ارتحالِه عمّا ارتآه حياةً اعتياديّة. استيقظ

مبكّرًا نوعًا ما، أخذ قهوتَه، ساعد خادمة المنزل في ترتيب آثار الليلة الماضية. أحيانًا تظل موسيقا الليل تطنطن في أذنيه، يشعر بها وخزًا خفيفًا في دماغه حتى تعلّم أن يستعيدَ الألحانَ أوّلَ ما يبدأُ تبضُّعَه اليوميَّ وطبخَه. كانت سونيا حسّاسةً بما يكفي لتستشعر تغيُّرًا في شخصيّة أبيها دون أن تسائلَ تصرّفاته. أصرَّ نوردسترم أن تدعو هي وفيليب كلَّ من يريدان استضافته من كامبريدج لأنّه شعر برغبة في الاحتفال.

«ونحتفل بماذا؟» ضحكت، ثم تحمّلت نظرتَه، التي بدت شاردةً في البعيد.

كان نوردسترم يفكّر في أنّ سمرةَ الشمس على سونيا جعلتها تشبه أمّها، أنّ عينيها بلونهما البندقيِّ كانتا مربكتين ومدوِّختين بعضَ الشيء. «لا أدري حقًّا. لم لا؟ ربما لعلمي أنّ شهرًا آخر مثلَ هذا الشهر بعيدُ الإمكان. أيضًا أريد عذرًا لأطبخ لعددٍ كبيرٍ من الناس، كي أكون صادقًا».

مشت إليه وقبّلته على جبينه وضحكت من جديد. «أتمنّى ألّا تختفيَ كلَّ مساء.»

هزّ نوردسترم كتفيه مستغربًا وشاهد الضوء المشرق في الغرفة يرتعش على إثر سحابةٍ عابرة. كانت أعزَّ كائنات الأرض على قلبه ومع ذلك لم يجعله هذا حزينًا كما حدث مرّةً من قبل. «أُحبّ أن أقعد وأشهد دخولَ الليل. ثم حين أذهب إلى السرير أحبّ أن أستمع إلى الموسيقا آتيةً عبرَ أرضيّة الغرفة».

صرفت سونيا بصرَها خجلًا. «يجب أن يكون لديك صديقة. أعني، ربما تكون أسعد».

«عجيبٌ جدًّا في هذه العصور الحديثة أن تخبرك ابنتك أنّ عليك أن تضاجع. إنّني أذخره للزواج».

«لم أقصد أن أكون فظّة. لم أردك أن تظنّ أنّ أمّي كانت المرأة الوحيدة في العالم. حتى إنّك قد تجد شيئًا أفضل، بحقّ المسيح.»

أدار نوردستْرم عينيه متحيِّرًا وخطت سونيا خارج الغرفة. كان بين سونيا وأمِّها سلوكٌ مشتركٌ بغيضٌ نصفُ متودّد وجده عصيًّا على الفهم، كأنّما كانا يحاولان أن يلعبا لعبةً باستخدام الأمواس. صبّ قليلًا من البوربون وذهب إلى النافذة، مشيحًا بوجهه بغتةً حين لمح صديقتين لسونيا وقد خلعتا القطعة العليا من لباس السباحة. إحداهما فتاةٌ عاديّةٌ إجمالًا، بإجّاصتين جميلتين ناتئتين قليلًا إلى أعلى ولامعتين من دهنهما بمستحضرٍ لتسمير البشرة.

أحسّ نوردستْرم بمثل جذبةٍ خفيفةٍ أسفل معدته لم يقدر أن يلوم عليها الويسكي. كانت الفتاة قد ساعدته في غسل الأطباق قبلها بليلةٍ وبالكاد لفتت نظرَه. في الأسبوع الماضي تقريبًا، منذ الحادثة خلال شوائه اللحم أبقى دونما جهد يُذكَر على إحساسِ مَن استيقظ للتوِّ من حلمٍ جميل، لكنّ الصعوبة تمثّلت في أنّ أشياء محدّدة باتت أقوى تمامًا من أن تُحتَمل. ربما جلس في الغرفة مصغيًا في الظلمة إلى الموسيقا حتى تتوقّف، أحيانًا لا تتوقّف حتى دنوِّ الفجر. بين التسجيلات يصغي إلى البحر مرتفعًا ومنخفضًا على مِصَدِّ الأمواج. وجد نفسَه غيرَ قادرٍ على القراءة ودون أيِّ اهتمامٍ بالتفكير. عبرت فكرَه الخواطرُ والأحاسيسُ والصور لكنّه تركها تطفو بعيدًا. تساءل عمّن ولد أعمى ماذا تراه يرى في عقله. تساءل عن المفهوم الأوليِّ للإنسان المحروم من مُدخَلات الحواسّ الخمس. تساءل عمّن كان يستمع إلى الموسيقا من غرفته، من المستمِع ومن المرتعِب. في المنام اختفت لورا من أحلامه وكان لِمامًا يحلم بنساء لا وجود لهنّ. أنّى لذلك أن يكون؟ ربما تساءل في الصباح. على الشاطئ لفّق خيطًا لصيد السمك مستخدمًا للغطّاسِ مقبضَ بابٍ وللطُّعمِ كبدَ دجاجة، كما كان يصنع في صباه، لكن عند الفجر حين سحب الخيط لم

يجد سوى سمكة قرشٍ صغيرةٍ ميّتة عالقةٍ في أجمةٍ من طحالب البحر. ندب سعيَه الضائعَ هباءً ودفن القرش بالإجلالِ نفسِه الذي دفن به روحَ الغراب قبل ثلاثين عامًا.

ليلةَ أعدّ العشاءَ لدزينةٍ مخدّرةٍ تمامًا من الشباب دخلت سونيا إلى المطبخ وحدّقت فيه بعينين تبرقان.

«لقد أغظتني اليوم. لم أكن أحاول التدخّل في حياتك. كان يسعك على الأقلّ أن تتحدّث مع الناس. أواصل إخبارهم بأنّك أبي لكنّهم يظنون بأنّك الطبّاخ».

«لا عيب في أن أكون الطبّاخ. لكني سآخذ بنصيحتك وأبحث عن حبيبة. شقراء بمؤخرة كبيرة تحبّ موسيقا الريف الأمريكي».

اثنان في الواقع من أصدقاء فيليب طلبا ذاتَ صباحٍ شطائرَ ديكٍ روميٍّ ظنًّا منهما أنّ نوردسترم كان الطبّاخ. خَجِلا لاحقًا من نفسيهما وأحدهما، يهوديٌّ سفارديٌّ من نيويورك قصيرٌ وبدين، ساعد نوردسترم في تجهيز العشاء. كان زبونًا دائمًا للمطعم ذاته الذي أكل فيه نوردسترم مع سونيا وفيليب في ذا فيلج. الشابُّ نفسُه كان طاهيًا ماهرًا وبينما كانا يعدّان الطعام (فيليه سمك موسى مع صلصة الفطر) سأله نوردسترم عن النادلة التي كانت قد خلبت لبَّه. لقد ثبت بالفعل أنّه سؤال مصيريّ.

«يا إلهي ابتعد عنها فحسب. إنّها قحبةُ يهود، راقصةٌ بتينك العينين الغامقتين الواسعتين كأنّما أبدعهما مونيه. ستسحق قلبك. أعني ربّاه كلُّ ثريٍّ أحمقَ في البلدة يأتي حاملًا إليها الزهور وتعامله كخراءِ كلب. كانت زوجةَ هذا الاتشفارتزه»[1] مروّج الكوكايين، تدري، مجرمٌ أسود، وكانت تخونه مع

1- Schvartze كلمة تعني: رجل أسود، عند اليهود في اليديشيّة، كثيرًا ما تحمل بعدا عنصريًّا

هذا الكاتب الذي ضُرب حتى تخلخلت أسنانه. بالطبع سأعرّفك بها إن كنت تحبّ الجزءَ المازوخيَّ. لا تبدو لي من هذا النوع». أفلتت من الشاب ضحكةٌ سوداويّة. «عن نفسي أحبّ هؤلاء الفتيات الإنجليزيّات القذرات.»

ليلةَ غَضَبِ سونيا أذعن نوردسترم وجلس على رأس المائدة. لم يزعجه أنّ الناس الذين طبخ لهم دخّنوا الحشيش إذ بدا أنّه فاتحٌ لشهيّتهم. شوى بعضَ طيور سمّان حشاها بالعنب الأخضر، شطرها أنصافًا ونقعها ليلةً كاملةً في براندي التفاح. كانوا يأكلون بنهم مما أفرح نوردسترم فتحدّث طويلًا مع اثنين من خريجي هارفرد ماجستير إدارة الأعمال عن أزمة الطاقة وتبعات سياسة الشرق الأوسط على واردات النفط. تفاجأ الشابان من أنّ الطبّاخ قد سافر قبلُ إلى جدّة، وساهم في مفاوضات عقد صفقة مع منظمة أوبك. غادروا متردّدين بعض الشيء إلى حفلة ديسكو في روكبورت مع باقي الرفقة. قبّلته سونيا وربّتت على ظهره في طريقها خارجةً من الباب.

شاهد نوردسترم أضواءهم الخلفيّة تنحسر في الظلام الدافئ ثم أطعم القطَّ توم الذي طلع من تحت الرواق الخلفيّ. إن لم يكن أحدٌ آخرُ بالقربِ سيدخل القطّ المطبخ الذي كان الليلةَ حارًّا ورطبًا مع رائحةِ جَزْرٍ نتنةٍ عالقةٍ في الهواء، تذكيرٌ ساحليٌّ بالماهيّة التي يفوح بها مستنقعٌ في الصيف. أكل القطُّ آخرَ سمّان كان نوردسترم قد فكّر بالإفطار عليه لكنّه قدّر أنّ القطَّ سيستمتع به أكثرَ منه. مزّق القطُّ الجلدةَ البنيّةَ المشويّةَ ونهش نهشةً انسحقت بها العظام. لاطف نوردسترم الحيوانَ حتى تصلّب وفزع إلى باب المطبخ. لقد كانت الفتاةَ العاديّةَ بإجّاصتيها في قفطانٍ أزرقَ فاتح. هزّت كتفيها استغرابًا من نوردسترم أن جعل القطّ يخرج. صبّت كأسًا من الصودا وشربت كأنّ حياتَها واقفة على هذه الشربة. لم يتذكّرها نوردسترم على العشاء.

مشابها لذلك الذي لكلمة زنجيّ في الإنجليزيّة.

«لقد سفعتني الشمس سفعةً ملعونةً اليوم وأمرضتني بشعورٍ كالقرف». كانت تتكلّم من زاوية فمها على الطريقة المعتادة لبنات طبقتها. لم يجد نوردسترم ما يقوله فوضع مريلته البيضاء وبدأ بالأطباق. كان قد خلع قميصه أثناء أكل القطّ وأحس أنّه شبهُ عارٍ، الآن في حضرة الفتاة.

«أرجو أنكِ تحظين بوقت جميل»، قال ببرود.

«أكيد. روعة، لولا أنّني قليتُ جلدي قليًا مثل غبيّةٍ خالصة». ثمّ توقّفت وأثنت صراحةً على نوردسترم. «أنت مثاليٌّ عزيزي بقيامك بكلّ هذا الطبخ. أعني أنّ سونيا محظوظةٌ جدًّا». قعدت على طاولة المطبخ وأخرجت كيسًا به ورق لفٍّ من محفظتها ولفّت وصلةَ حشيشٍ كبيرة، أشعلتَها وأخذت منها نَفَسًا عميقًا. «أنا ذاهبةٌ غدًا إلى سانتا باربرا لأزورَ أمّي، إن استيقظ أيُّ أحدٍ باكرًا كي يعجّل إلى لوغان». اقتربت من نوردسترم عند المجلى ووضعت الحشيشةَ بين شفتيه، متجاهلةً اهتزازة رأسه الرافضة. «هذا الصنف لعنةٌ فاخرة، أظنّه من هاواي».

«سآخذكِ إلى المطار» وشرِق إذ أخرج الدخان.

نظرا إلى بعضهما من كثبٍ للحظة والتمع بينهما بصيصُ فهمٍ قرّر نوردسترم ألّا يقرَّ به لنفسه. خفض بصرَه ناحيةَ يديه المغموستين في الماء والصابون. غادرت هي المكان وشغّلت أغنية، ثم عادت وساعدته في غسيل الأطباق. فوق صوت الموسيقا أمكنهما أن يسمعا عاصفةً رعديّةً قادمةً من الغرب. ازداد سكونُ الهواء سكونًا ورطوبتُه رطوبةً. أحسّ بالعرق يُملّس شعره ويتحدّر قطراتٍ إلى أسفل ظهره فيما استمع إلى ثرثرتها عن بدء مسيرةٍ مهنيّةٍ في مجال الأزياء. تبعت ساهيةً بإصبعها مسارَ العرق على ذراعه وارتعش ارتعاشة لا إراديّة. ثم سحبت قفطانها من فوق رأسها ورمت به في الزاوية.

«لا أدري عنك، لكنّي أختنق تمامًا وحروق الشمس تحكّني».

كانت ترتدي طقمَ ملابس داخليّةٍ رهيفًا، فاتحًا بلون الصوف الطبيعيّ. سفعتها الشمس، مع أنّ حروقَها ليست بذلك السوء، على أعلى صدرها وفوقَ خطّ سروالها التحتيّ وأسفلَ منه. مدّ يدَه ولامس حلمةً تحت القماش بسبّابة رطبة. استدارت ورفعت ذراعيها. «قفاي ليس بذات السوء». مسح يديه في المريلة وضغطهما على أدنى نقطة في ظهرها. آلت إليه شبهَ متعثّرةٍ بصنادلَ معقودة. نظر إلى يديه وردفاها يرتفعان إلى الخارج. مدّت يدها من خلفها لامسةً يديه ثم أنزلت سروالها بسرعة إلى ما فوق ركبتيه بالضبط. «هيّا، من ساعةٍ وأنا أفكّر في هذا».

انطلق نوردسترم، رهن إشارتها. وفي ذروة النشوة هوى منهارًا على ظهره وبنطاله حول كاحليه والمريلة الرطبة تشكّل خيمة صغيرة فوق قضيبه. ضحكت وضحك. أشعلت له سيجارةً ودخّنها دون أن ينهض عن الأرض. خطت خطوة خارج سروالها وخلعت حمّالة صدرها. أخرجت من الثلّاجة زجاجةَ نبيذ أبيض وأعطتها لنوردسترم مع فتّاحة سدادات. نسيا أمر الأطباق وغطسا في المسبح غطسةً والأنوار مطفأة، يشاهدان العاصفة الرعديّةَ تقترب من فوق أضواء ماربلهد. مارسا الحبّ مرّة أخرى وهو جالسٌ أسفلَ منها على كرسي حديقةٍ من الخوص. قادهم المطر إلى الداخل وقعدا على الأريكة شاعرَين بالهواء يبرد بالتدريج ومشاهدَين البرقَ والرعدُ ينفجر فوق المحيط. دخّنا حشيشةً أخرى ورقصا. غلبهما النعاس فناما على الأريكة ولم يسمعا الأصوات الضاحكة التي أشعلت الأنوار وشغّلت المسجّل.

أسبوعٌ آخر وانتهى الصيف. أعدّ نوردسترم مرقةَ بحريّات (بويابيز) لعشرين شخصًا على سبيل حفلة وداعٍ حزينة وفي النهار التالي اختفى الجميع. أسبوعٌ آخر في بوسطن وعادت سونيا إلى سارة لورانس وعاد نوردسترم إلى

العمل. في المساء كانت وحدته ملموسةً فبدأ الرقصَ وحيدًا على التسجيلات المتروكة في المكان نفسه والألمُ الحلوُ المريرُ نفسُه في صدره. بعد ما يزيد عن شهرٍ آخر، في منتصف أكتوبر، ذات ليلةٍ ساهرة تلقّى مكالمةً من أمّه التي قالت: «أبوك ميّت».

طار على أوّل رحلة متوفرة من لوغان إلى أوهير عند الفجر. ابتسم متذكّرًا فجرًا سابقًا حينما أوصل الفتاة إلى المطار وصادف شريكًا تجاريًّا قديمًا من لوس آنجلس. جفل إذ قال له الرجل، «آسفٌ على طلاقك!» وعندما عرّفه نوردسترم على الفتاة باعتبارها صديقة ابنته في الجامعة كان واضحًا أنّه اعتقد غيرَ ذلك. لكنّ اللقاء جعله يشعر بالخفّة سائقًا ضد الزحام في طريق رجوعه إلى ماربلهد؛ لا لأنّه حظي بمضاجعةٍ فحسب، مضاجعةٍ رائعةٍ بالأحرى، بل لأنّ فكرة الطلاق والكلمةَ نفسَها لم تعد تمغصه وتلقي به في حالة نكِدة أو سوداويّة.

كان عليه أن ينتظر خمس ساعات في ميلواكي من أجل رحلة على خطوط نورث سنترال إلى رينلاندر فاستأجر طائرة ليرجِت نفّاثة، إذ كان قد استمتع بتجربة ركوبها قبل أيّامِ عَمَلِهِ في النفط ورأى أنّها أقربُ شيءٍ محليّ إلى إثارة ركوب مقاتلةٍ حربيّة. لم تنفذ إليه حقيقةُ موت أبيه أبعدَ من محيط إدراكه وخلال هبوطٍ عاصفٍ وعنيف خالَ أنّه لاحقٌ به. مساعد الطيّار أرسل سَلَفًا إشارةَ الهبوط. كانت أمُّه في انتظاره مع ابنِ عمٍّ، حلّاق شاحب مصفّر بعقليّةٍ قذرةٍ حقًّا، كانا في انتظاره. وكانت المعانقات دامعة، ثمّ لم يتمالك الحلّاق نفسه أن غمز قائلًا، «لا بدّ أنّها رحلةٌ جميلة» لحظةَ لمح الطائرة. لم يعلّق نوردسترم بشيء. في زيارات سابقة عندما كان يحاول إخفاء نجاحه لم ينل منه كلُّ معارفه القدماء غيرَ خيبة الأمل. أولئك الذين بقوا لم يريدوا نوردسترم أن يكون واحدًا منهم- كان صورةَ خيالاتهم الاقتصاديّة وأيّةُ إشارةٍ إلى

العكس لم تكن محلَّ تقدير. ماشيًا إلى السيارة مع أمّه في رذاذٍ باردٍ تذكّر زيارة والديه له في لوس آنجلس. لقد اعتبرا منزله بطريقة ما في مرتبة «قصر» كما أسمياه، ومن اليوم التالي إلى آخر يوم كانت أمّه تسأله على استحياء أن يُرِيَها مكان إقامة كاري غرانت. عبر بها بالسيارة بضعة مربعات سكنية واكتفى بالإشاره إلى بيتٍ فخم، غيرَ عارفٍ ولا مهتمٍّ بمعرفة ما يدور في مستعمرة السينما. أحبّ الأفلام والروايات، لكن من دون فضول بالمشاهير، الممثلين، الممثلات أو الكتاب. أراده أبوه دائما أن يكون حارسَ غابة وما زال ذلك في نظر نوردسترم مسعًى نبيلًا. عندما كان أبوه في لوس آنجلس كان يصطاد السمك على أرصفة البحر أو يكتري قارب صيد إلى خارج سانتا مونيكا. كان قد أكل كميّة كبيرة من السمك المفلطح المقليّ حتى كاد يصاب جديًّا بعسر هضم وانطلق يتحدث عن زيارته الأولى إلى لوس آنجلس في 1930. لقد أتى من عائلة مهاجرة فقيرة أصولها من النرويج تعيش في شيكاغو وعندما ضرب الكساد ضربته أمضى أربعة أعوام من شبابه متشرّدًا في أرجاء الوطن المضطرب.

بعد بعض الملاطفات المختصرة صبيحة يوم العزاء في منزل أمه، وقد غصّ بالأصدقاء والأقارب، ذهب نوردسترم إلى بيت الجنازة ورأى الموتَ نفسَه رأيَ العين. وقف عند التابوت المفتوح، الزوّار الآخرون ابتعدوا قليلا مانحين فسحةً للابن الوحيد كي يعبّر عن شجاه. قبّل جبين أبيه البارد فانهمرت دموعه وارتجف جسمه. زعزع الفقدُ أركانَه وهزّته حقيقة الموت التي لا تخطر على بال. عاد طفلًا من جديد وفاق المشهد استيعابَه فهمس: «بابا» مرة بعد أخرى حتى ذرف آخرَ دمعةٍ في جسده، ومشى خارجًا من بيت الجنازة وهابطًا الشارعَ إلى طرف البلدة حيث مرّ ببحيرة مؤطّرة بالأكواخ إلى طريقٍ من جذوع الأشجار يقود إلى الغابة. صعد هذا الطريق قرابةَ ميل

حتى تجلّت الشمس أخيرًا خلال الغيوم المنقشعة وخلع عنه معطفَه المطريّ. الآن، فجأةً، حلّ صيفٌ هنديٌّ في الغابة والأخشابُ الصلبةُ تلوّنت بالأحمر والأصفر الغامق البديع، متحوِّلةً بعيدًا في الضباب إلى تلالٍ ظليلة بلطخات من البتولا البيضاء والصنوبر الأخضر. مشى حتى تورّمت قدماه ثم نشر معطفه المطريَّ فوق أصل شجرة وقعد عليه. فكر في أبيه، بل وحسده حتى على أيّام الكساد تلك حين طوّف في البلاد كي «يختبر الأشياء من جديد». بادئًا من لا شيء، كلّ شيء كان جميلًا في نظر أبيه ما دام فوق مستوى الكفاف. جنى المال لأنّه كان جديرًا، ذكيًّا ولم يستطع إلا أن يجنيَ المال. كان ببساطةٍ عالمًا آخر، فكّر نوردسترم. بدت حياته هو فجأةً رسميّةً بصورةٍ كريهة. من تراه عرف وماذا عرف ومن أحبّ؟ قاعدًا على أصل الشجرة تحت عبء موت أبيه، بل وحتى تحت الفناءِ الكامنِ في الموت، تحت ظُلّةٍ من أوراق صارخة الألوان، فهم بصورةٍ ما أنّ الحياة كانت تراكمَ أفعالٍ يوميّةٍ متكرّرة. بدا له أنه يرى الوقت متلألئًا يمضي من فوقه وخلَلَ الأوراقِ وحول قدميه وعبره. لا شيء كان يشبه أيَّ شيءٍ آخر، بما في ذلك نفسه، وكلّ شيءٍ كان يتغيّر كلَّ الوقت. عِلِم أنّه لن يستطيع لمسَ التغيّر لأنه كان يتغيّر أيضًا، مع كلِّ شيء آخر. ما من نقطةٍ ساكنة. طفا فوق نفسه وابتسم للرجل المفصّلِ بدقّةٍ قاعدًا على أصل الشجرة وفي فضاءٍ مشمسٍ في أقصى الغابة. نهض واحتضن شجيرةَ حَور تتمايل على إيقاع لم يفهمه. نظر حول فضاء الغابة مدركًا أنّه كان ضائعًا لكنّه لم يهتم لأنّه علم أنّه لم يُعثَر عليه قَطّ.

مشى ناحيةَ الشمس الهابطة عارفًا أنّها في أكتوبر تنحو إلى الجنوب الغربيّ. أتى إلى بركةٍ لم يخبرها وأثار سربًا من البط البريّ أزرقِ الجناحين. طاف حول البركة خلال أيكة من العلّيق، منشبًا فيها بدلته الرسميّة غيرَ مرّة. خاض مُصعِدًا في جدول صغير ملطِّخًا نفسه بالطين إلى ركبتيه راشحًا بالماء حتى

بلغ هضبةً ألقى عندها معطفَه المطريَّ وتسلّق ببطءٍ صنوبرةً بيضاءَ كبيرة ليحصل على زاويةِ رؤيةٍ أفضل. يداه كانتا مسودَّتَين ودبقتين من الصمغ الذي تفرزه الأشجار الصنوبريّة لكنّ المنظر انبسط لعينيه أميالًا عديدة: أمكنه أن يرى برج الكنيسة اللوثريّة الأبيض حيث سيقام مأتم أبيه خلال يومين، رأى زورقًا بخاريًّا يعبر بحيرة، رأى صومعةَ أعلافٍ بلا حظيرة- الحظيرة احترقت حين كان في سنته الأخيرة في الثانوية. لوى ذراعه حول فرعٍ حذَرَ السقوط وأشعل سيجارة، سامعًا طلقَ نارٍ من صيَّاد حَجَلٍ مدوّيًا في البعيد. طار غرابٌ بالقرب فزعًا من حضوره، ناعقًا إذ حلّق مبتعدا كي يحذّر أشباهَه. هناك رجلٌ على شجرة في بزّةٍ زرقاء. نظر نوردسترم إلى بدلته وتسلّى بالدمار الذي لحق بها. أخرج ساعة جيبه الذهبية ووجه الـ 9 ناحية البرج موقنًا أنّ قسمًا من الطريق قريبٌ من حيث تشير الـ 12 إن احتاج إلى أن يتسلّق شجرةً أخرى لأجل نظرةٍ أخرى. أحبّ أبوه تسلّقَ الأشجار وكان دائمًا يخترع عن قصد أعذارًا سخيفةً كي يذهب لتسلّقها. على قمّة شجرةٍ لأوّل مرة منذ خمسة وعشرين عامًا، فكّر نوردسترم أن هذا الفعل كان جزءًا من ولع أبيه بأن «يختبر الأشياء من جديد». حينما كانت سونيا فتاة صغيرة وأتوا إلى ويسكانسن في إجازة صيف أحضرت معها قناعَ غوص. لم يكن أبوه يلقي بالًا للسباحة ولم يلحظ في حياته أقنعة غوص من قبل لكنّه أُغرِم بالتسكع حول البحيرة مع سونيا وبالغوص من على ظهر المركب في أماكنه المفضّلة لصيد السمك. على العشاء كان يحكي أنه رأى سمكة شمس زرقاء «كبيرةً كِبَرَ مقلاةٍ ملعونة» أو كراكيًّا أو قاروصًا كبيرَ الفم «طويلًا طولَ ذراعك الملعونة».

طلع نوردسترم أخيرًا من الأحراش قبيل حلول الظلام قربَ محميّة هنود صغيرة خارج البلدة. مشى نازلًا على طريق ممهّدةً بالحصى إلى حانة مفكّرًا كم سيتسلّى والده لو رأى بدلته ذات الأربعمئة دولار وقد تمزّعت ناهيك

عن حذائه الفلورشيم وقد أصابته ندوبٌ وتكتّلت عليه قطعُ الطين. في الميل الأخير تقريبًا ركّز أفكارَه على البِدَل والحكومة وقرّر بأنّه منذ اللحظة كافرٌ بهما. لا غرو أن البِدَلَ ساعدته في الترويج لسوء الحكومة وكان مذنبًا مثلَ كلٍّ من ارتداها بإخلاصٍ شديد طيلة عشرين عامًا. مؤخرًا بات مرعوبًا من الحكومة لأول مرة في حياته، كيف أن بنية الديمقراطية بدأت تعمل على الحطّ من قيمة الشعب وانتقاصه بدل حثّه على المشاركة في اهتماماتها المتبادلة وبث الحياة فيه. البنية لم تعد مهتمة بالغاية التي صُمِّمت لأجلها، وجزء صغير من السبب، فكّر نوردسترم، يعود ربما إلى أنّ كلّ السياسيّين والبيروقراطيّين كانوا يرتدون البِدَل. توقّف في مرأب الحانة المفضّلة لدى الهنود وقدّم احتراماته للسيارات القديمة المتّسخة والشاحنات الصغيرة المضروبة. ربما عليه أن يستقيل من عمله، هكذا قدّر، وأن يعطي جُلَّ ماله لابنته وبعضَه لأمّه التي لن يكون لدخلها السنويّ قيمةٌ ربما في ضوء التضخم. ثم حذّر نفسه من أفكاره الجنونيّة، معتقدًا أنها قد تكون مرتبطةً بالموت، بالتيه، بتسلّق شجرةٍ بعد رحلة منهكة وبأنّ لقمةً لم تدخل بطنه طيلة اليوم.

فاحت من البار رائحةُ البول والعرق وطرف نوردسترم بعينيه كي يستبين الشاربين. سمع هاتفًا باسمه. إنّه هنري الذي كان منغمسًا حينها في الشراب انغماسًا لافتا. وقف نوردسترم إزاءه متحيّرًا إن كان ينبغي أن يعانق الشيخ الذي بدا أن الخمرة وصندوقَ الموسيقا يميلان برأسه.

«يستحسن أن تهاتف البيت. إنهم يبحثون عنك».

«هنري، أريدك أن تكون حامل نعش»، قال نوردسترم، ثم طلب شرابًا لهنري، وبوربون مع بيرة لنفسه. جرع هنري شرابه جرعةً واحدة ونظر إلى نوردسترم باهتمام.

«لا يمكن بحال من الأحوال أن أضع قدمًا في تلك الكنيسة. كنت اشتغلت أمس طيلة اليوم مع أبيك ولم يبدُ بصحة جيدة. فشربنا بضعة

كؤوس. وهو يقول، «هنري لا أحسّ أنّي على ما يرام وأحسب أنّ قلبي مودّع» فحملته إلى البيت واتصلت أمُّك بالطبيب ثم ذهبنا به إلى المستشفى لأنّه رفض أن يركب سيارة إسعاف. فقالوا أنّ حالته سيئة وأنّه بالكاد يتنفس في الغرفة فجلبوا له الأوكسجين لكنّه أخبرهم بأنّه لم يكن ليموت في خيمة أوكسجين. رقد هناك فحسب شاخصا ببصره وأنا من جانب وأمّك من الآخر. حوالي منتصف الليل قال الطبيب لا أمل. كي نتّصل بك. فعدنا إلى الغرفة وأمسك بيدينا. أمر أمّك أن تصعد إلى جانبه على السرير كي تكون أقربَ شيءٍ إليه ساعةَ يرحل. وقبض على يدي بشدّة، فبقيت. تحدّث قليلا عن صيد السمك. أخبرته أني سأصحبه إلى الموت أبعدَ مسافةٍ أستطيعها لكن ينبغي أن أعود. قال لي أن أُخبرَك بأنّه تمنّى لك حظًّا سعيدًا وأن أقول أنّه أَحبَّك وأن أُقبّلك عنه قبلةَ الوداع».

وقف هنري بعدها وحضن نوردسترم وقبّله على الخدّ لأنّه كان قصيرًا فلم يستطع أن يبلغ جبين نوردسترم. شربا شرابًا آخر في صمت، ثم اقتاده هنري خارج الباب إلى شاحنته.

بعد بضعة أيام سافر نوردسترم عائدًا إلى نيويورك مع سونيا، التي كانت قد حضرت المأتم، ثم من نيويورك ركبت حافلةً إلى بوسطن. أبرقت لورا تعازيَها المتأسّفة من المكسيك، ذاكرةً أنّها كانت ستحضر لولا أنّ النبأ لم يصلها إلا يومَ المأتم. لم يشكّ نوردسترم في ذلك البتة لأنّ لورا أحبّت أباه وكان بينهما من المرح والممازحة ما عجز نوردسترم عن استيعابه. بل إنّها كانت قد توقّفت لزيارته في الصيف الماضي أثناء رحلتها عبر الغرب الأوسط. قالت لورا مرّة أنّها وجدت أباه «مثيرًا»، جملةٌ أرعبت نوردسترم حينئذ. كانت لورا قد امتازت عنه بيقين العارف أنّ الناس تموت بينما حتى الأحداثُ الأكثرُ عاديّةً، والموت أكثرُها عاديّةً، أخذت نوردسترم على حين غرّة.

الفصل 3

انتهينا الآن إلى حيث ابتدأنا وإن نحن إلا في زمنٍ مستمرّ، وهمٌ رائعٌ لأولئك المدمنين على مفاهيم الأمس، الآن، والغد. كلَّ مساء بعد نزهةٍ طويلة وعشاءٍ خفيف يرقص نوردسترم وحيدًا، مشهدٌ عبثيٌّ بالتأكيد لرجلٍ في الثالثة والأربعين، أبٍ، زوجٍ سابق، خرّيجِ جامعة ويسكانسن سنة 1958 مع مرتبة الشرف، رئيسِ الماليّة في شركة ستاندرد أويل في كاليفورنيا في الخامسة والثلاثين، وما إلى ذلك، كأنّ مؤشّراتٍ سخيفةً كهذه كانت فعّالةً في تتبّع أثر حيواننا الثدييّ. إنّها كلُّها عادات مهجورة. الاسم نوردسترُم يعني «عاصفة-الشمال»[1] لكنّ هذا ليس أكثرَ فائدة من «غراب». يتعلّم الواحد القليلَ من دليل هاتف. إنّه الشتاء في بوسطن، سانت بطرسبرغ(نا)، والرجل يرقص، رقصًا أخرقَ توخيًّا للدقة، وبإصرارٍ غبيّ. أحيانًا يقفز فقط في مكانه أعلى وأسفل. ذاتَ ليلةٍ ذهب مع مالك متجر الأطعمة ليرى مباراة سِلتيكس-دنفر نغِتس وليشهد القافزَ الأعظمَ على مرِّ التاريخ، ديفيد تومسون[2]. طفا تومسون في الهواء بزاوية 360 درجة وأقحم الكرةَ بيديه في حلق السلة بضربةٍ خلفيّةٍ من فوق رأسه دون حتّى أن يبتسم. وقف الجمهور على قدميه،

1 - في النرويجيّة واللغات الإسكندنافيّة يتركب الاسم **Nordstrom** من كلمتين: **Nord** بمعنى شمال، و **Strom** بمعنى تيّار أو نهر. فيكون المعنى «نهر/ تيّار- الشمال»، لا كما وهمت الرواية. أما (عاصفة) فهي في النرويجيّة **Storm** بنفس تهجئة الكلمة الإنجليزية.

2- لاعب كرة سلة أمريكي (1954 -) لعب لفريق دنفر نغتس معظمَ مسيرته الرياضيّة.

خرس للحظة، ثم انفجر على هذه القفزة التي لم تكن تحدّيًا للجاذبيّة بقدر ما كانت تخطّيًا لكامل تجربتنا مع الجاذبيّة وتساميًا عنها. أتت سونيا في إجازة نهاية الأسبوع فاصطحبها وفيليب إلى الباليه ليشاهدوا باريشنيكوف. ارتدى نوردسترم بدلةً من كاردان اختارتها له لورا قبل سنين لكنه لم يلبسها من قبل تفاديًا للإحراج. في الصالة أثناء الاستراحة كثيرٌ من النساء الجميلات وشبه الجميلات ابتسمن له معتقداتٍ أنّ نوردسترم شخصٌ ينبغي أن يعرفنه. تناول الثلاثةُ معًا عشاءً احتفاليًّا ساهرًا لأنّ فيليب فاز بمنحةٍ سيقضّي خلالها العام القادم في فلورنسا للدراسة في أوفيزي. ستغادر معه سونيا في يونيو بعد تخرجها. كان فيليب يثرثر عن الموت على العشاء. والده قد مات وهو في الرابعة عشرة ومن حينها اعتاد السهر والتدخين وارتداء الملابس القذرة. قرأ مؤخّرًا لكاتبٍ فرنسيٍّ تحدّث عن «الحريّة المرعبة» التي تأتي مع موت الأب. لا أحد على وجه الأرض بعدُ ليحاكمَك. أسكتته سونيا مراعاةً لمشاعر أبيها. أوضح نوردسترم أن لا معنى لقلقها وأنّه رغم أنّ الموضوع كلّه كان مروِّعًا في ظنّه افترض أنّه ربما كان حقيقةً. لقد كان محظوظًا بأبيه الذي طالما كان مؤيِّدا لأن يتبع نوردسترم أهواءَ قلبه، وإن بدا غريبًا أنّه إلى وقت قريب لم يكن لدى ابنه أيّةُ فكرةٍ كيف يفعل ذلك.

في آخر تلك الليلة وجد نوردسترم نفسه أَرِقًا لأنّه لم يحظ بساعتيه من الرقص. كان قد استمتع بالباليه لكنه فقد البقيّةَ الباقيةَ من الكائن المتفرِّج فيه: كان في طور التحوّل إلى هاوٍ بالمعنى الحرفيّ للكلمة- ذاك الذي يستمتع بالشيء في ذاته، ولديه انفتاح المبتدئ على حياةٍ ضاعت لأسبابٍ واضحةٍ منذ الطفولة. الآن في منتصف أَرَقٍ نَشِط عرف أنّه لم يستطع أن يشغّل الإستريو تمام الثالثة فجرًا لأنّ سونيا وفيليب كانا نائمين. نهض ومشى على أطراف أصابعه إلى غرفة الدرس في سروال نومه ورقص ساعةً دون موسيقا، سامعًا

فقط تكّاتِ ساعةٍ وجرجرةَ قدميه الحافيتين على السجّاد.

17 فبراير، 78: لم أزل أخطط لهذه الرحلة الطويلة التي أنوي القيام بها بعد الاستقالة كيما تتضمن جنوب أمريكا وأفريقيا. مذهل كيف أنّ ريو قريبةٌ كلَّ هذا القرب من دكار. من شهرٍ والمنضدة مغطّاة بالأطالس والخرائطِ من ناشونال جيوغرافيك، وكتيباتِ السياحة، لكنّ الحماسة سريعًا تزول. لماذا أريد أن أتعرف على الغريب وأنا جاهلٌ بالقريب. حقيقةً ذاك الصباح لحظتُ كاحلي لأوّل مرة منذ سنوات. يعجبني الغراب على غلاف ألبوم غريتفل ديد لكنّ الموسيقا عسيرة على الرقص. اشتريت سترة فرو بقلنسوة مع حذاء مخصص لزلاقات الجليد الآلية من محل لأغراض الرياضة على بويلستون ومشيتُ كثيرا بعد العمل. الثلج رائع هذا العام رغم شبه الشلل الذي يصيب المدينة أحيانًا. بين الخامسة والثامنة هو الوقت الأمثل للمشي. أولًا هذه الكهربة التي تدفع الناس لبلوغ بيوتهم بعد العمل، ثم صمتُ العشاء، ثمّ الناسُ وهم خارجون لشؤون المساء. أنفقت الكثير من الوقت أساعد الناس على إخراج سياراتهم العالقة في المواقف. ويسكانسن تجعل المرء خبيرا بالثلج وبطرق التخلّص منه. مسنّ وزوجته دُفنا في سيارتهما الكرايسلر التي جرفتُ عنها الثلج وهو يشهق، ثم هززتها حتى تحرّرت. مدّ لي ورقة نقديّة فئة خمسة دولارات وأصرّ على أن آخذها. قال أنّها لأجل «عشاء ساخن وبعض المشروبات». أعطيتها لمتسوِّل على

مسافةٍ أبعدَ بقليل. اشتريت دزينةً من قمصان هاواي مباشرةً من على الرفّ في جوردن مارش لأجل الرحلة التي فقدتُ الاهتمام بها رغم أنني أخطرت وكيل السفر بإتمام الإجراءات. لطالما رأيتها تعبّر عن ذوقٍ سيِّئ لكن الآن يعجبني ملمسُها الحريريّ وألوانها الغريبة مع أنّني لم ألبس قميصًا منها خارج الشقة إذ لم أجد مناسبةً لذلك. خلصت إلى رأي بشأن تجربتي طبخَ أطباقٍ بسعرات حراريّة منخفضة وفق الأسلوب الجديد cuisine minceur في المطبخ الفرنسي مفاده أنّها طريقة نرجسيّة وسخيفة نوعًا ما رغم بعض الأفكار الجيّدة. للناس أن يأكلوا ما يشتهون ما لم يتجاهلوا تحريكَ أجسامهم قليلا. منذ الرقص نقص وزني ما يعادل فتحتين في الحزام. درست من كثب سمكة مفلطحة نزعت منها الهيكل حتى أمتلك حسًّا أعمق بما كنت آكله. عظامٌ هشّةٌ لؤلويّة، عمود فقري يمرّ داخله نسيج عصبيّ ليّن ينقل لجسم السمكة رسائلَ دماغها الضئيل. اسبحي هناك وهناك وهناك. أتساءل ماذا رأت في حياتها المائيّة. صنعتُ منها مرقةً لكيلا يذهب هباءً موت هذه السمكة التي حمل جسمُها مع انتهائي من دراسته أهميّةً فائقة. ثم طبختُ قبضة شعيرية من المخزن وتناولتُها وجبةً خفيفةً بعد الرقص. أكلتُ أنواعا من الكرش هذا الأسبوع لأنّني اشتريتُ الكثير بسبب خطأ من الجزّار. كرشةٌ ميلانيّة، ثم menudo- مرقة كرش مكسيكيّة- ثم طبق الكرشة الفرنسي الجدير بشهرته à la mode de Caen. رجلٌ كبيرٌ في السن في قسم الشحن مصابٌ بسرطان الكبد. أصدرت أمرًا بمنحه علاوة لأنّه يريد أن يموت في مسقط رأسه في

غالواي، إيرلندا. أمي كتبت إلي لتخبرني أنّها بخير، وأنّ ابنة عمها، أرملة هي أيضا، قد انتقلت للعيش معها. ذكرت أنّ رسالةً لطيفةً وصلتها من لورا. انتصب قضيبي في سيارة تاكسي مفكّرا في مؤخّرة لورا، مصوِّرًا إيّاها أكثرَ من كوني مفكِّرًا فيها. ما أوضحَ تذكُّري رقصتَها على موسيقا ديبوسي منذ سنين طويلة في الصالة الرياضيّة الحارّة. إنّها لتخطف أنفاسي الآن لكن لا مرارة. لم أزل أحدس أفكارًا عن الجنس مع أنّها غير متناسقةٍ في المجمل. مثلًا رأيتُ فيلم Pretty baby وقدّرت أنّه على الرغم من أنّ الفتاة فائقة الجمال إلّا أنّ أمّها هي مَن امتلكت جاذبيّة جنسيّة. إنّها الحياة التي لم تُعَش ما يجعل الرجال يريدون فتاةً في أوائل الورد. في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، لاهيةً لاعبة، مع جمالٍ ناعمٍ ميّاس. العالم في الظاهر مخيف جدا لا عجب. الفتاة تصير أمَّها في ليلة واحدة. اشتقت لتلك الفتاة عند مجلى المطبخ في ماربلهد لكنّ طبيعةَ أشياء كهذه ألّا تعود. مثلًا الآنسة ديتريك كما تحبّ أن تنادَى متزوجّة من مهندس تخطيط مدن، لم تنجب، في منتصف الثلاثين، وهي سكرتيرتي التنفيذيّة رغم أنها تقدر بسهولة على أن تدير الشركة كلها. في الخميس الفائت اشتغلنا اثنتي عشرة ساعة تجهيزا لمراجعة الحسابات وتدقيقها قانونيًّا، الساعات الثلاث الأخيرة أنجزناها في الشقة بعد أن حضّرتُ عشاء خفيفا. كان عملًا شاقًّا ومجهدًا أتبعناه بزجاجة شمبانيا كوربل كي نخفّف من ألم رقبتينا وأعيننا. لقد عرفت هذه المرأة من قرب لثلاث سنوات لكنني دهشت بتأثير النبيذ عليها. بكت وأشارت إلى أنّها إنّما كانت تبكي عليّ لأنّ اليهود أخذوا مني

زوجتي وابنتي. من فرط الصدمة كان بكاؤها مضحكًا فقلت الآن، الآن آنسة ديتريك لا معنى لهذا الكلام مطلقًا. عانقتني وعلِمتُ أنّها أرادت أن تواقعني، ورغم أنّها بضّة الجسم خلافَ ما أحبّه في النساء، قلت لنفسي لم لا. ظللنا على هذه الحال مدّةً وأثناء ما كنا نتراكب فوق بعضنا البعض «أفقت» من السكرة وكانت عجيزتُها أوّلَ ما رأيته في وجهي وقلت لنفسي: «هذا هو الواقع». بقي الإحساس حادًّا لعدّة أيام. ومثلَ الإحساس عندما كنت أشوي لحم الضأن في الصيف الماضي قرّرت ألا أشكّ به إذ يبدو لي أنّ الشكَّ في الأغلب دليلُ شفقةٍ على الذات، ونوعُ تذمُّرٍ من الوجود. يا لَلمسكين المثير للشفقة، يا لِي، وهذا منتن. لم يشكّ هنري أنّه يستطيع مساعدة أبي في موته، فتح له البوّابة وصافحه داخلًا إلى العدم أو أيًّا ما تكونه الأبديّة. لا أقرأ كتبًا في الأمور الغامضة لأنّ القوى الخاصّة، على مذهب اللوثريّين، توهَب لا تُكتَسَب. تعاملاتي في طوكيو مع الشرقيين لم تقدني إلى التفكير بأنّهم مختلفون أدنى اختلافٍ عنا. هنري واحدٌ من مئة من الهنود الحزانى الذين عرفتهم. أعطاني مخلب سلحفاة. في المكتب كم كان مضحكا بصورة رائعة عندما تظاهرت الآنسة ديتريك بأن شيئًا بيننا لم يحدث، تظاهر الألمان على الأرجح. العلاقات الحميمة قد تكون مريعةً في وضح النهار. كما في النزهة بعد أن تهت ثم وجدت الطريق الممهّد بالحصى، لقد عقدت العزم على أن أتخلّى عن السلطة والمال. أفضّل أن أَخفِقَ بيضًا وأصنعَ أومليت. عندما كنت يافعًا وكان عليّ أن أحرث الحديقة أو أن أحفر حفرةً للقمامة كنت أمتعض ثم أضيع في عمل هذه

الأشياء لساعات. الآنسة ديتريك على وعي شديد بالذات لأنّها تريد أن تكون الآنسةَ ديتريك في كل دقيقة. مثل فيليب إذ يحاول أن يكون فريدَ زمانه بهذا التيار المتدفق من الكلام كأنّه كان سيتلاشى لو توقّف عن الحديث. ما أغربَنا جميعًا. في دقيقةٍ ننكبّ على الحسابات وفي التالية على أجساد بعضنا البعض نعضّضُها كالكلاب. أو كالدببة. هنري وأبي مرّةً رأيا بمنظاريهما دبًّا ينزو على أنثاه عبر بحيرةٍ في كندا. قرأت ذاك اليوم أنّ الحيتان في الجنس تمارس سلوكيّاتٍ مثليّة.

أثبت الربيع أنّه صعبٌ بصورةٍ بغيضةٍ على نوردسترم. لقد كان أمر الاستقالة معقّدًا غايةَ التعقيد في حالته. كانت الشركة مملوكةً لعائلة أرستقراطية من نيو هامبشر، يانكيّون حادّو الطباع كان واضحًا أنّهم لم يريدوا أن يرحل عنهم أطفالُهم عباقرةُ الإدارة. عرضوا كلّ شيء وعندما رُفِضَتْ عروضهم السخيّةُ نما سخطهم. وكان أصعبَ من ذلك بل أكثرَ إرباكًا أن يَهَبَ أمواله. لم تُرِدْها سونيا وأمُّه كانت هستيرية. رجلٌ من شركة إي إف هَتن للأسهم ألحّ عليه بأن يرى طبيبًا نفسيًّا ووافق نوردسترم على الفور فضولًا منه وتفهُّمًا أنّه، في نظر الآخرين، كان مُقْدِمًا على فعلٍ فظيع. كان موقف أمّه الغارقُ بالدموع بناءً على أنّه قد كدح طيلة حياته لأجل المال. وسيط البورصة ذهب إلى نيويورك كي يقابل سونيا، آملًا بأنّ بإمكانها أن تقنع أباها بالتصرّف بحكمة. قَدِمت سونيا إلى بوسطن والتقت أباها على الغداء رفقة الوسيط الذي كان نوردسترم يُكِنُّ له وافرَ الاحترام. لكنّ نوردسترم كان مختلفًا وأقنعهم في النهاية بتبرُّعه لاحقًا في ذلك النهار بخمسةٍ

وعشرين ألفًا لصالح جمعية أودوبون الوطنية[1] رغم أنه لم يكن يملك افتتانًا خاصًّا بالطيور. أحبَّ مراقبةَ طيور الساحل مدّة ساعة في نهايات الأسبوع قرب إبسويتش لكنّه لم يرغب في معرفة المزيد عن أسمائها. عندما يرى نوعا معينا للمرة الثانية كان يتذكّر أوّلَ مرّةٍ رآه فيها. نجّاه ذلك من عبء حمل كتابٍ عن الطيور.

ولم يكن قلق الآخرين على نوردسترم اعتباطًا. أنّى لهم، بناءً على طبائعهم الشخصيّة، أن يعرفوا أنّ نوردسترم لم يكن مدمنًا آخرَ على كراك خرائيّ تحت كلّ هذه الضغوط، ما يدرَك منها وما لايدرَك، تلك التي تصنع حيواتنا؟ سونيا، بتشاؤم الشباب المتهكّم، رأت أنّ الوقت قد فات أباها كي يتغيّر. لورا، التي أُبلغِت بالمستجدّات، رفضت أن تتدّخل، معتبرةً أنّ المشكلةَ كلَّها تكمن في أن تكون سخيفًا وساحرًا في الوقت نفسه، مؤمنةً كما آمن الوسيط بأنّ هذا الخطاب المبتذل مرتبطٌ بمفاهيم أزمة منتصف العمر وما إلى ذلك، لغةٌ تشبه في كفرها بالحياة حقيقةَ الحكومةِ المركزيّةَ في وجود كلّ أحد. أمّه اعتقدت ببساطة، ضمن إطار فلسفة الادّخار البروتستانتية، أنّ الناس ينبغي أن يحتفظوا بأموالهم للأيّام السود. كتبت إلى نوردسترم عن شخصيّةٍ بارزة من رينلاندر أصيب بالسرطان وأنفق قرابة سبعين ألف دولار على المجتمع الطبي في محاولةٍ يائسةٍ لإنقاذ حياته. مخاوفُ الآنسة ديتريك كانت أكثرَ تواضعا، متمركزةً حول آمالها في جولةٍ غراميّةٍ أخرى قبل أن يترك نوردسترم الشركة. اهتمام زوجها بالجنس كان شكليًّا وكان بعد أن يدفق ماءه يغرق مباشرةً في النوم بينما نوردسترم كان أميرًا في المداعبة، لقد تهذّب بالتأكيد على يد زوجته.

صبيحةَ موعده مع الطبيب النفسي مشى نوردسترم من بروكلين إلى

1-منظمة بيئية غير ربحية مهتمة بالطيور، تأسست عام 1905.

كامبريدج. حقيقة الأمر أنّه أثناء دراسته المضنية للواقع صار مخبولًا تافهًا. فَهِم هذا وقرّر أن يتماشى معه، كما يقولون. كان صباحًا لطيفًا في أوّل مايو ولحظةَ قطع جادّةَ كومنولث توقّف في الجزيرة المروريّة كي يتأمّل طائرةً عبرت فوقه عند اقترابها من مطار لوغان. الطائرة الفضيّة بدت جميلةً على السماء الزرقاء الغامقة. توقّف في حيِّ ألستون وأفطر شطيرةَ نقانقَ إيطاليّة بالفليفلة الخضراء مع البصل. كانت لذيذةً مع بيرةٍ باردة وتبادل كلامًا إيطاليًّا هجينًا مع البائع الذي احتار أيَّ رقمٍ يختار لرهانٍ بدولارٍ واحد. وإذ واصل نوردسترم مشيَه قرّر مجدّدًا أن لا شيءَ كان مثلَ أيِّ شيءٍ آخر. لا يمكن تقنيًّا لكميّةٍ أن تساوي أخرى. ما من تفاحتَين على الأرض كانتا متطابقتَين، ولا سيارتين عند إشارة مرور، ولا أيِّ اثنين من البلايين الثلاثة أو نحو ذلك من سكّان المعمورة. ضحك مقهقهًا من غرابة هذه الأفكار الفلسفيّة لكنّ ذلك لم يخفّف من حدّتها شيئًا. ولا كانت الكلاب، ولا الأيام، ولا الساعات، ولا اللحظات قطّ طِبقَ بعضها البعض. ثمّ أخيرًا، هو لم يكن الشخصَ نفسَه أمس، وكان مختلفًا وإن اختلافا دقيقًا للغاية على الأقلّ عمّا قبل لحظةٍ مضت. عندما بلغ الجسرَ قربَ كليّة التجارة توقّف وحدّق أسفل منه في الماء المتّسخ بنفايات سائلة ووابلٍ من المطر قبلها بيوم. لقد كان نهر تشارلز وطالما رآه نوردسترم مفتقرًا لسحر الأنهار الجليديّة الصافية شمال ويسكانسن، لكنّ المهووسين بالتاريخ سرعان ما كانوا يقاطعونه للتأكيد على القيمة التاريخيّة لتشارلز. اليوم لم يكن لدى نوردسترم أيُّ رأيٍ في النهر. اكتفى فقط بالنظر إليه لبعض الوقت. مؤخّرًا أضحت ترهقه الآراءُ العقيمة بشكلٍ خاصّ وكان يحاول التخلُّصَ منها. ربما صادف نفسه يفكّر مثلما يفكّر الكلّ: باردٌ جدًّا، ساخنٌ جدًّا، أخضرُ جدًّا، دَسِمٌ جدًّا، حارٌّ جدًّا، مبنى قبيح، نعالٌ قديمة، موسيقا صاخبة، امرأة بيتوتيّة، رجلٌ سمين. لا لأنّه، كما فكّر، ليس بمقدور أحدٍ أن يميّز أو يفرّق أو يصنّف لكن لأنّه صار مملًّا أن تتردّد أو

ترتبك عند إبداء آراء بخصوص كلّ شيء. إلى درجة أنّه حين تخلّص من هذه النزعة شعر بأنّه أخفُّ قليلًا وأكثرُ سيولة. المشكلة كانت أنّ الحياةَ، العالمَ من حوله، بدأ يبدو أكثرَ هشاشة، مضمحِلًا تقريبًا، سريعَ الزوال. مثلًا، نظر إلى النهر طويلًا حتى نسيَ ما كانه النهر. عجوز تدفع عربة تسوّق توقفت إزاءه وألقت نظرةً فوق الحاجز لترى إلى أيِّ شيءٍ كان نوردستْرم ينظر: قال، «نهر»، كأنّما ثاب إلى ما نعتبره رشدَنا، فمضت إلى حال سبيلها، حذِرَةً بعضَ الشيء.

مشى نوردستْرم مع مجرى النهر على طول الحاجز وجلس على العشب في الركن البعيد من مصفٍّ زوارق هارفرد. كان شيخٌ بلحيةٍ رماديّةٍ قاعدًا على مصطبة وقد طوى بنطالَه إلى ركبتيه، مشمِّسًا ساقيه. كان الشيخ يحدِّق في شابّة ترتدي بلوزة بلا أكمام، صندلًا، وتنّورةً خضراء واسعة، وقد أعطت ظهرَها للشيخ ولنوردستْرم، وكانت تلعب مع ابنها الطفل وكرةٌ ليِّنةٌ تتدحرج بينهما جيئةً وذهابًا. عندما انحنت لتلتقط الكرة ماج النسيمُ الغربيُّ من تحت تنّورتها فأحدَّ الشيخُ نظرَه إلى ظاهر فخذيها الأملسين. لم يكترث الشيخ أن ضبطه نوردستْرم متلبِّسًا بشهوة التلصّص، ونوردستْرم نفسُه شعر أنّه محظوظ بهذا المنظر النهاريّ. بعد هنيهة أسرعت المرأة بابنها عبر ميموريال درايف وغابا إلى الأبد. لم يشعر نوردستْرم بالاستثارة الجنسيّة تحديدًا إنّما أحسّ استثارة في المطلق، وإن كانت الأولى موجودةً هي الأخرى، لكن انضاف إليها الشعور بالطعام الطيّب، والنبيذ الطيّب أو ربما شعورٌ آخرُ أغربُ، أن تدع سلمونًا مرقّطًا جميلًا ينجو بعد أن اصطدته. لقد روّحت عنه المشاعر العفوية التي أحسّها جرّاءَ فخذي المرأة.

الساعة مع الطبيب النفسي مرّت سلسةً على الأرجح، دون أيٍّ من اللحظات الفجّة التي توقّعها. الرجل اعتبر نوردستْرم مثل مصابٍ بهستيريا

دينيّة دونها دين وأنه لا يشكّل أدنى ضرر لا على نفسه ولا على الآخرين. الطبيب كان يونغيًّا في تحليله النفسيّ وليس تشاؤميًّا على الإطلاق بشأن ما ارتآه حجًّا بعيدًا عن حياةٍ غير مُرْضِية. سأل نوردسترم عن إمكانية أنه قد يكون يُحمّل أمّه وابنته عبئًا بمنحهما المال. لم يتكدّر نوردسترم بسبب السؤال تحديدًا؛ لقد كان إكلينكيًّا في تعامله مع السخريات، لا يغفل عن عنصرها الكوميديّ وغالبًا ما يتسامح مع الأسئلة القاسية التي أثارتها. تَبع الطبيبُ نظرةَ نوردسترم خارجَ النافذة إلى شجرة قيقب مورقةٍ بالكامل كانت تخسر آخرَ أثرٍ من خضرة مطلع مايو الفاتحة. مريض هذه الساعة تمتّع ببلادةٍ ذكرته بممتهني صيد السمك قرب بيته الصيفيّ في مين. لم يضع اعتبارًا لما قاله الوكيل الماليّ في المكالمة- لقد عالج زوجتَه من قبل ووجده وحشًا مجنونًا خلف قناع الرقيّ والآداب الذي تخلعه هينغهام على قاطنيها. لسببٍ ما مجهول بدت منطقة بوسطن عاصمةَ الاضطرابات العصبيّةِ النادرة ما جعل مشكلة نوردسترم تنويعًا منعِشًا على العاديّ.

«بماذا تهجس الآن؟» سأل الطبيب، مأخوذًا بمدى التركيز في تحديقة نوردسترم خارج النافذة.

«روبن هود. تلك القيقبة ذكرتني بروبن هود. يوم كنت في الثانية عشرة بنيت مع صديقٍ كوخًا صغيرًا أعلى شجرة قيقب ولعبنا روبن هود. ثم انسحب صديقي من اللعب مفضّلًا أن يرمي كرة بيسبول على حظيرة أملًا بأن يصبح هال نيوهاوزر. آلمني تصرّفه لأنّنا كنّا قد جرحنا أذرعتنا وتعاهدنا على أن نصير إخوةَ دم. فنقلت الكوخ الصغير حتى لا يعرف أحدٌ مكانَه لكنّ أبي كشفني وأنا أسحب الخشب وأخبرني أن أبنيَ في شجرة زان لأنّ الصاعقة لسببٍ ما لا تضرب أبدًا شجرةَ زان. لكنني قلت أنّ شجرة الزان لا تملك غطاءً ورقيًّا كافيًا لتخبّئ أيَّ شيء. قال أبي إذن سيكون عليك أن تخاطر وأنّه

طالما أراد حينما كان صغيرًا أن يبني كوخًا في قاع بحيرة حتى تتسنّى له رؤيةُ السمك من النافذة».

«أما زلت تستمتع بخيالاتِ أن تكونَ روبن هود؟» توقّف نوردسترم مدّةً والطبيب أراد أن يتابع مسارَ الفكرةِ اللافتَ هذا.

«أوه إلهي لا. لا أريد أن أكون أيَّ أحد. ليس لديَّ هذا القدر من الخيال. الأولاد يعجبون بالخارجين على القانون لأنّه ليس عليهم أن يفعلوا خلاف ما يريدون. الخارجون يسرقون سرقة ثم يقعدون هكذا في مخبأ يلمِّعون أسلحتهم، تدري؟ كلَّ يوم ببساطة يفعلون ما يشتهون ويكسبون منه ما يكفل لهم عيشة كريمة، على الأقلّ ذاك هو المفهوم الطفولي. الخارجون يظنّون أنّ القانون مليءٌ بالخراء وهي شبهة غير مستنكرة. لكن كي أكون صادقًا فإنني فكرت اليوم في صديقة روبن هود، ماريان أو ميريام؟ في الكوخ كان عندي صورتان، واحدة لواجهة امرأة وأخرى لخلفيّتها. هكذا اعتدنا على تسميتها، واجهة وخلفية. دفعت ثلاثة دولارات مقابل هاتين الصورتين إذ كان صعبًا أن تجد صورًا عارية وكانت ثلاثة دولارات مبلغًا كبيرًا. هذه المرأة التي رأيتها منحنيةً عند النهر ذكّرتني بماريان أو ميريام لأنّها كانت ترتدي تنّورةً خضراء. اعتدت في كوخي على أن أندهش بعض الشيء عارفًا أنّ لماريان أو ميريام واجهةً وخلفيّةً وِفق قانون الطبيعة وأنّ روبن هود ربما قد استفاد من هذه الحقيقة».

«هل لديك تَخيُّلٌ عن المرأة عند النهر؟»

«لا، ليس تمامًا. مرّةً أخرى ليس لديَّ مخيلة واسعة ومن ثَمّ أفضّل أن أتجنب التخيّلات حتى تكون أشبه بمفاجأة عندما تحدث. أحيانا يكون الأمر صعبا بعض الشيء عندما ترى امرأةً بجمالِ مَن رأيتها اليوم. ربما أنّها غرابةُ عقلي البسيط. لحظت ذلك اليوم أنّني إن نسيت تدويرَ ساعة يدي فإنني

أكون مهتمًا دائمًا بمعرفة الوقت المحدّد الذي تتوقّف عنده عقارب الساعة عن الدوران. أتذكر السنةَ التي لم أعد أعثر فيها على سنتات في جيبي أكبرَ مني عمرا. كنت في الثالثة والثلاثين. أشعر بأنّني سخيف إذ آخذ من وقتك، رغم أنّني أدفع مقابلَه. بصراحة، أتعبتني حكايةُ المال هذه حين تركتني زوجتي. بدأت أنظر إليه ببرود. أحببتها بشدّة ثمّ تلاشى كلُّ شيء، في نظرها خصوصًا أكثر مما هو في نظري. ظننت أنّ طموحي دمَّرنا نحن الاثنين مع أنّ طموحها ساعد في الدمار. إنّها لقصّةٌ معتادة. لم أفقد الإيمانَ بها كلَّها بقدر ما فقدتُ الاهتمامَ كليًّا».

«وبماذا أنت مهتمٌّ الآن؟» قاطع الطبيب مجدّدًا واحدًا من استغراقات نوردسترم الطويلة. «أوه ربّاه، لست أدري. أبي الذي مات في أكتوبر كان دائمًا يقول أنه يجبّ أن يختبرَ الأشياء من جديد. ربما هذا ما أريد أن أفعله. قد أذهب في رحلةٍ طويلة. لقد عدت نوعًا ما إلى الحياة من جديد في يوليو الماضي وكان ذلك مبهجًا. في معظم الأيام أكون متحمِّسًا للحياة دون سبب معين. لم أزل مأخوذا بالطبخ وتفاصيله».

حدّق نوردسترم في الطبيب دقيقةً كاملةً وابتسم. «في المساء أرقص وحيدًا، لساعتين غالبًا. أحيانًا أقفز هنا وهناك، تدري؟»

طفا مايو بسهولة. بديل نوردسترم وصل من شيكاغو. أُقيم حفلُ عشاءٍ بسيط توديعًا له وقد وجد كثيرٌ في الإدارة أعذارًا لئلا يحضروا. مجموعة أمتعة فاخرة جهِّزت لنوردسترم. الآنسة الباكية ديتريك أثملها الحزن فأُرسِلَت إلى البيت سكرى في سيّارة أجرة، خططها من أجل المساء فشلت واللانجري المخفيّةُ راح ثمنُها هباءً. أما نوردسترم فوجد نفسه أخيرًا في حي دورتشستر التاريخي بعد جولة على حانات هونكي-تونك، ولَعِبَ القمار حتى الفجر مع رفقةٍ من قسم الشحن. مشى المسافة الطويلة إلى البيت عند الشروق،

صباحٌ خافتٌ وضبابيٌّ والمحيط الأطلسيّ محسوسٌ في الهواء، النسيم بالكاد يُحْدِث ارتعاشةً في الأوراق. شعر بعطفٍ مُلِحٍّ في حيّ روكسبري شبه الخطير على رجلٍ أسودَ طاعنٍ في السن راقدٍ في بركة قيءٍ دمويّ تحرسها العصافير. بعد مربّع سكنيّ أزعجه مرأى شجرةٍ مريضة، محاولًا أن يتذكّر في حيرة لماذا قتل يسوع شجرةَ التين. عندما تتجاوز مظاهر التمدن حتى تلك التي تبدو على كنيسة رسمية فإنك لست ببعيد عن قرع الطبول. الشارع الرماديّ الفارغ الطويل كان شكلًا آخرَ للنهر. كان في وسعه أن يصفِّر ويبدع موسيقاه الخاصة، رغم نكهة مشروب الجين في جيوبه الأنفيّة. كلبٌ هَرِم لَحِقه مسافةَ مربّعٍ سكني وتوقّف كي يتيح له أن يشمَّ ساق بنطاله.

وصل إلى شقته في ساعتين، استحمّ وصنع أومليت بالجبن أساغها بشربةٍ من نبيذٍ أبيض. ذهب إلى السرير لكن لم يستطع النوم. أعدّ إبريق قهوةٍ وقلّب في صفحات مفكّرته دون اهتمام. «رأيتُ فتاةً جميلةً على شاطئ كرينز نِك. قدماها كبيرتان بصورة استثنائيّة. ستقضّي الصيف دون ريب وهي تدفنهما في الرمل عن الأنظار. لعنة الجينات. زميل الصف ذاك بأيره المهول الذي كان مصدرَ الحسدِ السريِّ لكلِّ من كان في غرفة تغيير الملابس بعد حصة الرياضة ضايقوه بالتعليقات فصار خجولًا أبلهَ مجلَّلًا بالخزي. والآن هو أعزب في الريف يقود جرّافةَ ثلج وناقلةَ حصى ويعيرونه 'دُوْرك'[1]». تمشّى نوردستروم في الشقة ورأى الفتاة عبر الباحة تتمطّى في بيجامتها القصيرة. انتصب قضيبه انتصابًا أقربَ إلى ألم ضرسٍ منه إلى أيِّ شيءٍ لذيذ. ندم إذ رأى أنّ تعذيب النفس غيرُ مشبعٍ على الإطلاق. أمال درفة النافذة، تنفّس بعمق، وعضوه ينكز العتبةَ بشكلٍ غير مريح. ابتسمت ولوّحت. لوّح لها، وقلبه يخفق. تمطّت وانسحبت إلى عتمة شقتها. تنهّد وعاد إلى المطبخ وشغّل الراديو. رجل غيرُ

---

1 -لقبًا له أو اسم شهرة. يطلَق على الأهبل أو غريب الأطوار.

مسمَّى غنّى: “Don't Say Mañana Unless You Mean it” فهزّ أشواق نوردسترم إلى الكاريبي رغم أنّه لم يذهب هناك قطّ. جُو كاريوكا أو اسم من هذا القبيل. كان سيستأجر شقّةً صغيرة، يشرب الرم، ويطبخ مأكولاتٍ بحرية. الشمس ستكون حارّةً، والماءُ أزرق. يائسًا من النوم سحب قارورةَ مونتغمري كالفادوس من الخزانة وشرع في الكتابة.

مايو 78: وامسيحاه لا أستطيع النوم وإنّها التاسعة صباحا. شربت أكثر ممّا أشربه عادةً في أسبوع أو نحوه لكن لم أتخدّر. لأنّني في العادة أكون مستيقظًا الآن وأنا لا تستهويني عادات هؤلاء المسنين التي لا تتغيّر. استخدمت معجون الحلاقة نفسه لعشرين عامًا. مشيت من دورتشستر في حالِ غَيْبة. شجاني منظر زنجيٍّ عجوز سكران، شرقتُ بالدمع. كتبت رسالة لهنري أسأله فيها أن يتفضّل بقبول عُدّة أبي لصيد السمك وبندقيَّته لصيد الغزلان. رد علي ببطاقةٍ بريديّة مكتوبٍ في ظهرها: «شكرا هنري» وكان ذلك كلّ شيء. طلبت من أمّي أن تجدَ له من يرعاه في حالِ ألمَّ به مرض. السكِّيرةُ يرحلون سريعًا في بعض الأحيان. قال ذلك أبي مرّةً لهنري على البحيرة فردّ هنري لا أحد يولد ولا أحد أبدًا يموت. قال أبي: «هنري، أنت غاطسٌ في الخراء حتى شعرِ رأسك»، وضحكنا جميعًا. لم أنس الفكرة إذ ربما كان جادًّا في كلامه. قرأت في النيويوركر كيف أنّ هذا الرجل مشى في الهملايا خمسةً وثلاثين يومًا مواجهًا مخاطرَ جسيمة لكي يرى نمر الثلوج ولم ير واحدًا قط. لكنّه، رغم ذلك، سلك مسالك كثيرة ورأى أثره وحاول اقتفاءه. رأيت قطًّا بريًّا ذات مرة في كوخ الشجرة. وغُريرًا ينخر

أيضا. قفز القطُّ البري. صوَّتُّ فطفا بزاوية 360 درجة مثل تومسون واختفى. القطط البريّة متأهِّبة على الدوام. هاتفت صديق الصيفيّة السفاردي كي نرتّب حفلة عشاء بمناسبة تخرّج سونيا. اقترح المطعم في ذا فيلج حيث رأيت تلك الفتاة. لكنه أردف بأنها رجعت للرقص ولم تعد تعمل هناك لكن هل عليه أن يدعوها كي تضفي على الأمسية مزيدًا من البهجة والمرح؟ قلت بالطبع وأرسلت إليه شيكًا تاركًا أمر قائمة الأكل والشرب لذوقه الرفيع. التفكير فيها الآن يحرق معدتي. شعرت بأن حِملًا قد زال عني عندما ذهب المال لكن الآن ذهب الشعور ولا وجود لأيِّ إحساس ما عدا خفّةً جزئية. أمسموحٌ لنا حقيقةً أن نبدأ من جديد؟ سوف نرى، كما اعتاد أبي أن يقول. أنا بطيء في التغيير بطأً محبطًا. كل هذه السنين مع لورا والموتِ البطيء ثم ثلاث سنوات من الموت الحقيقيِّ. ثم فسحة الحظ التي لست معنيًّا بفهمها ربما خوفَ أن تختفي. أشعلت للتو بعض الماريوانا التي تركتها لي سونيا، مثل هيبيٍّ عتيق، أملًا في أن تريح دماغي. تعتقد أنّها ستفيدني رغم أنّي لا أدخنّها سوى مرّةٍ في الشهر. لا أتذكر أنّني قد اشتهيتُ امرأةً بهذا القدر. مشوّش الفكر من الإرهاق. إنهنّ أفضل ما هنالك مهما نالك بسببهنّ. قلبي موجوع. سيكون رائعًا حتى في هذه الساعة لو عندي تلك المرأة السوداء المعتّقة في بيت الدعارة في غرين باي في تلك الرحلة الإلزاميّة أيام الثانوية. حضنتها وأردت أن أبادلها القبل ورأت ذلك مضحكًا. الفتاة ذات الرداء الأخضر على النهر كانت بلا قلب. الآن أنا منتشٍ كما يقولون. الشقة تغصّ بالناس. موظفو قسم الشحن سيأتون.

يوم الثلاثاء بعد 'يوم التكريم'[1] والآن يسمّى 'يوم الذكرى' لأسبابٍ نسيتها. التكريم يُشجِي في يومٍ دافئ. الآن صورةٌ للورا من جديد. أكاد أشمّها. ذلك الصيفَ في كوخٍ من ألواح الصنوبر على جدولٍ في مونتانا وسونيا تلعب في الحديقة. صوت الجدول كان عاليًا لكنّه مريحٌ للأعصاب. كانت تُعِدّ القهوة، ليس عليها سوى سروالها التحتيّ. عقدتْ شعرَها وغسلتْ عنها آثارَ النوم في المجلى. تمطّت. شعاع الشمس من النافذة يضيء ساقيها من الخلف.

---

1 –يوم التكريم، يعرف الآن بيوم الذكرى، عطلة فدراليّة في الولايات المتحدة توافق سنويًا آخرَ اثنين من شهر مايو تكريمًا للجنود الذين بذلوا أرواحهم أثناء الخدمة.

الفصل 4

العالم لا يطيق الحمقى، فكّر نوردستِرم عند الرابعة صباحًا في جناحِ زاويةٍ في الطابق السابع من فندق ذا كارلايل في مدينة نيويورك. رشف رشفةً من البوربون من دون أن يلتذّ بها كثيرًا. كان شبهَ منتظرٍ للهاتف أن يرنّ مع أنّه لا يريد أن يبادر بنفسه. لا سباقَ مع الواقع. كان قد تصوّر اليوم بشكلٍ مختلف، لا بأس بذلك إن كنتَ مع نفسك وبيدك زمام الأمور. لكنّك لن تقترب من السيطرة الكاملة على الوضع إلّا حين تكون في الحمّام، فكّر نوردستِرم وضحك. خارج الحمّام لا بد من وجود مفاجآت وليست كلّها سعيدة. بعضها ترك فراغًا في المعدة كما لو كان المرء يقع عن الأرض على ظهره. شيءٌ سوف يحدث حتمًا على أية حال. الآن أراد لورا أن تتصل لكنّه عرف أنّها لن تفعل. وهو لن يتصل بها ابتداءً. سونيا وفيليب ولورا قد أوصلوه للتو في سيارة أجرة. لقد كاد ينسى أنّ هاويةً كانت بين الذي تمنّى قلبُه أن يحدث والذي على الأرجح سيقع في الساعات التي سعت نحوه قبل النوم.

المفاجأةُ الأولى كانت رؤيةَ لورا من الأساس. لا أحدَ أعلمه بحضورها لكنّه أيضًا لم يكلّف نفسه بالسؤال. ها هي قد حطّت بجواره، بعد تحليقها من باريس. لم يكن قد رآها أربعَ سنواتٍ تقريبًا. خلال المراسم المعهودة لحفل التخرج وتسليم الشهادات ثم استقبال الضيوف، فكّر نوردستِرم أنّ عالمًا بأكمله كان يحدث من وراء ظهرك وكان الأفضل أن تبقى متيقّظ

الحواسّ. بدت في حال جيّدةٍ جدًّا رغم شعوره بأنّه ليس إلا انطباعًا سطحيًّا لم يحسَّه حقيقةً في معدته. عندما انتهى الاحتفال استقلّوا سيّارة أجرة نازلين من يونكِرس إلى فندق ذا بيير حيث كان فيليب وسونيا يقيمان مع لورا قبل مغادرتهم جميعًا في اليوم التالي. تبادلوا الأحاديث ثم أقدم نوردستِرم على خطوةٍ سيّئة مدفوعًا بعاطفيّته المتأصّلة. كانت خمسة عشر ألف دولار نقدًا من فئة المئات مدبّسة بأمان في قماشة جيب معطفٍ رياضيّ. لقد كانت لأجل البي إم دبليو التي وعد بها سونيا قبل سبع سنوات في غرفة الدرس في لوس آنجلس. لقد استفسر عن خيارات الشراء ونُصح بأن تطير هي من فلورنسا (ينطقها فيليب الآن فِي-رين-سي) وتشتري السيارة في ميونخ. هذه اللفتة منه أوقفت الحركة في الغرفة وأشعرته بأنّه أخرقُ ومن طراز قديم، لنقل مثل سِدْ، مالك متجر الأطعمة الذي كان نوردستِرم في لفتةٍ عاطفيّةٍ أخرى قد وهبه كاملَ خزانة ملابسه. أراد أن يسافر خفيفًا. هجموا عليه جميعًا في وقت واحد ودهمه شعورٌ لا يحتمل بالغباء: قال فيليب بأنّ سيّارةً غالية قد تجلب العنف بسبب الحالة المضطربة التي تعيشها السياسة الإيطاليّة. قالت لورا لا أحد يهتمّ بالسيارات. قالت سونيا أنّه قد وزّع سلفًا كلَّ ممتلكاته وأنّها لن تحتاج سيّارةً في فلورنسا. التجأ نوردستِرم إلى الحمّام وشعر بأنّه فقد السيطرة تمامًا. لم يشعر بالإساءة بقدر ما شعر بأنّه في المكان الخطأ مع ما تبقّى من معنى العائلة لديه. سونيا ولورا عانقتاه لحظةَ خرج من الحمّام وفاجأه بصورةٍ صادمةٍ توقٌ جنسيٌّ لكلتيهما معًا. ستختفيان غدًا وإنّها الشهوةُ أشعلها الموت. كسر فيليب هذا المزاج الغريب بالتقاط صورةٍ للعائلة «الساحرة».

مفاجأة ثانية أتت في المطعم. النادلة-الراقصة التي قد تطلّع جدًّا إلى لقائها أحاط بحضورها عندما التقيا نوعٌ من برودِ حيوانٍ وحشيّ، والآن، قاعدةً في الطرف البعيد من الطاولة بين السفارديّ ولورا، كانت تعامل

ما حولها بتعالٍ لا تخطئه العين رغم أنّها لا يمكن أن تكون أكبر بكثير من الخرّيجين وأصدقائهم. كان جليًّا أنّها امرأةٌ من كل العالم بملامح شرقيّة وقوامٍ أميلَ إلى النحول، وأيًّا يكن الدفء الذي قد تنطوي عليه فلقد أحسنت مواراته. كان نوردسترم راضيًا تمام الرضا عن الوجبة المقدّمة (غالنتين بط، محار مطهو بالبخار مع النبيذ الأبيض، سمك قاروص خارج من الفرن مع الشمر، ساق ضأن منزوعة العظم ومنصوفة ثم محشوّة) لكنّ الضيوف كانوا دائخين منغمسين في الشرب أكثر من التركيز على الطعام. لكلٍّ خططُه. كانوا متحمِّسين بشأنها تقريبًا مثل تحمّس نوردسترم بشأن أن لا خطّةَ لديه. مادّة الأمسية الخام كانت أنّ كلّ واحدٍ منهم، عبر مواهب فم فيليب، عرف أنّ نوردسترم قد تخلّى عن ثروته وأنّه كان سيذهب في رحلةٍ طويلة. في الحقيقة، فكّر، كان لديهم أفضليّةٌ عليه في ما يخصّ مستقبله إذ لم يكن هو على ثقة تامّة بموضوع الرحلة- تاريخ المغادرة بعد ثلاثة أيام- رغم أن حُزمة التذاكر كانت في محفظةٍ جلديّةٍ في الفندق. لكنّ حقيقة تخلّيه عن ثروته هي ما جعله، في أعينهم، رجلًا آبِدًا مترهبِنًا على أهبة حج. كان مذهولًا. عرف أكثرهم من الصيفية الماضية في ماربلهد لكنّه قد تغيّر جذريًّا في أعينهم. الفتاة إلى جانبه افترضت أنّه ذاهبٌ إلى الهند وعبّرت عن خيبة أملها بخطّ رحلته. كان قد اعتبرهم عصريّين ذوقًا ومعرفةً وفي أقصى اليسار توجُّهًا سياسيًّا لكن الآن بدا أنّهم يعبّرون أكثرَ منه قطعًا عن الوسط بالضبط. استحضر كيف أن قلّةً قليلةً فقط من راديكاليّ الستينات قد ارتكبوا أيّة حماقة- ألّا يدفعوا الضرائبَ مثلًا- أو تهوّروا بفعلةٍ هوجاء قادتهم في الواقع إلى السجن بسببٍ من معتقداتهم. لقد كانت خدعةً كبرى إذ بدا أنّ أكثرهم الآن يملكون بوتيكات. شيءٌ ممتعٌ كان هنا لا يستطَاع تمامًا تتبُّعُه. الكلّ يلهو ويعبث كالعادة، فكّر. لو كنتُ في البيت، لم يعد ثمّة بيت، لوجدتُني أرقص الآن. بدأ يوحي إليه أنّ المغزى كان أن يرقص في عقله كلّ الوقت

حينما أحسّت ابنتُه التي كان مقعدُها لصْقَ مقعده بكآبته، ضغطت على يده وقبّلته على الأذن، قائلةً أرجوك تعال وزُرني. شعر بحجم قلقها عليه وأومأ برأسه نعم. بدأ وهج المساء يخفّ. انتبه إلى أنّ لورا والنادلة-الراقصة- سارا بالاسم، كانتا تتردّدان كثيرًا على دورة المياه، خمّن أنّه لأجل شمّة كوكايين. عددٌ من الأزواج غادروا إلى ديسكو والحفل الصغير التمّ على بعضه لكن كانت تنقصه روحُ النبيذ السمحةُ الودودة. كانوا في ردهة المطعم وطلب السفارديُّ من النادل أن يغلق عليهم بساتر. أشعل فيليب لفافة ومرّرها. رفيقان آخران غادرا والآن لم يبق في الجلسة سوى لورا، سارا، السفارديّ، فيليب، سونيا، صديقة سونيا المقرّبة التي أرادت من نوردسترم باستماتة أن يذهب إلى كاتماندو، ونوردسترم. شاعت في الجلسة الأُلفة على وقع حكايات السفارديِّ الظريفة، كان بارعًا إلى حدّ أنّ نوردسترم غرق في الضحك ونسي نفسه. رأى عيني لورا تشيران إليه ثمّ تُلمحان سريعًا من فوق كتفه إلى دورة المياه.

هبّ نوردسترم إلى دورة المياه ووقف يطالع تعابيرَ وجهه في المرآة دونما سبب. كان من الطبيعيّ وجود مرحاض هناك ما عنى أنّ الوضع تحت السيطرة من جديد. إذا قعد الواحد على المرحاض فهو الملك متوَّجًا على عرش دولةٍ مشبوهةٍ بمساحة ثمانية أقدام في أربعة، لكن ليس قبل أن تستطيع قفلَ الباب وفي هذه الحالة لن تستطيع. حتى القفل على باب الحمام داخل دورة المياه كان مكسورًا. لعلّ من الأفضل التخلّي عن فكرة المَلَكيّة قبل أن تنحرف عن مسارها. كشفت المرآة عن رجل أقوى بكثير من الرجل الذي أَحَسّه. عرف أنّه لم يكن يُهِمّ في شيء إن كانت الصورة في المرآة صورتَه أو صورةَ رجلٍ غيرِه. جوجو وجه الكلب[1]، مارفن، فارلي كُد- أيّ اسمٍ كان

1 فيدور جيفوتشو (1868 – 1904) ولد في سان بطرسبرغ بحالة مرضية نادرة تعرف بفرط

سيفي بالغرض. الكلب كان حاضرا وقت العشاء لكنه لم يُدعَ باسمه. الكل علم أنه عندما يلزم أن تُدعى باسمك فعادةً ما تُدعى إلى أمرٍ بغيض. قبل أن يقطعوا شجرةً يضع عليها المسؤول عن حساب الأخشاب الواقفة في الغابة علامةً ليستدلّ بها حاملو المناشير الآلية، يجب أن تُفسَّر العلامةُ على أنّها اسمُ الشجرة. كانت ترتسم على وجه نوردسترم ابتسامةٌ عريضة من فكرة الأسماء حين دخلت عليه لورا وسارا. يا لَهذه الأيام. نساءٌ في غرف الرجال. ماذا بعد؟ فكّر. رسمت سارا خطًّا من الكوكايين على طول ساعدها وعرضته عليه.

«بصراحة، أُفضّل المضاجعة».

اتسعت حدقتا سارا سخريةً ونظرت إلى لورا التي التمعت عيناها. ثم ضحكت.

«سمعت أنّك صرت مخبولًا»، قالت سارا.

«سمعت أنّكِ لا تحبّين رجال الأعمال الأثرياء».

«لديهم مزايا بلا شك على رجال الأعمال الفقراء».

قرّبت ذراعَها من أنف نوردسترم. نَشِقه كما تخيّل شيطانًا مدمِنًا ينشَقه أو خنزيرًا مجنونًا. ضحكت لورا مستندةً إلى المبولة.

«لا أحد ناقش اقتراحي الأول»، قال نوردسترم.

تبادلت المرأتان نظرةً وأثار اهتمامَه أن أخذاه على محمل الجدّ. كان ببساطةٍ يحاول أن يُحكِم السيطرة على دولته بشنِّ هجومٍ عدواني. «لنرمِ عملة في

الإشعار الخلقي (متلازمة أمبراس) يزيد فيها نمو الشعر عن معدله الطبيعي. استُغِلّت حالته المرضية وبات من وجوه السيرك المعروفة آنذاك ولُقِّب بجوجو وجه الكلب.

الهواء». سحبت سارا رُبعًا من محفظتها. «حسنًا». اقتربت لورا وقبّلته على الخدّ. «طبعًا هي خيانةٌ بالنسبة إليّ لكنّ هناك ظروفًا مخفِّفة. سأختار الرأس».

زحلق نوردسترم يده تحت مؤخّرتها متحسِّسًا أليتيها تنكمشان قليلًا كعادتها. وعندما كان ربع الدولار في الهواء دخل فيليب متخبِّطًا في مشيته.

«ماذا يحدث هنا؟» قال بنظرةٍ مخمورة.

فرّت السيّدتان وتساءل نوردسترم ماذا عساها أن تكون العقوبةُ النهائيّة لخنق صهره المستقبليّ. خشخش الربع على الحائط لكنّه لم يخفض بصره وهو خارج. جعله الكوكايين يشعر بأنّه قد حُبِس في ما يشبه ثلّاجةً مصابةً بفرط نشاط الغدّة الدرقيّة.

على الطاولة نظرت إليه السيّدتان وضحكتا. ببطءٍ رسم تحديقتَه الفتّاكة التي كان لها تأثير السحر على خصوم التجارة في الأيّام الخوالي. بات الجميع صامتين في توتّر لكن لم تزل عينا نوردسترم يتطاير منهما الشرر حتى خاف كلّ من على الطاولة. لقد ربح الجولة، جزئيًّا قدرَ ما يمكن لذلك أن يكون، لكنّ هذا الجزءَ كان بصورةٍ ما مهمًّا. عاد فيليب إلى الطاولة وهو يُهمهم عن الربع الذي وجده. تجمّد وجه السفارديّ إذ انفتح الساتر بغتة. رجل أسود طويل ألقى نظرة، كان أنيقا ببدلة رماديّة مخطّطة. خلفه، ومتطلّعا من فوق كتفه، إيطاليّ خارج من فيلم رجل عصابات سيكوباتي. تحرك الأسود الطويل بهدوء حول الطاولة وقبض على معصم سارا وشدّ عليه معتصرا إيّاه بقصد إيلامها. ثم مشى منصرفًا وهو يجرّها، كانت مثل دميةٍ نصْفِ قادرةٍ على السير، يُشِعُّ ألَمُ ذراعها الملويّة في وجهها.

«هيه تعال هنا...» قال نوردسترم، مبتعدًا عن مقعده.

«اذهب، يا رجل»، قال الأسود.

لكمه نوردسترم لكمة قوية جدًّا، أسفل خده، فدار الرجل على نفسه مفلتًا قبضته عن الفتاة. ثم التوت ركبتاه فأقعى على الأرض بشدة قبل أن يقف دائخًا على قدميه. لورا وسونيا بدأتا في الصراخ فالتفت نوردسترم ليرى الإيطاليَّ على مقربةٍ منه وفوّهة مسدّس موجّهةٌ إلى بطنه. فرك الأسود فكّه وحدّق في نوردسترم.

«ستموت،» قالها وابتسم.

نادلان مع مدير المطعم هرعوا للنجدة متأخّرين بعدما سمعوا الصراخ. لا جدوى من اهتبال فرصة.

«خلافٌ عائليٌّ فقط،» قال نوردسترم. الأسود ترافقه الفتاة أزاح النادلين عن طريقه. تبعه الإيطاليّ وهزّ المدير كتفيه.

في الفندق فكّر نوردسترم بأنّ الواقعةَ كانت آخرَ مفاجآت اليوم البغيضة. لكنّ التهديدَ بالقتل كان صادمًا بطريقته الفريدة. وعليه أن يتعامل معه. أشياء لا مناص من حدوثها ما دمتَ في الخارج، ما دمتَ قد مشيت بعيدًا عن رواقك. وضع على الورق بعض خطط الطوارئ كما اعتادوا أن يسمّوها في تجارة النفط. بعد ضربه الرجل ضربًا مستحقًّا تطلّب الأمر ساعةً كاملة، زجاجةً كبيرةً من شامبانيا دوم ريونارت ولفافتين من حشيش فيليب كي يهدّئوا روعَ ما تبقّى من حفلة العشاء. أصر السفاردي على أن يتحدث معه حديثًا غاضبًا في دورة المياه حيث واصل تقريعه، «يا إلهي لقد أخبرتك». لكنّ ثقة نوردسترم بنفسه المعبّرةَ أيضا عن ملله من الحديث طمأنت حتى السفارديّ. لقد كان ببساطةٍ ممتعضًا من أية نصائح أو ملامات بشأن الأمسية، على الأرجح آخرِ عهدِه بلمّةٍ عائليّة.

في جناح الفندق كان يفاضل بين عدّة خيارات رغم أنّها خيارات قد

فقدت شيئًا من وضوحها في مزيج النبيذ والكوكايين، وكذلك الإحساسِ بمؤخّرة لورا في يده اليسرى مثل أثرِ صعقة كهربائيّة خفيفة. ربما بعد أكثر من عشرين سنةً قد زال اضطراب الحبّ الهرمونيّ، الغصّة في الحلق والفراغ تحت عظمة القصّ، لكنّ المرء لا يستطيع بسهولة أن ينفي الجنسَ السعيد الذي غدا منحوسًا لكن من دون أن يزول الإحساس به لأسبابٍ لا أحد يفهمها. الخيار الأول كان أن يتصّل برئيس الأمن في شركته السابقة، الذي كان ذات مرّةٍ رئيسَ فرع مكتب التحقيقات الفِدرالي في لوس آنجلس. ستكون مشورته عمليًّا مشورةَ صديقٍ وخبير. الرجلان سيكونان في السجن مع شروق الشمس. نوردستروم رفض هذا لأنه لم يكن حقيقةً قد أحبّ الرجل. كان فيه شيء متملّقٌ وملتوٍ تمامًا ولم يرد أن يدين للرجل بشيء. الخيار الثاني كان معقولًا أكثر وربما أجرى اتصالًا لولا أنّ لورا وسونيا سترحلان ظهر اليوم التالي. إنّه الحارس السابق والتابع الأمين لواحدٍ من أثرياء النفط في تكساس. كان من حين لآخر يتبادل وصفات مع الرجل الذي صار يعيش قرب كوربوس كريستي ويربّي خيول سباق. كان الرجل من دل ريو ويملك جسمًا من نوعية أجسام أظهرة الدفاع في فريق تكساس أي آند إم. كان ينفق على عائلته الآن ممّا يسميه تلطُّفًا: «اختصاصاته». كان شخصيّةً ذكيّة وجمع عددًا من طبعات كتب ديكنز وثاكري. لم يمانع نوردستروم أنّه كان متّهمًا في قضايا ابتزاز تخصّ دوري البيسبول الرئيس لم تعلم بها الصحافة ولا أنّه كان قاتلًا إن لزم الأمر. لكنّ التهديدَ بعدُ، مباشرًا كما كان، لم يبدُ على تلك الدرجة من الأهميّة. ثم رنّ الهاتف.

«عزيزي، هل أيقظتك؟»

«لا، كنت أقرأ. أنفي ما زال مستيقظا».

«حسنا كنت فقط قلقة عليك. تلك الفتاة سارا اتّصلت. أرادت أن

تحذّرني. الرجل خطيرٌ جدًّا...»

«لقد سألت عنه سلفًا، ليس سوى مروِّجٍ ومقامرٍ انتهازيٍّ حقير»، قال نوردسترم كاذبًا.

«أنت ذكيّ، عزيزي. على أيّة حال أخبرتها أين تتّصل بك...»

«هذا ليس ذكيًّا»، قاطعها. «إنّها زوجتُه. لكن لا يُهِمّ. انعمي ببعض النوم».

«آسفة. يا إلهي». ثم كانت لحظة صمت طويلة. «هل تريدني أن آتي إليك؟»

«بالطبع أريدك، لكن سيكون لديّ سببٌ كبيرٌ جدًّا لفتح الباب وترك الحذر. بدوتِ رائعةً اليوم».

«وكنتَ رائعًا كذلك. كان جنونًا بعض الشيء لكن كنت سأنساق معك في المطعم».

«وكذلك أنا لكنّنا لم نفعل. وداعًا عزيزتي».

«وداعًا. انتبه لنفسك».

كان مغتمًّا بعض الشيء بشأن قوّته في عدم السماح للورا بالمجيء إليه. عائلته ستختفي غدًا في طائرة نفاثة. فجأة خطر له أنّ في وسعه لو أراد أن يستردّ لورا. خلال العشاء رمت سونيا بتلميحةٍ مقصودةٍ أنّ أمّها لم تكن سعيدة. بعد أن غادروا المطعم حقّقت معه لورا بعصبيّةٍ حول خططه. عند نقطةٍ ما توقّفت سيّارة الأجرة كي يتقيّأ فيليب في قناة التصريف. لم يعتد الشرب إلا لِمامًا ثم عبّ في ليلة كثيرًا من النبيذ. قال نوردسترم أنّه ربما يأخذ ثمن تذاكر الرحلة نقدًا ويذهب إلى مدرسة طبخ لبضعة أشهر. ثم قد يُحصّل

عملًا في مطعمٍ على المحيط. استرسل في أحلامه بتأثير النبيذ والكوكايين والسيارةِ المسرعة: سيطبخ على وقع أمواج المحيط ويشتري قاربًا ليصيد السمك خلال ساعات الفراغ. لم يقرّر ما إذا كان الأطلسيَّ أم الهادئَ أم الكاريبيّ. ربما الكاريبي فلقد اشترى القمصان سلفًا. سونيا ولورا قاطعتاه بحماس، قائلتَين أنّهما ستشتريان له مطعمًا لأنّه قد بذل أمواله كلَّها لكنّه قال لا، لا أريد أن أملك مطعمًا، أريد فقط أن أطبخ في واحد. بدت عليهما لمحةٌ من حزن بعد ذلك ولم يستطع التخفيف عنهما بشيء.

ثم اتّصلت سارا وقالت رغم أنّها الخامسة فجرا إلا أنّها أرادت أن تأتي وتشرح له أمورًا محدّدة. قال أنّه سيقابلها على الغداء في مطعم (مِلون) عند الواحدة ظهرَ اليوم التالي. بدت مندهشة لكنها وافقت. كان متأكّدًا بدرجة معقولة من أنّهم ظنّوا أنّه أبله وأنّهم أوقعوا به. كان يعلم أنّ لديه ميزةً معيّنةً بخلاف ما يظهر منه: افتقر إلى سوء الفهم المعتاد الذي تتسبّب به التصورات المسبقة عن الناس. سارا، زوجُها، والسفّاح الإيطاليّ عبثوا في نيويورك مثل طواويس عنيفة. من عثر من الناس وكانت عثرته مميتة فإنّما أوقعه الجشع وعدم فهم أنّها لعبةٌ متناهيةٌ ومحدودةٌ مهما تعقّدت. تعلّم نوردسترم هذا من عمله في النفط إن لم يكن من قبل. ما زال أَرِقًا فشرب بيرةً باردة ودوّن بضع ملحوظات في مفكّرته.

15 يونيو، 78: مشكلة جديدة ومثيرة. لقد هُدّدتُ بالقتل. رأيت هذا إهانةً بكلّ بساطة وسأتعامل معها وفق شروطها. وإلا سأرحل بعيدًا فلم يعد شيءٌ يبقيني هنا. لكن ليس هذا هو المغزى. الناس يحقّرون أنفسَهم غاية التحقير حين يدعون للحمقى أن يتحكّموا بمصائرهم، سواء الحكومة أو آلاف

الأصناف من المجرمين. متفاجئٌ من رفضي للورا، أوّلَ مرّةٍ أفعلها، لكنَّ الحياة من بعدُ مسألةُ خيوطٍ مشدودةٍ، مُرخاة. أتذكّر الليلة صيد سمك الشمس وسمك الفرْخِ مع أمّي، كيف كان عليّ أن أضع الطُّعْم في الخطّاف فلم تكن تطيق لمس ديدان الأرض والديدان الحمراء، وأن أنزع السمك أيضًا. كذلك عندما ذهبنا لقطف التوت البريِّ ورأت ذلك الدبَّ قالت احتمِ بي وقلت أمّاه عمري ست عشرة وجسمي أكبر. لا بدّ أن أهاتفها غدا، ربما أذهب لرؤيتها، ورؤية هنري أيضًا ثم أقصد الجنوب في الخريف. أمي العزيزة أنا في ورطة. غالبا سينتظر هنري حتى يحل الظلام ثم يطلق عليهما النار. لا أحد من الشباب تجرّأ يومًا على مضايقته أو الهزء به حين يكون سكران مثل بومة. أشك في أنّني أحتاج مدرسة طبخ رغم ضعفي في إعداد بعض أنواع الصلصات والحلوى. هذا العنف العشوائي يحزن القلب. جهّزت حفلة عشاء رائعة لابنتي. أستطيع أن آخذ الطائرة بعد غدٍ إلى ريو لكنّ التهديد سيلاحقني في كل مكان مثل وجع ضرس. بالطبع فهو غير محدودٍ بالمدينة. سمعت في جنازة أبي عن ذلك المخمور الضخم قاطع الأخشاب الذي عاش في كوخ قرب المنشرة، أنّه سئم من نباح كلب جاره فخرج ذات ليلة وانتزع رأس الكلب بيديه ثم ضرب بجثته المالكَ دون ضمير. عوقب بالسجن ثلاثين يومًا ونُقِل إلى دولوث. لورا يمكن أن تكون هنا الآن تتحدث عن العنف العشوائي. كم كانت عشيقةً بارعة، ربما لم تزل. مرة قرأنا كتابًا حديثًا عن الجنس ولم نجد فيه شيئًا لم نكن قد مارسناه من قبل. أشتاق لرقصي. يا لَهشاشتنا البيولوجية.

تمضي في الحياة ثلاثا وأربعين سنة ثم يشهر أحدهم سلاحًا في وجهك، يلوِّح بسكين أو يوجه إليك عيار (38.) ويتمنّى لك ليلةً طيبة. حادثة اصطياد الغزال تلك حينها كنت في السادسة عشرة. عاملا مصنع في ميلواكي على بحيرة وِلز. رمى أحدهما الآخر ظانًّا أنّه غزال. كنت بالقرب وحملت للطبيب حقيبتَه. أخبرت المسعفين أنهم لن يحتاجوا الأوكسجين لكنّهم نقلوه معهم إلى الغابة على أيّة حال. كانت طلقة (30-06.) وقد دخلت الرصاصة من تحت حزامه، ضربت عظمةَ الورك وانحرفت شاقّةً طريقَها إلى الأعلى وخرجت من أسفل لوح الكتف محدثة ثقبًا بحجم تفاحة. الهواء كان باردًا، الجرح تعفّن وعيناه كانتا مفتوحتين. أتخيّل سونيا تتجوّل حول متحف أوفيزي وبيدها دفتر، جميلة وفي غاية التركيز. ما اسم ذلك النهر في فلورنسا؟ يجب أن أنام قليلا. لقد أشرقت الشمس وعليّ أن آخذ حذري.

في الصباح حلق نوردسترم بموساه، شاحذًا شفرتَه على حزامه الجلديّ الناعم، كما علّمه والده مصِرًّا على أنّها الطريقة الوحيدة للحصول على حلاقة جيّدة. أطلّ برأسه خارج النافذة بينما يشرب من إبريق قهوته ذي الثلاثة دولارات كي يستطعم دفءَ الضحى. بعيدًا في الأسفل رجلٌ في مريلة بيضاء متسخة كان يدخِّن سيجارةً في زقاق. يجدر بالطاهي أن يدخِّن سجائره ناظرًا إلى المحيط، فكّر. لبس قميصا فاخرًا من قمصان هاواي (راكب أمواج باتجاه شمسٍ غاربة) وبنطالًا فضفاضا. دسّ موسى الحلاقة داخلَ زوجٍ بمستوى الكاحل من أحذية الصحراء، لن يريحَه في المشي لكنه سيكون في المتناول عند

الحاجة.

وصل المطعم عن قصدٍ أبكرَ بنصف ساعة. لمح الإيطاليَّ أسفل الشارع في سيّارة واقفة ودفع لنادلٍ عشرة دولارات كي يوصل إليه ورقةً كُتب فيها «هاي! احترس». كانت سارا جميلةً لمّا دخلت وعديد الرؤوس التفتت. قعدا جنب نافذةِ الزاوية ولاحظ أنّ السفّاح لم يعد هناك. تحدّثا عن الرقص بينما أكل نوردسترم شريحتي لحمٍ بصلصة الترتار والتهت هي بصحن سلطة. بدأت الرقص وهي في العاشرة، دارسةً على يد آندريه إغلفسكي الذي مات من وقت قريب. كانت تأمل أن تذهب إلى مدرسة جاكوب بيلو للرقص في شهري يوليو وأغسطس. كانت ابنة أستاذ قانون في جامعة نيويورك. تزوّجت سلاتس لثلاث سنوات. كان رجلًا مثيرًا رغم مزاجه المتقلّب العنيف. فكّر نوردسترم في أنّها لم تُلمِح حتى الآن إلى كونها في الواقع كائنًا بشريًّا. كانت أشبه بصورة فوتوغرافية أو بانعكاس في مرآة. قالت أنّها تحتاج إلى أن تتحدّث معه في أكثر الأماكن خصوصيّة وربما كانت غرفته في الفندق أنسبَ من مطعم.

مشوا المربّعات الستة أو السبعة إلى الفندق وعلى نوردسترم أثر ظَلَعٍ خفيٍّ من الموسى في حذائه. قرّر أنّه أحبّ نيويورك كثيرًا ومتى هدأت الأمور وبعد زيارة ويسكانسن، ستكون نيويورك مكانَ ارتياده مدرسةً للطبخ. حتى الهواء الكريه كان لطيفًا، مزيج الأوزون والأوكسجين يسبِّب بعض الإدمان، الروائح الآتية من المطاعم ومراوح المترو، ناظرًا بتخمةِ غداءٍ ثقيلٍ إلى تمثالٍ نصفيٍّ لبلزاك أبدعه رودان، وهنا في الجانب الشرقيّ، السيدات الأكثرُ فتنةً في العالم. إن لم تطق العيش في الغابة لأسبابٍ تعود إلى قلّة الراحة فلا بد أن يكون هذا مكانًا جيّدًا. ضواحٍ في كل مكان كانت قتّالةً بالخدر والسبات العميق. لا شيء يشعّ وكلُّ الأشجار بدت مغروسة. وقف في محل

كي يشتري جبنة ماعز نورمانديّة ملفوفة بالقشّ، رائحتها تنسرب من العلبة. كان يتسلّى بقلّة صبرها وتوقّع بدّقةٍ ما سيحدث: ستغويه ثم بعد ذلك في دور القَلِقة على حياته ستعرض عليه عرضًا خياليًّا كي ينجو بحياته. لم تكن ممثلة جيدة. كان خفيف الروح ويتقافز رغم موسى الحلاقة، مطمئنًّا إلى أنّ أيَّ سوءٍ لن يحدث قبل حلول الليل.

وهكذا انجلت الأحداث. في الغرفة أخذت بعض الكوكايين ورفضه نوردسترم. كانت ميّالةً إلى اللهو، شغّلت الراديو وأدّت بعض الحركات الراقصة. خلعت كلّ شيء عدا ملابسها الداخليّة وخطرت تمرح حواليه. عبّرت عن مدى إعجابها بلورا وسونيا وعن أسفها الشديد أن حدث ما حدث. مارسا الجنس قرابةَ نصف ساعة ثم ملّت تمثيلها فأكملت المضاجعة في صمت. بينما كانت في الحمّام سحب نوردسترم المسدّس (32.) من حقيبتها بمنديله ودسّه تحت مرتبة السرير بينما يصفّر أغنية الحانة القديمة "Heart of My Heart". عندما انتهت من حمّامها خرجت متظاهرة بالحزن واستنشقت خطين آخرين من الكوكايين.

«لا أدري إن كنت أستطيع مساعدتك...»

«تساعدينني في ماذا؟ أشكّ في قدرتي على إنهاضه من جديد. أنت طاحونة هوائية صغيرة مجنونة. إلهي». تثاءب بعمق.

«أعني حمايتك من سلاتس. إنّه غاضب حقًّا. في الحقيقة لا أحد ضربه وعاش».

«ولا حتى أمّه؟ ألم تصفع مؤخّرته قط؟ أراهن أنّكِ قد صفعتِه من قبل».

«من الأفضل أن تأخذ الأمر بجديّة. كان بوسعه أن يُنهيَك البارحة لكني قلت، لا سلاتس. لم يكن يقصد. لكن هذا أقصى ما أستطيعه». كانت منفعلة.

«لكنني قصدت إيذاءه. لقد أفسد حفلة ابنتي. ربما أريد منه اعتذارًا. أبلغيه ذلك. أخلاقه سيِّئة...»

«ما هكذا يا متخلِّف. لولاي لكنتَ ميّتًا. لقد توسلته وفي النهاية قال هذا الصباح أنه سيقبل عشرة آلاف لئلّا يقتلك. هذا عرضٌ نهائيّ. لك حتى منتصف الليل غدًا. وإياك والهرب. سوف يجدك. عنده علاقات في كلّ مكان».

«أخبريه أنّ ذاك هو عرضي، أيضًا».

«عمّاذا بحقِّ الشيطان تتحدّث؟» بصقت.

«لن أقتله قبل ليلة الغد. هذا يجعلنا متعادلَين. لا أحد يقتل أيّ أحد. لا أحد ملزمٌ بالذهاب إلى البنك. كلّ واحد يحتفظ بماله».

غادرت بمزاج متعكّر بعد أن دوّنت رقمًا وقالت أنّها تمنّت أن يعود إلى رشده. أغلق نوردسترم الراديو وركّز على فكرة العودة إلى رشده. لم يشعر قطّ أنّه كان ضمن نطاق رشده أكثر ممّا شعر الآن، حقيقةً. ثبّتَ موقعَه على الأرض ميّتًا في قلب نيويورك بينما في الوقت نفسه تختفي عائلتُه عاليًا فوق الأطلسي. أمّه وصديقُ أبيه الحميم هنري كانا في شمال ويسكانسن. كان قد تغدّى الآن وضاجع. ثم أتت قيلولة كان يحتاجها بشدّة، نزهةٌ طويلةٌ فعشاءٌ متأخّر. ربما فيلم. لكن أحسّ في فمه مذاقًا عالقًا من سؤاله السفارديَّ عن سارا قبل صيف، فضولِهِ المتزايد بعد تحذيره منها. تسلّى بفكرة المطار، أو باستئجار سيارة. أو الاتصال بكوربوس كريستي، متخيِّلًا بدائل بلا فوائد. ثم اتخذ قراره واتصل بالاستقبال وطلب منهم أن يحجزوا الغرفة المجاورة ويضيفوها على حساب الجناح. ثم اتصل به السفارديّ في حالة منزعجة مضيفًا أنّ عنده ابنَ عمٍّ ثانيًا في بروكلين مجنونًا هو الآخر ومستعِدًّا

للمساعدة. أكّد له نوردسترم أنّ كلَّ شيء كان «هيِّنًا ليِّنًا»، وأنّه سيتّصل إن كان ثمّة مشكلات. ظهر عامل الفندق بالمفتاح الجديد، واستعدّ نوردسترم لقيلولته. نبذ فكرةَ أنّ المسألةَ برمّتها لم تكن عادلة وأنّ محاولة الابتزاز كانت أكثرَ حمقًا من أن تؤخذ بجدية، حتى مع التهديد. الاختبار الحقيقيّ سيأتي لاحقًا في المساء؛ إن لم تبدر حركةٌ تُغيّر الأجواء فسينسى الأمر.

بعد سبع ساعات كان جالسا على كرسي في الغرفة الجديدة يتصفح مجلة أودوبون. كان قد قرأ سريعًا كامل كتاب سيوران A Short History of De-cay، كتابٌ تركه له فيليب. أصبح سيوران على الفور كاتبَه المفضّل ونوى أن يطوف المدينة للحصول على كتبٍ أخرى. نشر أسلحتَه حول الغرفة؛ الموسى على عتبة نافذةٍ مشرعةٍ بالكامل، مسدّس سارا لم يزل ملفوفًا في منديل-البصمات قد تثبت نفعها- وأمامه على المنضدة زجاجة نبيذ ملفوفة في فوطة يدٍ رطبة لاستخدامها هراوةً. كان واعيًا بالسخافة التامّة لما كان يفعل. كان مستحيلًا ألّا يبتسمَ رغم الخطر البيّن إلا أنّه توصل إلى إمكانيّة امتلاكه صفةً بسيطةً يمتاز بها الهواة: تركيزه كان كاملًا لأنّه إمّا قد خسر أو قد تخلّى عن كلِّ شيء على وجه الأرض. ذهب عبر الباب المشترك غير المقفول ومرّ بجانب النافذة المطلّة على الشارع وأطفأ الضوء. الآن إذا رأى أحدٌ النافذةَ فربما يفترض أنّه كان ذاهبًا إلى النوم. وضع عددًا من علب البيرة الفارغة مفرّقةً على الأرض وبداخلها ملاعق بمثابة نظام تحذير طفوليٍّ مبكّر. التقط مفكّرته، عبر الجناح إلى الغرفة الجديدة، تاركًا الباب الداخليَّ موارِبًا. شكّ في أن يقاوم أيُّ متسلّلٍ إغراء الغرفة الجديدة. رفض توقَه الشديد إلى الشراب.

18 يونيو، 78: فتاتاي رحلتا ظهر اليوم مع فيليب إلى أوروبا. أنا قاعد ها هنا أتحرّى رجلَ سلاتس، ربما الإيطالي،

أن يظهر ويتوعّدني أكثر- ربما يضربني ضربًا غير مبرِّح على وقاحتي في الردّ على الابتزاز. يا للمفاجأة سيكون مفترِضًا بأنّني ناجح. سأبحث عن مدرسة طبخ غدًا، وعن كتب سيوران أيضًا. أحببت عناوين الفصول «خيلاء الصلاة»، «جرائم الجرأة والجبن»، «مهزلة ما يسمّى 'حياة جديدة'»، «الانقياد لليل» و«أن تدير للزمان كتفًا باردة». رغم حقيقة أنّ فيليب سافلٌ حرفيًّا لا بد أن أبعث له برسالة شكر. ليت لي بسمك شمسٍ مقليّ. بشراب. بامرأةٍ جميلة. أتساءل ماذا يفعل سيوران كلَّ يوم كاتبًا عن هاوية اليأس تلك. مجترِئًا على أن يكتب ويسأل رغم ظنّي بأنّه كان سعيدًا بصورةٍ معقولةٍ أن أخرجه من نظامه كما يقولون. لستُ عنيفًا ولا مهتمًّا بالعنف. الإعلام يضفي على هذا الهراء باستمرار طابعًا رومانسيًّا. لم أقرأ قطُّ أيَّ شيءٍ عن أيِّ أحدٍ عرفته وكان دقيقًا. العالم فوضى. ولقد ترى ضنى مقاومةِ هذا المبدأ إن مرّةً تأمّلتَ الوجوه. إنذاري الأوّل سيكون صوت المصعد إلا إن استخدم الدرج. لكنّ ذلك الباب مقفول من الداخل. الأقفال عديمة الفائدة ما عدا ضدّ المجرمين الأكثرِ إهمالا. أتمنّى لو كنتُ أملك ذلك الكلب الضخم من سلالة كلاب الرعي البلجيكيّة الذي صدمته سيّارةٌ أدنى الشاطئ. سيّئٌ أن تحتفظ بكلبٍ مثل هذا في المدينة. أخبرني السفارديُّ عن مطعمٍ إسبانيٍّ يطبخ حبّارًا من الدرجة الأولى. ربما ليلة غد. نسيت أنني أكلت كلّ ذلك العجين في مِلون حتى دفعت الفاتورة وشعرت بالتخمة. تملك سارا واحدًا من هذه الفروج الأنثويّة المصوغةِ حقًّا بجمال. إعجازُ تصميمٍ حكيم، آمين. تذكّرت أنّ بإمكاني

الاتصالَ بصديقٍ قديمٍ في منصب رفيع في إدارة مكافحة المخدرات علّهم يضيّقون الخناقَ على سلاتس. لكنّي أكره بصورة غريبة أن أرى أيَّ أحدٍ محبوسًا. والأفضل أن تتعلّم كيف تحكُّ جلدَك بظفرك في هذه الحياة الجديدة التي اخترتَها بمجاهدة. منتصفُ الليل الآن.

نهض نوردسترم من المنضدة وببطءٍ رسم بنظره نصفَ دائرةٍ متفقّدًا مواضعَ أسلحته. مرتديًا سروال النوم حرّك قدميه وجرّهما راقصًا قبالةَ المرآة قبل أن يطفئ الضوء. إن سارت الأمور على ما يرام فسيحصل على غرفة أو شقة صغيرة مستأجرة وجهازَ راديو كي يبدأ الرقص من جديد. لقد دفع قيمة الجناح مسبقًا لمدّة أسبوع: أكثر من مئتي دولار في اليوم- معتقدًا أنّه ربما احتاج إلى الترفيه- لكن الآن عرف أنّه ينبغي أن يقتصد. بدأ يقصي كلّ شيء من ذهنه كي يستطيع بجلوسه هناك أن يسكن بشكلٍ كاملٍ ضمن نطاق أذنيه فقط. ترك عامدًا ساعته في الغرفة. فهذه الأشياء تتحرّك في زمنٍ مغاير وساعةٌ في اليد إلهاءٌ بلا طائل.

كان مثيرًا له أن لاحظ أنّه في الظلمة، إلا إذا فكّر، تظلّ الصور تعوم بكسلٍ عبر عقله. اكتشف أنّه إن لم يركّز على هذه الصور العقليّة، مهما تكن آسرة، فإنّها تختفي. جاءته تترى من اليسار إلى اليمين: سونيا في سرير مهادها، عاصفةٌ رعديّة على البحيرة وغرنوقٌ يطير عابرًا صحن الماء المعدني، أمٌّ تقطف فراولة بريّة، حطامُ سفينةٍ على طريق سان دييغو السريع، رقصٌ في بروكلين، هليونٌ في ماربلهد، امرأة مذهلة ما رآها قطّ في حياته. الآن عيناه كانتا مثبّتَين إلى إهاب نور رقيقٍ يتسلّل من فوق المبنى المقابل. إنّه القمر، قريبًا من أن يكتمل وهالات نيّرةٌ أرته الغرفة وموضعَ قدميه على الأرض. علبة بيرة

نُقِرَت بملعقتها. قام من فوره وسوّى سطح ظهره العاري قربَ عِضادة الباب. المستقبل أتى بسرعة خمسة أنفاس في الثانية وقلبه علا وسط أضلاعه. شعر بحكّة صغيرة الآن داخل سروال بيجامته تحت الرباط بالضبط. ثم انفتح الباب وخطا الرجل ثلاث خطوات بطيئات إلى الداخل، توقّف والتفت نصف التفاتة، وخطا ثلاثًا أخريات. نوردسترم مرتكزًا على الباب اندفع خلال الغرفة قابضًا على الرجل من أسفل ظهره؛ خطوتان طويلتان ثقيلتان وكبّ الرجلَ إلى خارج النافذة قبل حتى أن يبدأ في المقاومة، وأمسك بعارضة النافذة حتى ينقِذَ نفسه. خلال الطوابق القليلة الأولى من سقوطه كان الرجل صامتا ثم ارتفعت صرخةٌ تلاشت في البعيد حتى ارتطم جسده بصناديق القمامة. خطرت على نوردسترم هذه الفكرة الطريفة أنّ الأمر كان أشبهَ بقذف مرساةٍ ضخمةٍ في مكانٍ عميقٍ جدًّا حيث لأسباب غريبة لم يكن ثمّة ماء. رمى مسدّسَ سارا خارج النافذة أيضًا، ثم مسح بالمنديل العرق عن وجهه. شعّ نور القمر واضحًا وعذبًا على وجهه وصدره. ما أكثر ما نسي الزوّار أنّ القمر كان يشعّ على مدينة نيويورك.

في الصباح، للتوّ قد استحمّ وكان يتناول قهوتَه ويتحدّث إلى أمِّه عندما أتى المحقّقان، أدخلهما وأنهى المكالمةَ سريعًا؛ كانت أمه تخطّط لرحلةٍ إلى هاواي رفقة ابنة عمها إيدا في نوفمبر. كانتا تأملان في رؤية جاك لورد خلال تصويره مسلسل هاواي فايف-أو. محقّقٌ قَبِل كوبَ قهوة فيما الآخر نظر إلى خارج النافذة. كانا ضجرين. لا، نوردسترم لم يكن قد سمع شيئا. غارقٌ في النوم. احتفالٌ صاخب. ابنته تخرّجت ثامنةً في دفعتها في سارة لورانس. لماذا الغرفة الأخرى؟ ظنّ أنّ زوجته السابقة وابنته قد يقضيان معه يومًا إضافيًّا. ذهب إلى النافذة ونظر معهما إلى الأسفل. أوه يا للعار. روح مسكينة. انتحار. ربما لكنه ليس ضيف فندق ولا مواطنًا معروفًا. مجرم في الحقيقة وكانا يحاولان

معرفةَ ما كان يفعله في الجوار. كان صباحا حارًّا وعرض عليهما نوردسترم بيرة لكنّهما رفضاها بأدب. تنتظرهما طوابقُ أخرى. شكرًا.

بالكاد غادر المحققان الغرفة حين أجابت سارا على الاتصال الذي كان قد أجراه بسلاتس قبل أن يذهب إلى السرير في الليلة الماضية. كان نوردسترم في غاية الجدية. السجين قد قدّم اعترافًا كاملًا قبل أن يرمي بنفسه من النافذة بدافع الحزن. ربما لم يكن قد عدّ الطوابق في المصعد. من يدري. أصرّ على أن تشاركه هي وسلاتس وجبةَ الغداء في المطعم اليابانيّ في فندق والدورف. ثم يمكنهم جميعًا أن يتفقوا على حل. بعدها رتّب نوردسترم لعشاء مع السفارديّ، فلربما كانت لديه نصائح مفيدة بخصوص اختيار مدرسة طبخ.

في الحقيقة كانت مشاعره مختلطةً تجاه ما فعله لكن بدا أن لا بديل. هؤلاء المجرمون قد يصل بهم الأمر أخيرًا إلى تهديد عائلته. لقد كان مستعدًّا للتضحية بروحه لو أخذت الليلة مسارًا آخر. لكنّه ليس بالشيء التافه أن تعجِّل بروح كائنٍ آخرَ إلى الأبديّة. نادرا ما وُجِد إنسانٌ على الأرض كان سيِّئًا بما يكفي ليموت. لبس ودار مكتبات الحيّ باحثًا مع بعض النجاح عن كتب لسيوران، وجدها أخيرًا في مكتبة بوكس آند كومبني المفتتحة حديثًا قرب متحف ويتني. عندما وصل إلى والدورف كان سلاتس وسارا قد أخذا مقعديهما سلفًا، لا شكّ أنّهما قد وصلا باكرا كي يتفحّصا المكان ويتخيّرا فريسةً جديدة ربما. بالكاد اهتدى نوردسترم إلى مقعده على يد (غيشا) باهيةِ الأصباغ عندما وقف عند الطاولة صديقٌ قديمٌ من قطاع النفط بكامل بهرجه. عرّفه نوردسترم على ضيفيه لكنّ حماسه للحديث خبا بصورة كئيبة حين أطلعه نوردسترم بسرور على أنّه كان لا يعمل شيئًا لكنه يفكّر في ارتياد مدرسة طبخ. سلاتس كان أنيقًا في بدلة صيف زرقاء مخملية من هاسبل. رجل النفط غادر والشراب وصل.

«والآن أنت قاتل»، استنكر سلاتس شامتًا وأومأت سارا برأسها إيجابا.

«صحيحُو»، قالها نوردسترم بإيقاعٍ موسيقيٍّ غريب. وعنى إقلاق ارتياحهما. «الآن تحت مفرش المائدة مسدس (44.) موجّه إلى خصيتيك وأفكر بتفجير مؤخرتك دفاعًا عن النفس». جحظت عينا سلاتس في ارتياع وعدم تصديق. غمز نوردسترم بجنون لسارا وصاح: "Bang". التفتت الرؤوس مرتاعةً وأوقع سلاتس شرابَه. هرعت إليهم فتاة غيشا. «كنت فقط أحكي نكتة انتهت بـ Bang»، شرح نوردسترم للجميع. «أريد ثلاثة أطباق ساشيمي وطبق تمبورا حبّار كبير». انحنت الغيشا احترامًا.

«أنت معتوه لعين»، شدّد سلاتس.

«صحيحُو. أردت أن أسترعي كامل انتباهك».

«أوه، يا رجل، أنت في كارثة حقيقية»، هزّ سلاتس رأسه.

«نعم، أنت كذلك...» شرعت سارا تتدخّل برأيها لكنّها لحظت تحديقةَ نوردسترم المسعورة فتوقّفت. حدّق فيهما معًا ورأسه مائل بطريقة غريبة.

«على كليكما أن يَنزِعَ عن هذا الكلام الخرائيِّ وإلّا نزعت قلبه. هنالك قدرٌ محدودٌ من الخراء أقدر على التسامح فيه، تدريان؟ أرسلتما إلى غرفتي هذا الأجنبيّ الأخرق وأثبت أنّه لا يستطيع التحليق، ولو قليلًا. الآن في حوزتي هذا الاعتراف...»

«هذا الرجل لن يتحدّث بتاتًا»، قاطعه سلاتس، للمرة الأولى، في تناغمٍ كاملٍ مع مزاج الطاولة الفعلي.

«هذا أقصى علمك، يا وجه العاهر». كان نوردسترم مستمتعًا بنقاوة أدائه التمثيلي، لم يختبره في حياته إلّا الآن. «لقد شاركت في التحقيقات مع القوّات الخاصّة في دا نانغ سنة سبع وستين. أحيانًا كنّا نطوّح بهم خارج مروحيّات

هيوي وأحيانًا نخنقهم. كانت لهم رقاب نحيلة». مثّل نوردسترم حركةَ خنق بيديه. «صديقك كان حالةً صعبة. أوسعته ضربًا حتى انهدّ وحين أفاق لم يتأدّب فعقدت منشفةً رطبةً وكعمت بها فمَه لئلّا يعضّ. ثم حشرت أربعة أصابع وجذبت جذبةً قلعت بها أسنانه الأماميّة. الاعتراف مع سن ذهبية في صندوق لحفظ الودائع في بنك تشيس مانهاتن». نوردسترم تذكر السنّ الذهبية من حادثة المطعم. «ثم رميت بالمخنّث خارج النافذة. وبعدها كلّمتك وذهبت إلى السرير».

وصل الساشيمي، ونبّهها نوردسترم إلى أنّهم هنا يستخدمون خردل الفجل الحارّ بشكل مقتصد. نظر إليه سلاتس نظرةَ المتورّط. لقد كان الأمر غبيّا منذ البداية وكلّ الحلول كانت تختفي. «هذا سمك نيء أليس كذلك؟» أومأ نوردسترم. تردّد سلاتس، ثم، معجبًا بمذاق السمك، بدأ يأكل بسرعة.

«ربما نحن متعادلان. اللعنة، كان مع بترو ألف دولار من حرِّ مالي. واحد من هؤلاء المحققين يلهو بمالي اليوم. هل تحتاج شمّةً؟»

سلاتس أومأ للنادلة مصفرا وأشار إلى صحنه. «المزيد»، قال.

«لا، شكرا. لا أظن. أو ربما أشتري بعضا لصديق»، وصل طبق التمبورا وقُدِّم إلى نوردسترم.

«ها أنا أزدرد هذه الخراءة وأبي قد مات في أيو جيما»، ضحك سلاتس. «لأجلك سأجعلها خمسمئة دولار مقابل ربع أونصة. أستطيع أن أرى هذا المحقق يُطعِم سيدته العجوز لوبسترًا على حسابي».

«أنا في الواقع آسف على ضربك. لا أفكر عادة بتلك السرعة لكني كنت قد تعاطيت بعض الكوكايين في دورة المياه ونسيت أنّكما متزوجان».

شرحت له سارا أن ذلك كان فقط طريقةً لكسب المال، حيلةً، وأنّها لم

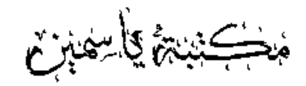
يكونا متزوّجَين. الأثرياء كانوا يتعاطفون مع تعنيفها ويُمدّونها بالمال حتى تتخلّص من قبضة سلاتس. مع نوردسترم قرّرا أن يُصعِّدا الأمر لأنّهما كانا مقتنعين بأنّه مغفّل. كان سلاتس على فضول لمعرفة المزيد عن خط الرحلة التي نسيها. فكرة السفر إلى بلاد أجنبية ذكّرت نوردسترم فجأةً بصور رجال أشدّاء في ناشونال جيوغرافيك يجزّون صوفَ خرفانٍ في بقاع العالم القصيّة. واصلوا الحديث نصفَ ساعةٍ أخرى واقترحت سارا مدرسة طبخ على شارع ويفرلي بليس. أصر سلاتس على أن يدفع للغداء. عدّ نوردسترم ألفًا وخمسمئة دولار من مال البي إم دبليو في حجره. زحلقت له سارا من تحت الطاولة كيسًا صغيرًا من الكوكايين.

«أضفت الألْفَ لقاء ما خسرتَه مع بترو. أردت أن نكون على سواء. الآن كلنا استردّ حقّه ما عدا بترو».

خرجوا من المطعم إلى إيوانٍ منفصلٍ عن بهو فندق والدورف. ربت سلاتس على كتف نوردسترم. «لا تقلق بشأنه. لقد كان وغدًا».

عند منتصف الليل كان نوردسترم جالسًا في الظلمة في غرفة الفندق رانيَ البصر إلى القمر سارحَ الفكر في زنابق الماء. ألحّت عليه سونيا من قبل بأن يزور متحف الفن الحديث ليرى تلك اللوحات العظيمة لزنابق الماء التي رسمها مونيه فذهب بعد الغداء، متأمِّلًا إيّاها بعقلٍ صافٍ تمامًا ساعةً من الزمن. والآن في نور القمر كلّ زنابق الماء في بحيرات شمال ويسكانسن كانت تدور أمام عينيه. أزهارها في أحايين زبديّةُ الصّفرة وفي أحايين بيضاءُ كبيرة، بشذى غريب استطاع أن يشمّه بعد خمسة وعشرين عامًا في غرفة فندق. لم يدر إن كان في الصباح سيمضي في رحلته أم سيذهب إلى ويسكانسن لبضعة أسابيع. سمك قاروص اختبأ تحت زنابق الماء ولقد اعتاد أن يسبح تحتها

ويرفعَ بصره فتبدو الزنابق مثل جزر خضراء صغيرة في الضوء المنكسر في الهواء. كان قد أعطى الكوكايين للسفارديّ على العشاء. استراح السفارديّ لكنّه استغرب من إصرار نوردستِرم على أنّ سلاتس وسارا كانا «شخصين لطيفين». جاءت مع السفاردي فتاة إنجليزيّة عُصابيّة بمؤخرة بديعة. أرادت أن تهاتف صديقةً لترافق نوردستِرم لكنّه قال لا. لقد كان مُنهَكًا في الحقيقة. التنفس فقط على السرير في نور القمر بدا كافيًا الآن. شهيق أولًا، فزفير، وهكذا دواليك. الأمر سهل إذا حاولت أن تبقى هادئًا.



خاتمة

اتجه جنوبًا في أواخر أكتوبر، سنةً بعد وفاة أبيه، في سيارة بليموث سبعةٍ وستين دفع ثمنها سبعمئة دولار. في غير ما عجلةٍ من أمره ولا دليل يقوده إلّا خرائط راند ماكنالي، توقّف في سافانا، اشترى إطارين جديدين، ورأى البلدة أجملَ بكثير من ذوقه. أراد أن يتجنّب موقعًا يجعله على وعيٍ شديدٍ بالذات. في شنطة السيارة حقيبةٌ واحدة، صندوقُ كتب، وصندوقُ عُدّة طبخ لم يستطع تحمّل فراقها مع رغبته الملحّة في السفر خفيفًا؛ لم يكن سعيدًا ولم يكن غيرَ سعيد وهو يرفض مكانًا بعد آخر، كان يختبر الأشياء من جديد فحسب. أخيرًا، آخرَ نوفمبر، حصل على عملٍ بمرتّب متواضع في مطعم مأكولات بحريّة في إسلامورادا، فلوريدا، سمعته جيدة. تورّمت أصابعه بعد مدة قصيرة من تنظيف الروبيان والتقاط السلطعون. تلقّى وخزةً مؤلمةً في راحة يده من سلطعون فتعلّم أن يكون حذِرًا. خلال شهر سُمح له بأن يطبخ طبقًا يوميًّا خاصًّا. بيته كان كوخًا سياحيًّا بغرفةٍ واحدة عند نهاية طريق بقواقع مهشّمة يصطف إلى جوار أشجار مانغروف رطبة وتحده بحيرةٌ شاطئية غيرُ صالحةٍ للملاحة. كان يحوي فرن غازٍ صغيرًا، سريرًا مزدوجا، طاولة فورميكا، أرضيّةً مشمّعة، مصباحًا مرقّطًا بالأسود، مكيّفًا متهالكًا، ثلاثة كراسي خيزران. لم ينزعج من البعوض الكثير في المكان، لقد تعوّد على مثله في ويسكانسن. كان يودع ماله في علبة عصير برتقال معدنية مقلوبة

في ثلاجة التجميد، لا يريد أن يقلق بشأن حسابٍ بنكي. لم يقتل صراصير الخشب الزاحفةَ هنا وهناك، لا تأكلُ كثيرًا ولا تلسع. ذات يوم أبهجه أن رأى أفعى مجلجلة كبيرة الحجم بين نخيلٍ رثّة في الخلف. اشترى زورقًا وأوشك أن يموت حين انكسر أحد مسندي المجدافين فجرفه الموج في مدٍّ قويٍّ وبحرٍ متلاطم وقضّى يومًا كاملًا ينزح الماء بقبّعته ويجدّف بمجداف واحد. أنقذه صيّاد ولبث ليلتين في المستشفى يعالج حروقَ شمسٍ بالغة، شاعرًا بالغباء المحض. نفعه الحذر، فكّر، في حياته الجديدة هذه حيث كان مكشوفًا تمامًا. نشر أوراقًا نقديّةً متجمّدة واشترى قارب بوسطن ويلر ومحرّكا بقوّة ستين حصانًا، بعد أن قرّر أنّه القارب الأكثرُ أمانًا. رابطًا في جذع شجرةٍ شفير القارب أمكنه أن يزحلقه عبر البحيرة في مدٍّ متوسط ويبقيَه بجانب الكوخ. اشترى قصبةَ صيد وبضع صنانير، قناعًا وزعانف وكتابًا في علم الأحياء البحريّة. خاض مسطحاتِ مدٍّ وجزر مدنيًا بصره، صاد سمكًا في القنوات. تعرّف على صيده في الكتاب ثم أفلته. كان يعمل ستّة أيامٍ في الأسبوع مع راحةٍ في فترات الصباح وإجازةٍ يوم الاثنين تتيح له القيام باستكشافاته. عندما ارتاح أكثر لهذه المياه الغريبة اقتنى خرائطَ بيانيّة ومقطورة قارب وصار يذهب أيام الاثنين إلى بيغ باين، منطقةٍ أغنى بآجام المانغروف وجزائر المدّ. في يوم دافئٍ ساكنٍ في جدولِ مدٍّ عميق نشبت بصنّارته سمكةُ طربون وانصدم إذ اندفعت خارجةً من الماء قربَ القارب، متثنّيةً بجسمها الفضيّ وصفائحُ خياشيمها تُقعقع قبل أن تتحرّر من الخطاف. في ذلك اليوم ظنّ أنّه عدّ ألفَ درجةٍ من درجات الفيروزيّ في الماء. أضحى إلى جانب كونه طاهيًا مراقبًا للماء والغيم والريح. في آخر الليل كان يرقص على راديو ترانزيستور. كان مصدرَ ترفيه محلّيٍّ محترَم. ارتبط بعلاقة رائعة مع نادلة كوبيّة في مثل عمره. حظي باحترامٍ أكثرَ بين السكان المحلّيّين حين في ليلة رمى بجلفين سكرانين خارجَ المطعم، لاكمًا أحدَهما حتى أُغمي عليه، لكنّه ذكّره

على نحو بغيض ببترو فبكى دقائقَ معدوداتٍ ساعةَ عاد إلى البيت. كتب إلى ابنته في فلورنسا وتلقّى منها رسائلَ مطوّلَة، تبادل فيها مع فيليب تعليقاتٍ عن المؤلّف العظيم سيوران. بعد أن هاجرت الكوبيّةُ من إسلامورادا قاصدةً ميامي رافق طالبةً جامعيّة مدة ثلاثة أيام في نزوة غراميّة قصيرة لكنّها كانت متجهّمةً بعض الشيء ولا تحبّ المضاجعة. كتبت إليه أمّه أنّها رأت جاك لورد في هونولولو. وأنّها قد خططت هي وهنري لزيارته لأسبوعين في أبريل بعد أن يهدأ موسم السياحة ويجدَ نوردسترم لنفسه فسحةً من الوقت. كان عليهما أن يستقلّا الحافلة لأنّ هنري رأى في الطائرات إهانةً لحياته ولحياةِ السماء. ذات يوم بينما يسوق رأى نوردسترم قرشًا أسود الزعنفة وتحمّس لمرآه من كلّ قلبه.

في أحد المساءات وقد أخذ استراحةً للتدخين خلف المطعم، رأى نوردسترم نادلتين تقتربان، ثم توقّفتا وهما تتهامسان. كان من عادته خلال استراحة المساء أن يقعد على قطعة هائلة من مرجانٍ مجروف، مئاتِ الأطنان من كائنات متناهيةِ الصغر، ولافقاريّاتٍ بحريّةٍ مسحوقة. يشرب بينا كولادا، يدخّن سيجارة ويشاهد المحيط. لم يُحرز أحد من العاملين المساعدين مكانتَه في الطبخ. النادلتان الآن قدمتا إليه. كلتاهما بضّتان وتضحكان لكن لإحداهما ملامح زيتونيّة لطيفة. عرضا عليه لفافة وأخذ منها نفسا طويلًا مبهمًا. مشكلتهما أنّ حفلةَ رقصٍ كانت ستقام الليلة في حانةٍ أسفل الطريق 1 وليس لديهما من يصطحبهما ولم تريدا أن تدخلا الحانةَ لوحدهما. انزعج نوردسترم. لم يرقص قطّ في مكانٍ عام. أوه يا يسوع ولم لا، قال لنفسه. في الحانة رقص مع الفتاتين ومع أيّ أحد آخرَ أراد أن يشاركه الرقص حتى الرابعةِ فجرا حين توقّفت الفرقةُ عن الغناء. ثمّ رقص على صندوق الموسيقا حتى الرابعة والنصف حين كان على الجميع أن يغادر.

انتقام

إنّما يُولَم بالثأرِ باردًا.

(حكمةٌ صقليّة قديمة)

الفصل 1

ما كنتَ لتتبيّن لو كنتَ طائرًا يهبطُ (وكان ثمّةَ طائرٌ يهبطُ، نسرٌ) إن كان الرجلُ العاري حيًّا أم ميّتًا. الرجلُ لم يكن متأكّدًا من نفسه والطائرُ كان متردّدًا حين حطّ على الأرض واقترب من على جنْبٍ وصاح، مستريبًا وصارفًا نظرَه أسفلَ الأرضِ الدّغِلَةِ في الجدول الجافّ كأنّما يترقّب رفقةً من ذئاب السهوب. الجيفةُ كانت شِرْكةً تُقْتَسم لا بابتداعِ المشارِك بل وفق نمطٍ موجودٍ من قبل أن يعرفَ أحدٌ أنّ أنماطًا كانت موجودة. النسر قد أكل لتوّه أفعى مجلجلةً دعستَها شاحنةٌ خارج ناكوزاري دي غارسيا، بلدةٌ صغيرةٌ بعيدةٌ عن المنطقة السياحيّة قرابةَ مئةِ ميلٍ من نوغاليس. ذئاب السهوب ستقصد مهبط النسر بدافع الفضول سواء أكانت جائعةً من طراد الليل أم لم تكن. ومع اشتداد حرِّ الصباح ستصل نسورٌ أكثرُ حتى يكون للرجل جمهورٌ يشهد احتضارَه.

وإذ تعمّق الفجرُ في الضحى وخثّر الحرُّ الدمَ على وجه الرجل وجفّفَه، فقد الدمُ رائحتَه النحاسيّةَ الطازجة. كان الرجل يحتضر بأنفاسٍ متقطّعةٍ الآن، من الحرِّ والظمأ أكثرَ ممّا هي من جراحاته: ذراعٌ ملتوية، الصدرُ كدمةٌ زرقاءُ مهولة، عظمةُ وجنتِه منسحقةٌ وورمٌ دمويٌّ طالعٌ مثل شمسٍ أرجوانيّة، خصيتاه منتفختان من عند أصل الفخذ. وجرحُ رأسٍ أضفى على الرمل والحصى لونًا غامقًا وسحبه إلى هوّةِ إغماءةٍ سحيقةٍ شارفت الموت. مع

ذلك، ظلّ يتنفّس، وصفيرُ الهواء الساخن يخرج من خلال سنٍّ مكسورةٍ وآنَ علا الصفيرُ اضطربت النسور. ذئبةٌ توقّفت مع صغيريها الفطيمين حديثًا إنّما للحظةٍ ليس أكثر: نهرتهما قائلةً هذا الوحش المثير للشفقة خطيرٌ في العادة. طأطأت رأسَها إذ عبرت بذئبٍ هَرِمٍ ضخم، شاهد ما حدث بفضولٍ شديدٍ من ظلِّ جلمود. شاهده، ثم أغفى، حتى في غفوته كان يحظى بيقظةٍ غيرِ تلك التي نعرفها. كان خنزيرٌ بريٌّ يملأ بطنَه وكانت رؤيةُ هذا الرجل ينازع الموت أكثرَ شيءٍ مثيرٍ صادفه منذ زمنٍ طويل. كان الأمر كلُّه فضولًا رغم ذلك: إذا ما مات الرجلُ فإنّ ذئبَ السهوب سيبتعد بكلِّ بساطةٍ ويتركه للنسور. ولقد كانت سهرةُ الذئب طويلةً، لقد رأى الرجلَ العاريَ يُرمَى من السيّارة في الليلة الماضية.

في أول برودة المساء النسبيّة مشى فلّاحٌ مكسيكيٌّ وابنته على طول الطريق شانًّا غارات قصيرةً على الدغل جامعًا قطعًا متناثرةً من حطب شجيرات المسكيت. أو بالأحرى، مشى الرجل بهمّة تحت حمولة الحطب الخفيفة فيما الابنة قفزت، كانت تثب من قدمٍ إلى أخرى، تطفر، تعدو، ثم تنتظر أباها. كانت طفلتَه الوحيدة ولم يكن ليدعَها تجمع الحطب خوفًا عليها من لدغةِ عقرب، أو ثعبانِ مرجان، ليس يجلجل كذوات الأجراس فتأخذ حذرَكَ منه لكنّه رغم ذلك ثعبان خجول ومنطوٍ على نفسه ولا يتعمّد الأذيّة. يلدغ ببساطةٍ إذا ما حوصر أو استثير، ثم ينسلّ بعيدًا ويهدّئ أعصابه تحت جذعٍ أو صخرة. حملت الفتاة معها إنجيلًا. كانت تساعد في مطبخ بعثة المنونايت التبشيرية حيث تولّى أبوها لمدّة طويلةٍ وظيفةَ الحارس.

صدحت الابنة بالغناء فثارت النسور التي لم تزل على بعد مئة قدمٍ أسفلَ الطريق. كانت على أيّة حال على وشك أن تغادرَ إلى أمان جبالها الوعرة قبل أن يتعمّق المساء. ذئب السهوب تراجع أبعدَ إلى حيث تتجمّع الظلال. آنسَ

أصواتَ الرجلِ وابنتَه وعرف من خبرةٍ سبع سنين في حياته أنّهما لا يشكّلان خطرًا عليه. كان قد شاهدهما عددًا لا يُحصى من المرّات وهما في طريقهما إلى البعثة لكنّهما لم يشاهداه قطّ. الطيور العظيمة الثائرة في شمس المساء أثارت فضولَ الأب فحثّ خطاه. كان لديه حسُّ صيّاد، ليس مختلفًا عمّا لدى ذئبِ السهوب، وتذكّر وقتَ وجد غزالًا قد سقط للتوّ عن جرفٍ بملاحقته تحويمَ نسورٍ هابطة. أخبر ابنتَه بأن تنتظر عن بعد وبحذرٍ دخل الدغل الكثيف على طول الطريق. سمِع لُهاثًا وصفيرًا خافتًا فاستلَّ سكّينًا طويلةً بمقبضٍ لؤلؤيّ. زحف بهدوءٍ ناحيةَ الصفير، متشمّمًا أثرَ دمٍ وسط ذَرْقِ النسور. ثمّ رأى الرجلَ وصفّر هو الآخر، جاثيًا على ركبتيه ليجسَّ النبض. كان قد صحِب المبشّر الذي كان كذلك طبيبًا في مناسباتٍ عارضة خلال ترحاله في الجبال وتعلّم منه مبادئ الإسعافات الأوليّة. الآن قام، وصفّر أخرى في تناغمٍ مع الرجل المحتضر، وتطلّع في السماء. كان في الغالب هنديًّا وكانت خاطرته الأولى بكلّ بساطة أن يمشي مبتعدًا ويتجنّبَ أيَّ اتصالٍ بالفِدراليّين. لكنّ الطبيبَ كان صديقًا للفدراليين وتذكّر الرجلُ حكايةَ السامريِّ الصالح فدنا بنظرته إلى الجسد مُكرَهًا، كأنّما ليقول، سأساعدك لكنّي أظنّ الوقت قد فات.

خرج من الدغل وأرسل بابنته جريًا إلى مقرّ البعثة على بعد نصف ميل أسفل الوادي. قرفص في قارعة الطريق يدحرج الحصى بحدِّ سكينه. منظرُ رجلٍ على شفا الموت سرّع من نبضات قلبه لكنّه استرجع ببرود قصّة عثوره على هذا الجسد الطريح. في شبابه، إضافة إلى كونه صيّادًا، كان لصًّا تافهًا وأدرك أنّه عند الحديث مع السلطات فمن الأفضل إبقاء الأمور بسيطة.

في مقر البعثة التبشيريّة قعد ديلر على لحم خاصرة خنزيرٍ مشويّة مع البطاطس ومخلّل الملفوف. مذياعُه كان مضبوطًا على محطّة في تشيواوا تبثّ

موسيقا المارياتشي. شعر، رغم أنّه كان يتبع طائفة المنونايت ولا يقرّ استخدامَ أجهزة الراديو، باستحقاقه امتيازات خاصّة ولقد بدأ الاستماع إلى محطات موسيقيّة كهذه قبل أن يأتي إلى البعثة تحت ذريعة تسريعِ تعلّمِه الإسبانيّة الدارجة. ضخمًا ومتورّدًا من العافية، ربما رفع صوته مع الموسيقا بغناءٍ يشبه النهيق فرقّه عن النسوة العاملات في المطبخ. لم تسمح الكنيسةُ لا بالكحول ولا بالتبغ لكنّ لديلر خطيئتَه المغفورة: النّهَم. تلذّذ بمذاق خاصرة الخنزير التي كانت تُعَدّ لعشائه كلّ خميس باعتبارها المتعةَ الوحيدةَ الباقيةَ من ذكرى حياته في الولايات المتحدة. كان يفضّل الطعامَ المكسيكيَّ ويستهلكه بكميّات كبيرة جعلت منه أسطورةً وحيكت حول بِطنَتِه القصص في أرجاء المنطقة. لا لأنّه لم يكن مخلصًا في تديّنه، لكنّه فهم أن تقديمَه العلاج، مهارتَه الطبية، هي ما جعل من نسخته من يسوع شعبيّةً في البلاد الجبليّة الفقيرة. لم يعد يزور الولايات المتحدة خلال شهر إجازته السنويّة. لقد سئم المُكْثَ ثلاثين يومًا في نورث داكوتا والصلاةَ لأجل هداية الوثنيّين في بقاعِ المعمورة. بل إنّه كان يفضّل الوثنيين وجمالَ أوطانهم الموحِش، ومفارقاتِ معاناتهم الطويلة وجبريّةَ ما قبل المسيحيّة. أحبّ أكلَ الدجاج، الخنازير، صغار الخنازير، المعزى والغنم وغيرها ممّا كان الناس يُهدونه لِقاءَ إتيانه ببعضِ معجزة طبيّة. أحب حتى الممرِّضَ المتخنّث العابث، أنطونيو، من كان إلى الأبد يخترع ألفَ عذرٍ للذهاب إلى نوغالس أو هرموسيلو. في السنة الماضية أتى مدير البعثة لزيارة ديلر وسأله، مستنكِرًا، أليس أنطونيو «غريبًا بعض الشيء». تغابى ديلر، مثمّنًا موهبة أنطونيو في تحضير الأطباق الفاخرة التي لا يجيد مثلها الطهاة، وروعةَ إنشاده حتى وإن مال إلى التبديل بين ضمائر الإناث والذكور في الأناشيد.

تأفّف ديلر حين أقبلت ابنة ماورو معلنةً أنّ جريحًا في أعلى الجبل. جرّت

حقيبته الطبيّة إلى شاحنة دودج باور واغن كانت تستخدم سيّارة إسعاف، بسريرٍ في الخلف وغطاء كتان. لحقها ديلر حاملًا معه القدر. كان الملفوف يلَذّ له حين يكون أسفلُهُ منقوعًا في دهن الخنزير. وقف في رواق المبنى الرئيس في الهاسيندا[1] واستنشق بعمق أَرَجَ الهواء المسائيّ: قرنفلٌ حلوٌ وسماد، أزهارٌ مسحوقةٌ ومتعفّنة، رائحةُ صخورٍ قد صَلَتها الشمس ورملٌ يتوارى تحت جُنح الليل. أحبَّ هذا الوادي الذي بدا كاسفًا وقاتمًا حتى في أشدِّ أشعّة الشمس سطوعًا.

في المكان المشهود أمسك ماورو بالكشّاف بينما مسح ديلر الدسمَ من يديه على بنطاله، وانحنى على الجسد، صلّى لأجله وأجرى فحصَه وتشخيصَه. أمّل أنّ الرجل سيحيا لكنّه أملٌ معلّقٌ بتخطّيه عقبةَ أوّلِ أربع وعشرين ساعة، كان يعاني جفافًا حادًّا. لم تتعرّض الجمجمة إلى الكسر لكنّه من رفّة العينين رأى عمقَ الارتجاج. أخرج قلمَه المضيء من الحقيبة واقترب أكثر من عيني الرجلِ العاري مدقّقًا في الانتفاخ الظاهر في القُرص البصريّ، وَذَمَةُ حُليمَة العصب البصريّ[2]، ارتجاجٌ عنيف. ثم مرّر يديه الكبيرتين بمهارةٍ على جسد الرجل مقرّرًا أنّ الكسور لم تكن سوى في الضلوع والذراع اليسرى. دسّ ديلر ذراعيه تحت الرجل ورفعه. أخذ ماورو الحقيبةَ وتقدّم مضيئًا الطريقَ بالكشّاف.

في العيادة عمِل ديلر خلال الليلة بحضور ماورو. تمنّى أنّ أنطونيو كان موجودًا لكنّ أنطونيو اختفى للأعذار الزائفة إيّاها. ديلر كان في حيرةٍ من

1-عقار كبير مميّز البناء يضم مزارع وحدائق وبيوتات وقصرا رئيسا، اشتهرت به تاريخيا الإمبراطوريّة الإسبانية ومستعمراتها.

2-المصطلح الطبيّ لانتفاخ القرص البصري Papilledema يصاحبه ألم رأس وغثيان وتشوش في الرؤية.

مريضه. تحت ضوء الكشاف افترض أنّ بين يديه الآن ضحيّةً بائسةً أخرى، مزّقتها حروب المخدرات المشتعلة أسفلَ الخطِ الحدوديّ. لاجئون كهذا أمدّوا ديلر ببعض أكثر الحالات جذبًا للانتباه، تغييرًا لروتين مرضى السرطان المسنّين الذين اعتاد بلسمةَ طريقهم إلى الجنّة بجرعات من الديلوديد القوي. اتضح أنّ الرجل العاري إذ غسل عنه الدم غرينغو[1] خالص: شعره مقصوصٌ بعناية، حشواتٌ ذهبيّةٌ غاليةٌ في أسنانه، أظافره مقلّمة، خطوطُ تسميرٍ واضحة، جسمٌ معتنى به، كلّ الأوصاف التي جعلت من الافتراض بأنه مهرِّب أمرًا مستبعدًا.

قرب الفجر ابتسم ديلر لتحسّن معدّل النبض، والاستجابة للسوائل الوريدية. جسّ بحذر شديد عظمةَ الفك المتهشّمة التي ستحتاج لاحقًا إلى عملية تجميليّة إن أراد الرجل. غسل ماورو حروق الشمس بالخلّ ووضع كمادات ساخنة على الخصيتين المتورّمتين، مازحًا في إرهاقه أنّ أنطونيو كان سيحبّ القيامَ بهذا العمل. ضحك الطبيب رغمًا عن نفسه- كان مستحيلًا أن يظلّ المرء متحفّظًا تجاه مسائل كهذه. غنّى الطبيب "La Paloma" وهو يلفّ ضمادةً حول الضلوع بينما كفاه ماورو تكرارَ الفواصلِ الموسيقيّة الصعبة.

نقل ماورو والطبيبُ الرجلَ إلى الغرفة الوحيدة الخاصّة في العيادة ثمّ خرجا إلى الرواق حيث قدّمت لهما ابنةُ ماورو القهوة مع ضوء الفجر الأوّل. غمز ديلر لماورو، وأعطاه حبّة دكساميل وأخذ واحدةً لنفسه. ابتسم ماورو لهذا السرّ الصغير الذي دلّلا به نفسيهما خلال أوقات الطوارئ حين كان النوم مستحيلًا، وإن فضّل في خاطره زجاجةَ المِسْكال المخبّأة تحت سريره، مُذ أقسم على رؤوس الأشهاد في الكنيسة أنّه ضدّ الكحول. أفكار الطبيب كانت متزامنة: مرّةً واحدةً فقط في حياته البالغة سبق له أن ذاق الخمرة. قبل

1- Gringo مصطلح إسباني/ برتغالي يشار به في المكسيك إلى الأمريكي الأبيض خصوصًا.

وقتٍ طويلٍ خلال سنته الثانية في البعثة التبشيرية غادرت زوجتُه إلى الأبد، شارحةً في انفعالٍ عصبيٍّ أنّها لم تطِقْ الحياة في المكسيك وأنّها لم تعد تحبه. قعد ديلر في تراب الباحة طيلة الليل وناح بينما المساعد القلِق كان يشاهده من الرواق ومن كلِّ ناحيةٍ في الهاسيندا. في منتصف تلك الليلة المحزنة جلب ماورو لديلر لترًا كاملًا من المسكال عبّه ديلر بتعطّش. نام ديلر خلال حرِّ النهار في التراب يتناوب الجميع على تظليل وجهه من الشمس وهشِّ الذباب عنه. ابتسم ديلر لذكرى الألم.

الآن كانت أشعّة الشمس الأولى تضرب جانبَ قمّة الجبل الضاربَ إلى السمرة. هذا اللون البنيّ الأغبش المميّز طالما ذكره بأيطلِ ظبيٍ وأيطلُ الظبي في هذا الصباح ذكّره بلحم أظلاع الغزال. لحمُ الخنزير ومخلّل الملفوف لم ينهضما بشكل جيّد فقرر التخلّي عن هذه الوجبة والتحوّلَ بشكل كامل إلى المطبخ المحلّي الأصيل. هتف الطبّاخ فهبَّ ماورو وديلر إلى المطبخ حيث أكلا صحفتين من مرقة الكرش المكسيكية مِنودو menudo ورُقاق التورتيلا. اعتقد الطبيب اعتقادَ المكسيكيين بأنّ مرقة الكرش هذه من المنشّطات رغم أنّه لم يكن ليعتقد ذلك لو لم يكن يحبّها. كان رجلًا ذوّاقًا. وكان واعيًا تمام الوعي بأنّ ذوقه سوف يقتله ببطء وهو يرى وزنه يتجه صاعدًا بسهولة إلى ثلاثمئة رطل على الرغم من بنيته الضخمة وتكوينه العضليّ الثقيل. حبّة الدكساميل جعلت الدم يُطبّل في أذنيه؛ متشرِّبًا الكآبةَ التي تخلّلت المناطقَ الريفيّة، كان يستمتع بمغازلة الموت. بعد الإفطار، غنّى بعض أناشيد الحب والموت وهو يتفقّد مرضاه. دوّن ملحوظةً لنفسه بأنّ المريض سيحتاج إلى معدة قوية حتى يتحمّل الألم حين يفيق من الإغماء.

في ذلك المساء عرّج هكتور، قائد الفِدراليين في المنطقة، على البعثة كي يُعِدَّ تقريرًا عن الرجل المصاب. عندما استقبل تقريرَ الراديو منتصف النهار

انفرجت أساريره وأمر مساعده بتجهيز سيّارة الجيب لرحلة ليلةٍ واحدة. رحلةٌ إلى الطبيب كانت تعني عشاءً طيّبًا وأمسيةَ شطرنج طويلة، أحاديثَ وأعمالَ بستنة، سياسة، تربيةَ ماشية، وفرصةً للحديث مطوّلًا عن صحته، فهكتور كان موسوِسًا بالمرض في منتصف عقده الخامس وقَلِقًا على قوته الجنسيّة المتراجعة. كان يحترم طبيعة الطبيب المتديّنة لذا فقد قارب جوانب الفحولة طبيًّا بتهذيبٍ بالغ، ممّا سلّى الطبيب الذي نصحه بأن يقلّل من الكحول والتبغ ويُكثر من ممارسة الرياضة. اقترح ممازحًا بلمزةٍ أخيرة أنّ الطبيب ربما أنسته شؤونُ الروح خبيزاتِه المكسيكيّةَ الحلوة conchitas. لم يشعر الطبيبُ إلّا مؤخّرا بإرهاب الشهوة الاستثنائيّ عندما عالج فتاةً جبليّةً فاتنة من لدغة عقرب في أعلى فخذها. لجأ إلى الصلاة كثيرًا لكنّها لم تسعفه، فطوّحت به الأفكار إلى سنة زواجه الأولى في نورث داكوتا عندما استنفد وزوجتَه الشابّةَ كلَّ طاقتيهما في المضاجعة.

عندما وصل هكتور والمساعد ذهبا مباشرةً لرؤية الرجل المصاب كي يخلّصا نفسيهما من هذا التفصيل المكدّر فتصفوَ لهما متعةُ المساء. حرّم الطبيب يومها أخذَ البصمات قائلًا أنّه سوف يرسلها حين تلتئم الجروح بصورةٍ ما. في هذه الحالة كان يرسل بصماته الخاصّة فقط، لا يريد أن يتسبّب بالأذى لأيّ أحد. أعضاء الكنيسة المنونايتيّة لا يلجؤون أبدًا إلى القانون ضدّ بعضهم البعض ولقد طبّق الطبيب هذا المبدأ في مهنته. كان هكتور سعيدًا بأن يعاود الرحلة لاحقًا للتحقيق مع المريض الذي سوف ينصحه الطبيب حينئذ بأن يتظاهر مختارًا بفقدانه الذاكرة، أو بأيّ شيءٍ يجنّبه عنت النظام وصرامة القانون الجنائي المكسيكيّ. دوّن المساعد تقريرًا روتينيا بالمعلومات الشحيحة التي منّ بها ماورو ثمّ ذهب إلى حانة ريفيّة أسفل الوادي كي يترك انطباعًا في أذهان السكان المحليين. قعد هكتور والطبيب على مائدة عشاء ضافية،

هكتور بمظهر رجل قد أنجز عملًا طويلًا وليس ينوي أن يتذكّر منه شيئًا.

في اليوم الثالث من العثور على الرجل المصاب أصبح ديلر متشكّكًا بعض الشيء. ظهر على الرجل أثرٌ بسيط لاحتقان الرئة ولم يستجب سريعًا للبنسلين ودَعَا الطبيبُ ألّا يكون عنده حساسية. لم يُرِد ديلر أن يخسر الرجلَ بنقله عبر طائرة مروحيّة إلى المرفق الطبيّ الأحدث في هرموسيلو. يومان إضافيّان وخفّت الحمّى لكنّه لم يزل في إغماءة. قرّر ديلر الآن أن يعطي الإغماءة يومين آخرين قبل أن يتّصل بهكتور عن طريق اللاسلكيّ. أحبّ التناسقَ الذي ينطوي عليه العمل في فريق من اثنين ولقد كان فضوله بشأن الرجل المصاب عظيمًا إلى حدّ توقه إلى أعذارٍ للاحتفاظ به. ليلةً قبلَ الصباح الموعود لحظ أنّ قلادةً من أنياب ذئاب السهوب قد عُلّقت على عمود السرير. القلادة لا ريب من أمّ ماورو التي كانت ترعى الحيوانات والتي كان الخدم يتحاشونها لاشتهارها بالعلاج بالأعشاب وبالسحر. لقد خطب فيهم ديلر كثيرًا حول مخاطر هذه الخرافات القديمة لكنّه الآن لم يزد على أن ابتسم لنواياها الطيّبة التي لمس فيها ضربًا من الحب. حين أطفأ ديلر الضوء وغادر لم ينتبه إلى أنّ الرجلَ المصاب شاهده من فرجةِ جفنِ عينه السليمة.

ليس من الضرورة معرفة الكثير عن الرجل المصاب محدِّقًا بعينه في الظلمة وفي هفّةِ مروحة السقف الناعمة بأجنحةٍ من خشب البلّوط. اسمه كوكرن ويسمع طنينَ محرّك الديزل، أنينَ بعوضةٍ واحدةٍ في الغرفة، ومن بعيدٍ وواهنًا، صوتَ الموسيقا منبعثةً من مذياع الطبيب، حالمةً وحزينةً بلا شفقةٍ حتى ليبدو أنّها تُجرِّح الليل مثلما هو مُجرَّحٌ جسمُه. لكنّ كلّ دموعه ذُرِفت في الأيّام شبهِ اليقظانةِ القليلةِ الماضيةِ عندما، مثلَ أيِّ حيوانٍ يدّعي الموت، حاول أن يتعرّف على طبيعة التهديد المباشر لحياته. والآن إذ عرف أنّه لا تهديدَ مباشرًا على حياته، بدلًا من الارتياح شعر بأنّه معلّق، كأنّما كان يتدلّى

في بعض عتمةٍ خاصّة بينما في الخارج استمرّ الكون على قوانين لا دور له في صياغتها.

لقد ضُرِب ضربًا يتجاوز بمسافة بعيدة أيَّ مفهومٍ للثأر. رأى ضرْبَه مثلَ خيطٍ طويل امتدّ عائدًا من لحظته الراهنة، من هذه الغرفة إلى يوم مولده تقريبًا. بدلًا من السلوى الواضحة في فقدان الذاكرة، امتلك عقلُه غرابةً جديدةً استطاع أن يتذكّر بها كلَّ شيءٍ بكلِّ تفاصيله على امتداد الخيطِ حتى حاضرِه الذي لا يُحتمَل. لم يستطع تجنّبَ أيِّ شيء، بأكثر ممّا يستطيع صدرُه أن يهرب بنفسه من الضمادة المشدودة حوله. تألّم ألمًا شديدًا ما كان يتأتّى معه النوم وبات لزامًا عليه أن يُشعِرَ الطبيب غدًا بأنّه كان واعيًا حتى يريحَه من الألم. كان نصفَ مستمتعٍ بحذره، إرادةُ حياةٍ تخطّت كلَّ شيءٍ فَهِمه بوعي. تخطّى الندم الآن على مطاردته الوحلَ من جزءٍ في حياته إلى آخر. ملّ نداماتِه والطاقةُ الوحيدةُ الباقيةُ فيه تلك الليلة كانت أن يستنتج كيف حدث كلّ هذا، طموحٌ آليٌّ على أحسن تقدير.

ستكون أطولَ لياليه، والطاقةُ التي شُحِنت بها أشبهُ ما تكون بريحٍ عاتيةٍ باردةٍ صافية تعصف خلالَ سواد الغرفة: أولًا كان الطبيب يتمتم صلاةً ما، وقبلَه كانت عجوزٌ تعلِّق قِلادةً على عمود السرير، وتضع راحتي يديها على عينيه، ثمّ شابٌّ بملامح راقص سحب عنه المُلاءة ليطالع فيه. ثم مساحةٌ سوداءُ طويلةٌ من الفراغ النقيّ قطعتها عليه لقطةٌ رأى فيها لغاديدَ قرمزيّةً على عنق نسر وسمع صوتًا أجشَّ آتيًا من عينيْ ذئبِ سهوبٍ صفراوين، صفّق النسر بجناحيه جهةَ السماء وحدّق فيه الذئب، كلاهما مستغلقٌ في ما وراء هذه الإشارات البسيطة، وأنفاسُه تصفّر خلال سنٍّ مكسورة. قبل ذلك عادمُ السيّارة والخضخضةُ إذ أُلقِيَ ينزف في الصندوق الخلفيّ وظلّ يسعل بألمٍ كي يزيل الدم من حلقه ولقد كان منه الكثير. ثم مقذوفًا في الهواء، ساقطًا

خلال الدغل، صادمًا صدرَه على صخرة، ثم متدحرِجًا إلى أن خبط رأسَه في صخرةٍ أخرى.

ليس من الضرورة معرفة الكثير عن الرجل الذي أُصيب بشدّة لأنّه إنّما أصيب بشدّة كيما يتغيّر مسارُ حياته جذريًّا، بصورة ما مثل طقوسِ الدخول في ديانة، سرِّ المعموديّة، تحوُّلٌ يظلّ ثوريًّا وفجائيًّا مهما يكن شائعًا، مذبحِ المسيحيّ، ساتوريِّ البوذي. بمقدورك، رغم ذلك، أن تقفزَ على افتقار معاناته إلى الاتساق وتنظرَ إلى ما نحب أن نسمّيه الحقائق البسيطة، مفهومٌ نستخدمه بسعادةٍ عندما نريد إيهامَ أنفسنا لكي نخرجَ من أيّما بالوعةٍ عجيبةٍ صارت إليها حيواتنا.

في صباح اليوم الذي سبق عثورَ ماورو وابنتِه عليه في جانب الطريق، لا الصباحَ التالي حين لم يكن سوى قطعة لحمٍ تموت متعفّنةً خلال النهار إلى المساء، صحا في حالةٍ فريدةٍ ظنَّها الحبَّ. كان يعيش في مجمع شقق سكنيّة متوسط الغلاء في ضواحي توسن، الشيئان اللذان أكسبا المكان قيمةً عنده شجرةُ ليمونٍ أخضرَ في باحته الخاصّة الصغيرة وثلاثةُ ملاعبِ تنسٍ ترابيّة. أجّرَ شقّتَه المستأجَرة، مملوكةٌ في الأصل لنيويوركي كان قد عاد ليجرّب حظّه من جديد مع لعبة المال في الشرق بعد أن شُفِي من الربو.

كان في حبٍّ وهاتف حبيبتَه أوّلَ ما استيقظ، علامةٌ طالما ارتبطت بالغريرة أعمارُهم أو المخمورةِ عقولُهم، أو، إن قفزنا في الزمن عبر جيلين اثنين، بأولئك الذين يقعون عميقًا في الحبّ في آخر عقدهم الثالث أو أوّلِ الرابع. تكلّم العاشقان بسرعة، يتنقلان بين الإسبانيّة والإنجليزيّة بسهولة. سيلتقيان بعد وقت قصير في مكان عامّ، سينجزان أعمالَهما العامّة، ثم ينسحبان برسميّة بعيدًا إلى كوخ صغير استأجره الرجل واستخدمه في المنطقة الحدوديّة جنوبَ أغوا بريتا، مكسيكو، منطلقًا لصيد السمّان.

ليس عنده في الحقيقة شيء ليهرب منه، فكّر وهو يستحمّ. لسنتين كان قد بلغ حدّه ولم تعد به طاقةٌ للصبر في وقتٍ نُسِي فيه معنى الصبرِ زمنًا طويلا. في الحادية والأربعين، قبالة المرآة، وهو يحلق ذقنه، ما عاد يتوقّف للإعجاب بحسن قوامه فعيناه كانتا دائمًا مرهقتين من آثار المهدّئات.

في غرفة الجلوس نشّف جسمه، فتح الباب المنزلق لكلبه الإنجليزي، أنثى كلب صيد من فصيلة الساطر تسمّى دُل، وبدأ سلسلةً مطوّلة من تمارين الاستطالة الشبيهة باليوغا. توقّف ليشغّل معزوفة البحر La Mer لديبوسي على الإستريو وليبتسم للملصقٍ كبيرٍ صنعه من صورة ابنته في المرحلة الابتدائية مع صفّ سنتِها الخامسة. أحس بوخزة ألم خلف ابتسامته، تيّارٍ كهربائيٍّ صغيرٍ من الوحدة، متذكّرا عندما نُقِل إلى توريجون خارج مدريد وكان وابنته يذهبان إلى السوق في أيّام السبت كي يتبضعا لعشاء الأحد الكبير. أخذت من أمّها شعرَها الذهبيّ وأحبّت أن تسأل عن كل شيء بالإسبانيّة، ممّا كان له تأثيرُ السحر على الباعة. ثمّ كانا يزوران المقاهي فيطلب نصفَ زجاجةٍ من النبيذ الأبيض وتطلب عصيرَ برتقالٍ ببطءٍ بصوتِها الطفوليّ: "Jugo de naranja al natural". كم راق لكبار السن من الإسبان أن يشاهدوها تأكل طبق tapas، متجادلين حول عمقها «الروحيّ» آكلةً مخلّل الخبّار، ومجسّات الأخطبوط وسواهما. الآن باتت تعيش مع أمّها في سان دييغو. رحلته في لاوس من ضمن أشياء أخرى (الكحول، معاشرة النساء، عجزه عن الاستقرار) دمّرت علاقتهما الزوجيّة. في لاوس أخذ قذيفةَ 75، أطلقها من مقاتلته الحربية فانتوم، مخلّفًا طيّارًا قتيلا، وقضى شهرين مع بعض صيّادي السمك الودودين في سفينة جنك[1] كي يتجنب التنظيمات الشيوعيّة من أمثال الباثِت لاو والكونغ. كان ضدّ السياسة في تكوينه الجوهريّ والآن

---

1 - سفينة الجنك أو الينك سفينة صينيّة شراعيّة.

لم تعد الحرب تعاود الظهورَ إلا في كوابيسه. لقد كان رجلًا في العشرين منذ التاسعة عشرة من عمره وحتى التاسعةِ والثلاثين، طيّارًا حربيًّا، والآن لم يعد يطيق رؤيةَ طائرة. كان يذهب إلى كل مكان بسيارة مارك IV مكدودة اشتراها خلال حفلة سُكرٍ في كاليفورنيا.

بعد أن أنهى التمارين شرب كوبًا من القهوة وفحص مضاربه الثلاثة للتنس الأرضيّ من نوع ترابرت سي 6. قبل يوم حقّق المركز الثاني في بطولة أحد الأندية، خاسرًا فقط أمام شابٍّ في نصف عمره كان يُعَدّ اللاعب الواعد الأبرز في أريزونا. اليوم كان كوكرن المرشّح الأقرب مع زميله لنيل بطولة الزوجيّ التي باتت أهونَ على ساقيه. كانت مباراة أمس قد انتهت على النحو التالي 5-7، 6-4، و 4-6 وحتى وهو فائزٌ بالمركز الثاني كان متيّقنًا من أنّ ساقيه لم تكونا لتسعفاه للحصول على الثالث. تيبي كان قد أوصى أحد رجاله بأن يضع زجاجة (دوم برينيون) في السيّارة مع وردة بيضاء ملصقة بالبطاقة. الآن نظر إلى الوردة البيضاء التي لم يستطع أن يحزر ما وراءها وفكّر في ميريا زوجة تيبي.

اسم تيبي الحقيقيّ كان بالدسارو مِندِز. مثلَ عديدِ المكسيكيّين فاحشي الثراء كان له منزلٌ احتياطيّ في الولايات المتحدة. شكّلوا مجتمعًا صغيرًا وسافروا إلى حفلات بعضهم البعض في بالم بيتش، ودالاس، وفينيكس وسان أنطونيو. استثمروا بكل ثقلِهم في العقارات، أبسطِ شيءٍ تراقبُ نموَّه عن بعد، ودخلوا بسهولة في الدوائر الاجتماعيّة بسبب ثرواتهم الضخمة وسحرهم القاريّ. استخدمه تيبي منافسًا خارجيًّا في مباريات التنس التي كان يُجريها في بيته وأعجب كوكرن بالرجل لقلبه الغليظ أحيانًا. طالما رفض المال من تيبي رغم قبوله برحلات مدفوعة إلى مكسيكو سيتي حيث في مباراة تنس زوجيٍّ هزما معًا فريقًا من تكساس على سطح فندق كامينو ريل.

ربح من ذلك ثلاثة آلاف دولار في جيبه أي قرابةَ المبلغ نفسه الذي كان تيبي يبذّره على مأدبة لعشرين شخصًا في مطعم فوكيت.

ميريا. وضع مضارب التنس مقرًّا أنّ شباكها كانت في حالة جيدة. أخرج صورتها في صفحة المجتمع من محفظته وتأمّل تكوينها البارد الرهيف على صهوة حصانِ قفزِ الحواجز. يا للهواء الخالص. لقد خاض ما يكفي من معارك الحبّ ليعتبر الحبّ أقرب ما يكون إلى مرض، مفهوم سيطر في العصور الماضية حين بدا العالم أصغرَ وأحكم.

رقد على الأرض وتنفّس بعمق محاولًا أن يحول بينه وبين العقدة المتشكّلة داخل رأسه. طالما ضحك على هواجس الهلاك التي كانت تُقْلِق الطيّارين الآخرين، كأنّ الفراغ قد تشكّل سلفا تحت عظام القصّ في صدورهم وبدأ في الانتشار. لكنّ مثلَ ذلك وقع له يومَ مهمّته العسكرية شبهِ المميتة: اختناقٌ غير موجّه، نوعٌ من الذعر السابح في الأجواء بِحُرّيّة. خربشت دُل على الباب المنزلق فأدخلها، جدّد لها الماء، ولاطفها في وكرها على الأريكة. كانت على الدوام رقيقةً، حنونةً، خجولةً أحيانا، ولقد أبهره أنّها إذ تُطلَق في الحقل الفسيح كانت تتحوّل إلى آلة صيدٍ خطيرةٍ حقا.

كلٌّ يتمنى قدرًا من الغموض في حياته لم يفعل شيئا بالتحديد ليستحقّه. قبل أن يلتقي ميريا دخل في علاقة غراميّة قصيرة مع فتاة من كوربوس كريستي تخرّجت للتو في كلية ويلسلي، لكن الغموض تكشّف بسرعة عن شكوى دائمة وأدرك أنّه إنّما رغّب نفسَه في هذه العلاقة هربًا من مللٍ غيرِ معلوم. كان قد قضى عامين محاولًا أن يفهم الحياةَ المدنيّة، مدرِكًا أنّه لم يقبض على شيءٍ منها في سلاح البحريّة التي قد كانت في نظره بمثابة أمٍّ نكِدة وهو يتيمٌ متبنًّى كانت تعامله بحسنٍ فقط ما دام أداؤه حسنًا. فتاة تكساس كانت حبيبة، طويلةَ الأطراف، ذكيّة لكنّها غريرةٌ وغافلة: كانت منزلًا يريد أن

تسكنَه الأشباح بينما ميريّا، أكبرَ منها ببضع سنوات، كانت منزلًا مسكونًا. لقد لعب التنس في منزل تيبي لأكثرَ من ثلاثة أشهر قبل أن تفعلَ أيَّ شيءٍ أكثرَ من الانتباه له عرَضًا. ثم بعد عشاءٍ عند تيبي، استهلك خلاله الكثيرَ من النبيذ، لمحته ينظر إلى الكتب في مكتبتها بينما بقيّة الرجال بدأوا لعبة بلياردو برهاناتٍ عالية والنسوةُ كنّ يتحدثن عن جديد جيفنتشي وكيف غدت أزياء هالستن سخيفةً هكذا.

بعد خدمته في غوانتانامو حين التحق بالأكاديميّة العسكريّة أوّل مرة ثمّ لاحقًا خلال خدمته في توريجون تحدّث الإسبانيّة بطلاقة. لم يحتمل أن يكون غبيًّا- في طفولته في إنديانا فكّك محرِّك فورد 8 أسطوانات كي يرى كيف يعمل، ولم ينضمّ إلى القوّات الجويّة إلا ليعملَ على محرِّكات الطائرات النفّاثة. كان دائمَ الدهشة من قلّة تقدير المدنيّين للذكاء الذي يتطلبه أن تحلِّقَ بطائرةٍ نفّاثة. توغّلاته في الإسبانيّة كانت بمثل شموليّةِ تعلّمِه الطيرانَ ومنهجيّتِه. الغربُ الأوسطُ يتلخّص في نوعيّةِ صبيٍّ مزرعةٍ وحيدٍ يريد أن يعرف كلّ شيء، بدأ في غوانتانامو متسائلًا ببساطة لمَ كان الناس يتحدّثون لغات مختلفة، سؤالٌ على بساطته ساحر. لكنّ هؤلاء الصبيْةَ امتلكوا طاقةً بصيرةً وقد أعجبته فكرة اصطناعيّة اللغة وتعلّم الإسبانية اختبارًا للفكرة، دارسًا مثل طالب علم أَبْلَهَ مُلِمٍّ بالتقويم الصيني واصل المضيَّ قُدُمًا عبر الشعر والروايات. لا أحد من أصدقائه أو رفقاء مَهجعه تهوّر بمساءلته لأنّه كان قائدًا بالفطرة والأفضلَ في كلِّ شيءٍ اختار ممارستَه سواءً البلياردو، الغوص أو تدريجيًّا التنس- بتلك القدرةِ الأصيلةِ على احتكار الهراء وبأن تكون أكثرَ جنونًا وجرأةً بصورةٍ تثير الحسد.

الآن هذه الكائنة اللطيفة اقتربت منه وبين يديه كتابٌ من مكتبتها، مجموعة شعريّة للوركا سبق واطّلع عليها، مطبوعةٌ في برشلونة على ورق أصفر رقيق

ومسفّرةٌ بغلافٍ من جلد. كان خلال الأشهر الثلاثة الماضية مرتبكًا تمامًا تجاه تجاهلِها له. الحالة تجاوزت بكثيرٍ فكرةَ التحرّك «خطوة» إلى منطقةٍ من التوتّر المتحفّظ ولذلك عندما رآها بدا أنّه فقد أريحيّتَه وقيادتَه. شعر بأنّ أدنى لمحةٍ منها تصيبه بسكتة. وفي اليوم الذي قبله بينما كان يسبح احتاج شرابًا فرآها تقضم قضمةً من كلوب ساندويتش قبل أن تقرّر أنّها ستأخذ قيلولة فهزّ تيبي كتفيه في تلك العلامة الكونيّة على عدم الفهم. شعر بأنّها افترضت بناء على صداقته بتيبي أنّه رجل أعمال أحمق ولقد فعل كلّ ما بوسعه كي يحرّرها من هذا التصوّر. عندما اقتربت منه عند المكتبة كانت اللحظة الأولى التي أتيح له أن يحدّثها على انفراد. ضربت برفق الكتابَ في يديه قارئةً عنوانَه بالمقلوب. ابتسمت واقتبست من لوركا: "Quiero dormir el sueño de las manzanas, alejarme del tumult de los cementerios..." («أريد أن أنامَ مَنامَ التّفاح، بعيدًا عن اصطخاب المقابر...»)[1]. رأى أنّه لم يسمع قطّ أيَّ شيءٍ أجملَ وحدّق في السقف بخجلِ طالبِ مدرسةٍ غيرِ متأثّر وردّ عليها باقتباسٍ من الشاعر نفسِه: "Tu vientre es una lucha de raices / tus labios son un alba sin contorno. / Bajo las rosas tibias de la cama / los Muertos gimen esperando turno." («بطنكِ معترَكُ جذور/ شفتاكِ فجرٌ في الغبش./ تحت ورود السرير الخادرة/ يئنّ الموتى في انتظار دورهم.»)

حدّقت فيه لحظةً فنبض صدغاه بشكلٍ غبيّ. خجِلت وصرفت نظرَها وتمنّى أن يقول شيئًا سخيفًا كي يخفّف التوتر فأعجزه الكلام. مالت بذقنها

1 – اقتباسات لوركا مترجمةٌ عن الترجمة الإنجليزية المقتبسة في الرواية من كتاب:
Selected Poems of Federico Garcia Lorca, translated by Stephen Spender, J. L. Gili and W. S. Merwin. 1955 by New Directions Publishing.

إلى الأمام كأنها تنظر إلى شيءٍ بعيد ونظر إلى حلقها مفكّرًا في أنّه استطاع تمييزَ رائحةٍ بين نَفَلةٍ وبرتقالة. أوقع الكتاب على الأرض فضحكت ومشت مبتعدةً عنه. جرع ملءَ قدح من البراندي الذي وقف في حلقه وجلب الدمعَ إلى عينيه.

عندما وصل البيت ليلتئذ وجد نفسه جوّالًا أَرِقًا رغم الحبوب والكحول. عند الفجر خرج بكلبته دُل إلى الصحراء وأطلقها على بعض السمّان لكنّها فقدت الاهتمام لأنّه منتصف أغسطس والموسم لم يبدأ بعد ولا سلاحَ معه، توجّهت صوبَ بومة صغيرة في شجرة مسكيت ثم أخذت تعدو في دوائر تعبيرًا عن المزحة التي خدعَتْه بها. قرّر أنّ رحلةً طويلةً قد حان دورها. لم تمرّ به علاقةٌ مع امرأةٍ منذ الثامنة عشرة لم يتمتّع خلالها بسيطرة كاملة. لقد ذكّرته بأعمال موديلياني التي رآها في متحف في باريس. تذكر قولَه حين تأمّل واحدةً من لوحاته أنهّ ثمّة امرأةٌ في وسعه أن يحبّها. كان الأمر غريبًا. خمّشت دُل الأرضَ عند قدميه وعوت متذمّرةً وهو يحملق بعماء في شجيرات اليُكّة والمسكيت.

راجعًا بالسيّارة عانى صداعًا فظيعًا وغيّر الأشرطة في مشغّل الكاسيت ستّ مرّات. استمع إلى جيمي بافيت يغني "The Pirate Turns Forty" وملأه شعورٌ بالاشمئزاز من الذات. دعا دُل إلى المقعد الأماميّ، حدثٌ نادر، ولاطف رأسَها مفكّرا بأنّه سيعود بسعادةٍ إلى مرافقة النادلات والمضيفات. إذ طالما نفر من السيّدات الثريّات. قبل أشهر قليلة ذهب للسباحة مع الفتاة من كوربوس كريستي التي نسيت أن تخلع ساعة يدها التيفاني وتَفَكَّر في أنّ قيمة ساعتها ربما أعالت عائلتَه سنةً كاملة أيّامَ نشأته صغيرًا في إنديانا. كانوا يملكون مزرعة صغيرة وورشة إصلاح سيّارات وجرّارات الزراعية. عندما يعضّ والدَه الفقرُ كان يقايض ببطاريّةٍ مستعملةٍ ثلاثَ دجاجاتٍ لأجل عشاء

الأحد. تساءل ما الذي كان يفعله مستميتًا في حبّ زوجة مليونير مكسيكيّ، أو أكثر بكثير من مليونير فلقد كان تيبي يملك طائرةَ ليرجِت وطائرةَ بايبر كومانش خفيفةً ثنائيّةَ المحرّك من أجل المطارات الصغيرة. قرّر أن يهاتف فونيتا آنَ وصولِهِ البيت. كانت تعمل مضيفةً في بيت شواء، كانت في مثلِ عمرِه، ضجيعة رائعة، مطلّقَة مرتين. رافقته في العديد من رحلات الصيد والقنص، وتستطيع طبخ السمّان بجمالٍ على سريرٍ من المسكيت المتفحّم. بالطبع كانت تردّد نكاتٍ تافهةً بشكل يائس طيلةَ الوقت وجدرانُ شقّتها تعرض تصاويرَ على مخملٍ أسود، من ضمنها ثورٌ ناريُّ العينين وغروبٌ تاهيتيّ. غضِبَ منها ذات صباح حين استيقظ ليجدها في الممرّ تغسل سيّارته.

عندما وصل البيت أخذ حبوبَه المنوّمة، وحمّامًا ساخنًا واستسلم للسرير، مغطّيًا الهاتف بالوسائد. ابتسم وهو يغرق في النوم مفكّرًا في رسالةٍ وصلته من أبيه. كان قد أرسل إلى ابنته صورةً له ممسكًا بكأس بطولة تنس. زوجته قد تزوّجت شقيقَه الأكبرَ الذي كان يعمل مع أبيه على قارب العائلة المخصّص لصيد سمك التونة خارج سان دييغو. غادروا إنديانا في مراهقته المبكرة، ذكرى لم تزل تثير أحزانه، لكنّ والده انتعش في كاليفورنيا. في الرسالة قال له: «رأيت الصورة، يا كبير. حين تتعب من الجري في بناطيلك القصيرة فاعلم أنّ لك مكانًا على القارب. محبّتي، أبوك».

لكن عندما أيقظه منتصفَ الظهر قرعٌ على الباب بدأ الكابوسُ من جديد. بعثت له ميريا رسولًا بصندوق كتب مغلّفٍ بعناية من مكتبتها، كلّها مزيّنةٌ بكعوبٍ من الجلد ومحتويةٌ على العديد من تهميشاتها. بعض روايات باروخا، وأيضًا عائلة باسكوال دوارتي لكاميلو خوسيه ثيلا، و نينا هيوانكا لفوستينو غونزاليز آلِر، ودواوين شعرية لماتشادو، غيين، أوكتافيو باث، نيرودا ونيكانور بارا. في الإهداء لم تزد على أن كتبت: «هذه بعض كتبي المفضّلة،

أرجو أن تعجبك. ميريا». ثم ذيّلت باقتباس: "La luz del entendimiento/ me hace ser muy comedido." («نور البصيرة / قد ألهمني الحذر»).

شرب ثلاثة أكوابٍ من القهوة، مضيفًا البراندي إلى الثالث، باحثًا عن مصدر الاقتباس الذي افترض أنّه من لوركا. وجده أخيرا في La Casada Infel (الزوجة الخائنة). صبّ كأسًا آخر ورفع السمّاعة ليرد عليه خادمٌ بالقول فقط أنّ سنيور مِندِز كان في ميريدا. لم يجرؤ على طلب ميريا بشكل مباشر. مشى في غرفة الجلوس، دائخًا ولاعنًا. فالآن لن يستطيع الزيارة تحت ذريعة رؤية تيبي. بدا أن خدم تيبي حرسٌ شخصيٌّ أيضًا، فليست بهم مسحة الغيبوبة التي تميّز العمالة المنزلية. للمرة الأولى سمح لنفسه بأن يتخيّلها عارية. شتم وقذف بكأس الزجاج على الحائط فوق الأريكة. نبحت دُل نباحا هستيريًّا وأعطاها شريحة هامبرغر لتهدأ. اتّصل بمنزل تيبي مرّة أخرى آملًا أن تردّ هي لكنّ الخادم نفسه أجاب كأنّما كان راجنًا بالهاتف. أخرج بندقيّةً من خزانة السلاح مفكّرا في الذهاب لرمي الأطباق الطائرة لكنّه أعادها عارفًا بأنّه لم يكن يملك لا المزاج ولا التركيز. لبس حذاء المشي مرجّحًا أنّ نزهةً مسائيّةً طويلةً في الصحراء قد تهدِّئه.

كان يركب سيّارته حين توقّفت بسيارتها في المكان الخالي إلى جانبه. شُدِهَ فلم يحِرْ جوابًا إذ قالت أنّها لم تكن تودّ مقاطعة مسائه. سوّت شعرها وعدّلت الوشاحَ حول عنقها، ثم ضحكت على خَرَسِه. أخذ يدها وقبّلها في محاكاة ساخرة لأحمقَ مهذّب. قبّلت يده ثم عضّتها وضحكت أخرى. «بتُّ أفكر في أن أكون معك وقتًا طويلًا».

تبادلا الغرامَ المساءَ كلَّه لكن عند التاسعة قالت أنّ عليها أن تذهب إلى البيت تجنّبًا للريبة. قال لكنّ تيبي في ميريدا، فقالت لكن عندي نصف دزينةٍ من الأزواج مستعدون لقتل أيِّ أحدٍ يؤذيني. ثم سألَته أن يغادر الغرفة كي

تكتب له رسالةً صغيرةً يجب ألّا يفتحها حتى الصباح. رحلت بينما وقف منتظرًا في الحمام ناظرًا بسعادة إلى نفسه في المرآة. سمع الباب ينغلق فهرع خارج الحمام وخارج البيت فقط ليراها تدلف إلى سيارتها البي إم دبليو البيضاء. لوّحت له وانطلقت مسرعة. قابلته دُل عند الباب. كلما زارته امرأةٌ نامت أو تظاهرت بالنوم طول الوقت في شكلٍ خجولٍ من الغيرة. فتح الرسالة التي كتبت فيها أنّها كانت تكره الوداعات وأعادت «أحبّك» سبع مرات. طبخ لنفسه قطعة لحمٍ كبيرة مغنّيًا بدوخة نشوانة على الفرن لكنّه لم يأكل سوى نصفها ممرِّرًا البقيّة إلى دُل. نام جيّدا تلك الليلة لأوّل مرّة منذ أشهر. كأنما قد اجتازت روحُه أوجاعَ ضرسِ عقلٍ أليمةً ومديدة.

كان كل ذلك قبل ثلاثة أسابيع فقط. التوجّسُ الخائف الذي انتابه وهو يجهّز حقيبة التنس لم يأت من فراغ. ذات مساء انسكبت على صدرها العاري قهوةٌ ساخنة فأجهشت بالبكاء. فزِع ليحضر بعض المراهم لكنّها أشارت إليه بأنها لم تعانِ حروقًا، إنّما كانت حزينةً لأنّه لا مكان لتأويَ إليه. حاول تقبيلَ البقعةِ الزهريّةِ التي رسمتها القهوةُ على نهديها الأبيضين فجُنّت راجيةً إيّاه ألّا يلمسَها. لم تقع عينه قطّ على جسمٍ بعمقِ جمالِ جسمِها وأخيرًا جثا وقبّل ركبتها وجذبته إليها. أخبرها على عجلٍ أنّه أعدّ لكلِّ شيء وأنّه أخذ مدّخراته وسيهربان إلى إشبيلية التي كانت مدينتَه المفضّلةَ على الأرض وأنّ أحدًا لن يعثر عليهما هناك. لكنّها قالت أنّه إن ذكر الأمر مرة أخرى فلن يراها أبدًا. كانت باردةً تجاهه بشكل غريب حين غادرت في تلك الليلة.

لا أحد منهما حدس عندما تبادلا قبلةً في سيارتها أنّ «خادمًا» رآهما مستندًا إلى نخلةٍ على بعد مئة ياردة.

النذير الحقيقيّ والخرْقُ في سرّيتهما جاء حينما اعترف سعيدًا بعلاقتهما على شرابٍ رفقةَ زميلِه في مباريات الزوجي الذي ابيّض وجهُه على الفور. زميله

كان صديقَه الوحيدَ والموثوقَ في توسن ويعمل طيَّارًا في آيرومكسيكو. وقال يا لَكَ من سافل، يا غبي لِمَ في ظنك تيبي يسمّى تيبي؟ لم يكن يعرف وكان مصدومًا من ردة الفعل وقال زميله: «تيبي اسمٌ مأخوذ من tiburón ti-burón tiburón التي تعني القرش. ارحل من هنا غدًا ولا تعد أبدا. لقد رحتَ ضحيّةَ تلك العاهرة في أُوار شهوةٍ إذا لم ترحل. ولسوف تُدفَن في أحشاء الصحراء». ضرب صديقَه ولم يبدُ أنّ الصديق اهتمّ لذلك ساكبًا لهما مقدارًا عظيمًا من الشراب وقائلًا أنّ لديه علاقات وأنّ بإمكانه أن يوفّر له جوازًا مزوّرًا للسريّة وأن يمنحَه كذلك مالًا إن احتاج.

كان مساءً مريعًا وقبيحًا بدا في نظره لطيفًا حين أفاق في اليوم التالي. رغم ذلك، ذكر طرَفًا منه عَرَضًا لميريًا فضحكت ضحكتَها العالية وقالت لا تكن سخيفًا لن يقتلك بل سيقتلني ورفضتْ أن تتحدّث عن الموضوع مجدّدًا. كان ذلك قبل بضعة أيام فقط. الآن بعد البطولة سيكونان معًا لثلاثة أيام لأنّ تيبي كان في كاراكاس. الحيلة كانت أنّها ستذهب لزيارة أختها التي كانت زوجةَ دبلوماسيٍّ في الأمم المتحدة في نيويورك. السائق سيُقلّها إلى المطار بعد البطولة، وسيأخذها هو من هناك؛ وينطلقان إلى دوغلاس، بلدة على الحدود تقع في الجهة المقابلة لأغوا بريتا، وسيصلان إلى الكوخ في الصباح التالي.

كلّ شيء جرى كما خُطِّط له ما عدا مباراةَ التنس التي طالت بلا رحمة في ظهيرةٍ حارقة. لم يستطع رؤية ميريا في الزحام وبعد فوزه بالمجموعة الأولى بفضل رشاقة زميله خسرا الثانية 2–6 وبدآ الثالثة بداية سيئة. عبس زميله في وجهه وأحس بساقيه ثقيلتين. صرخ على امرأةٍ في الحضور وقفت وهو يستعدّ لضربة الإرسال. ثم بزغت ميريا وغمزت له على استحياء وتذكّر كم كان يفترض به أن يكون سعيدًا وأنهى المجموعة الثالثة كمن سرى فيه تيّارٌ كهربائيّ. حينما كان يستحمّ، دخل سائق تيبي إلى غرفة تغيير الملابس

وبابتهاجٍ ناوله ظرفًا معلنًا أنّ سنيور تيبي أراد أن يقدِّم له هديّة. بعد أن تنشّف فتح الظرف وإذا بتذكرة ذهاب فقط إلى باريس ثم إلى مدريد وعدّةِ آلاف من الدولارات من فئة المئة، ورسالةٍ تقول: «عرفت أنّك ستفوز منذ أيام يا صديقي». فحص التذكرة مرّات عديدة ظانًّا أنّ تذكرة العودة ربما نُسيت بالخطأ. قرّر ألّا يُطلِعَ ميريا على الأمر. ولمَ يفسد نهايةَ الأسبوع؟ فكّر، محاولًا أن يُخفِّف من انزعاجه الملموس الذي أحسّه عميقًا في معدته.

في الطريق إلى المطار توقّف ليحمل حقيبته وكلبتَه من الشقة. شرب كأسًا سريعًا من النبيذ لعلّه يُطيِّر الفراشات التي أتت في موجات متفرقة. ضحك على نفسه، مسترجعًا كلّ تلك السنوات التي قضّاها أغلب الوقت في طائرات حربيّة تحلّق بسرعة ماخ 2، ملتوية وملتفّة فوق سماوات فيتنام، لاوس وكمبوديا، وبعض الوقت متبوِّلًا في سرواله وهو يحاول تجنّب صاروخٍ متجهٍ نحوه. أو حتى قاذفًا صواريخه فوق الخليج بعيدًا عن قاعدة إغلين الجوية، عندما اشتعلت نارُ التماسٍ كهربائيٍّ في جسد الفانتوم، أو تلك الارتطاماتُ الوشيكةُ أثناء عمليات الهبوط الليليّ. واحدٌ من أصدقائه ذهب ضحيتها في بوكا تشيكا، قرب كي وِست، بعد نجاته من مئة مهمّة عسكريّة فوق جنوب شرق آسيا. كان يميل إلى اعتبار الحياة المدنية آمنةً تمامًا وهذا الخطرُ الجديد بالتناوب أزعجه وأثاره باندفاع الأدرينالين الذي يحسّه أيُّ حيوانٍ ثدييّ.

مقتربًا من المطار بدت السماء فوق توسن ملوّثة وملطّخة بصفرةٍ شاحبة من عوادم سيّارات ساعة الذروة. عَلِق شريطٌ بالمشغّل وحين سحبه انفلّ مثل خيوط سباغِتي على المقعد. رغم المكيّف فإنّ السيارة فاحت برائحة الأوزون فازداد شوقه إلى الرحلة خلال الجبال مع ميريا. قرّر أن يقفز على الذهاب إلى الفندق ودوغلاس ليمرّا مباشرةً إلى العشاء في مطعم فاخر كان

قد جرّبه في أغوا بريتا، ثم يصلان الكوخ الصغير قرب كولونيا موريلوس مع هبوط الليل. ربما كان لتيبي أصدقاء في دوغلاس وانزعاجُ السفر قد زاد من حدّته التفكيرُ بالقبض عليه متلبّسًا في فندق. أصرَّ صديقه، الطيّارُ في آيرومكسيكو، على أنّ تيبي كان متورِّطا في كلّ شكل من أشكال التحايل المالي، شرعيًا أو غيرَ شرعيّ، بالغًا ومتضمّنا تهريب الهيروين بصورةٍ واسعةِ النطاق عبر الحدود. حين وصل البيت يوم الاثنين كلّم صديقًا قديمًا في الاستخبارات البحريّة كي يستعلم لأجله سريعًا عن تيبي عبر واشنطن. لا لأنّ ذلك كان يهمّه؛ فلقد أَحبّ تيبي كثيرا وخلال ثلاثة أشهر تطوّرت علاقتهما من معرفة عابرة إلى شيءٍ يشبه الصداقة. الأسابيع الثلاثة الماضية مع ميريا آلمته من هذا الجانب لكنّه كان غارقًا في الحبّ بصورةٍ لا تحتمل وتمسّك بحاله تلك باعتبارها أوّلَ شيءٍ عظيمٍ تمامًا يقع في حياته من سنين. في الحقيقة كان متولّهًا تولُّهَ طالبٍ في الثانوية مرهفِ الحسّ يتساءل إذا ما تجرّأ على مشاركة محبوبته قصيدةً هل يا ترى ستضحك منه. يقرأ لها القصيدة بالفعل واستعدادها الأنثويّ للرومانسيّة للحظةٍ يقارب رومانسيّتَه فينغمران في غَيبةِ عشق، حالة تعيد الأحاسيس حتمًا إلى طزاجتها الأولى مهما تكن أعمار العاشقين. تراها تحدث من المدارس الابتدائية إلى مجتمعات المتقاعدين: الارتباط الحادث بين روحين وجسدين، مثمِرًا في الغالب الرعبَ والأسى لأنّ طاقةً مهولةً غيرَ معروفة آنفًا تتحرّر. لقد مرّ زمن طويل منذ شعر بأيِّ شيءٍ مماثل وإن من بعيد، وإن مع الفارق؛ كان قد مسّه الهيام بالنساء نصفَ دزينة من المرّات من قبل مُتراوِحًا بين ممثلّة مدريديّة إلى فتاة تكساس مؤخّرًا، دون احتساب زواجه الذي كان مودّةً ورفقةً حانيةً لا أكثر. كانت زوجته ممرّضةً في القاعدة العسكرية في غوام، فتاةً من ريف إنديانا، وصارا زوجين تقريبا بقوّة الحنين وحدها.

عند المدخل الخاص بطيران برانيف نفح الحارسَ عشرةَ دولارات كي يراقب سيّارته وذهب مباشرةً إلى صالة كبار الشخصيّات حيث جلست ميريا تحتسي شرابًا، هادئةً ومفصَّلَةً تفصيلًا يخطف الأنفاس. شرب هو ستوليتشنايا مارتيني وأخبرته أنّها ذهبت بعيدًا في خداعها إلى حدّ أنها مرّرت حقيبة خلال فحص حقائب الرحلة المغادرة إلى نيويورك حمّلتها بالملابس هديةً لأختها. لقد جذب الاثنان إليهما انتباهًا أكثرَ مما ظنّاه ممكنًا: كان مسْمَرًّا ولائقًا، أصغرَ من عمره الواحد والأربعين بنصفِ دزينة من السنوات ما لم تدقّق النظر حول عينيه، لابسًا ملابس غير رسمية لكنّ غلاءها بادٍ وساعةُ روليكس فضيّةٌ تزّين معصمه. أمّا هي فكانت محطَّ الأنظار في كلّ مكانٍ تقريبًا. خصوصًا حين يكون النظّارةُ أرفعَ ذوقا، في روما مثلًا أو لندن أو باريس. وُلِدت في مكسيكو سيتي من أصولٍ غواتيمالية-برشلونية وتلقّت تعليمها في لوزان وباريس. أنفقت معظم شبابها (كان عمرها سبعةً وعشرين) في كونها باردة، محايدة وراقية، وتحت هذا الغشاء أحرقت زهرةً واعية وشَغوفة. كانت أقصرَ منه بقليل، خمسة إنشات وثمانية، وامتلكت جمالًا منبِّهًا حتى إذا ما فعَلَتْ شيئًا بسيطًا للغاية كأن تجلسَ في صالة برانيف، تُشعلَ سيجارة وتقرأَ مجلّة، دارت عليها العيون. حتى إنّ رجلًا الآن متينًا كبيرًا في السنّ بحقيبةِ مستندات من جلد عجل كان يطالعها من حين لآخر من وراء صفحات فوربس. كان مجنَّدًا لتيبي خارج مكسيكو سيتي فلم تتعرّف عليه. عندما غادرا تبعهما بسيارته مجريًا اتصالًا عبر موجات اللاسلكيّ ومفترِقًا عنهما عند أوّل مخرج في الطريق السريع.

في السيّارة كانت سعيدةً بمزاج بنت صغيرة، معيدةً لفَّ الشريط ومغنّيةً له بعض أغاني غوادالاخارا الفلكلورية التي أَحبَّها. خارج حدود المدينة أخذت حقيبتها من المقعد الخلفيّ وغيّرت بدلة بالنسياغا الرسميّة بفستانٍ

صيفيٌّ خفيف. قال أنّه لا يطيق رؤيتها جالسة هناك بسرعةِ سبعين ميلًا في الساعة في ملابسها التحتية وقالت يا حبّي لم يسألك أحدٌ أن تطيقَها فانحرف مبتعدًا عن طريق صحراويّ مزدوج مُحَفَّر ومارسا الحب في آخر الظهيرة منحنيًا فوقها فوق غطاء محرِّك السيارة. على بعد ما يقارب أربعمئة ياردة على ربوةٍ شاهدهما رجلٌ بمنظارِ زايس. استند إلى سيّارة نقل ضخمة وتنهّد بينه وبين نفسه حين ارتفعت ساقا ميريا، هوَتَا وتشبّثتا بالرجل. تناول بيرة تِرِس إكويس من برّاد على المقعد، محمومًا شعر كما الهواء الحارّ الذي ترنّح وشوّش عليه الرؤيةَ من خلال المنظار.

هجس أن لو كان تيبورون حاضرًا لسَحَب البندقيّة من تحت المقعد ورماهما رمي صيّادٍ غزالًا أو ماعزًا جبليًّا. في هذه الأثناء كان يشاهدهما يكملان غرامَهما وفمها منحسر عن ضحكةٍ بالكاد يسمعها. ترقص في دائرةٍ ويسبُّهما المشاهد إذ يهوي الرجل على الأرض ويهتف بشيءٍ ما. يخفض المنظار لحظةً ويفكّر أنه لا يمكن بحالٍ أن يقدح في ذوق هذا الغرينغو وأنّها بالفعل منظرٌ بديع، وهو لم يرها سوى مرّة عن بعد عندما زار تيبورون أمّه العجوزَ في دورانغو لمدّة أسبوع.

في السيارة قالت أنّها شعرت مثلَ عاهرةٍ رائعة، ما القصّةُ وعرقَها وشعرَها المخضّلَ الملتصقَ بصدغيها، وياالَعظمة أن تذهب في رحلةٍ في سيّارة، وكيف مرّت سنين منذ فعلت أيَّ شيءٍ سوى الطيران. كان هو قد بدأ يتساءل في ارتيابٍ مجنونٍ عن سيّارة النقل على بعد ميل، ظانًّا أنّه قد رآها قبل أن يتوقّفا. لكنّ السيّارة انعطفت في بنسون وغادر هو قَلِقًا إلى أن عبرا خلال تومبستون وقد أغلقت هي عينيها مفكّرةً في مدى فظاعة أن يطلَق اسمٌ كهذا على بلدة[1]. تذكّر هو صنْعَه شاهدةً يوم كان في العاشرة لأجل فرَسه التي أنشبت نفسَها

1- إشارةً إلى معنى كلمة tombstone: شاهد قبر.

في أسلاكٍ شائكة بصورة سيّئة للغاية حتى أجبرت أباه على أن يُريحَها من الألم بطلقةٍ ناريّة. خطّ بالدهان على صخرةٍ كبيرة: سوزي ولدت سنة 1943 وماتت في 46 هنا ترقد فرس أصيلة من سلالة مورغن مَلَكَها وأحبّها جي. كوكرن الذي يندب فقدها. اقتطع الجزء الأخير من الجريدة في مقر المقاطعة التي كانت تطبع تعازيَ وعبارات تأبينيّة في صفحة الإعلانات الشخصيّة.

وصلوا دوغلاس قبيل السابعة، قضّوا بعض حوائجهم وعبروا الحدود إلى أغوا بريتا حيث اشترى لها محفظة من عند سرّاج وتعشّيا حساء ربيان ومشويَّ كبريتو، وركِ تيسٍ جَذَعٍ تَبَّله الطاهي بالزيت والثوم والزعتر الطازج. أَحَبَّ مكسيكو وسألها عن دورانغو، مسقطِ رأس تيبي في الاسييرا مادري). قالت بأنّ دورانغو كانت شعبيّةً جدًّا، مركزَ رعيٍ وتنقيبٍ ليست تُذكَرُ عادةً في أدلّة السيّاح ولذلك أُغرِمت بها. كان لتيبي مزرعةُ ماشيةٍ هناك وكان قد دُعي إلى تصوير فيلمٍ فيها خلال أشهرٍ معدودة. قالت ميريا بأنّها تشبه مونتانا أو أجزاء من كتالونيا أو قشتالة وفي المزرعة يمرح السمان ويسرح الحبش البريّ وترتاض خيولُها. بنى تيبي ملعب تنس ترابيًّا وجننها به إلى حد أن رفضت مشاركتَه اللعب، حينئذ درّب عددًا من أتباعه بمساعدة لاعب تنس محترف جُلِب لهذه المهمّة من مكسيكو سيتي.

شارفا الكوخ الصغير على آخر الشفق، بأناةٍ يصعدان الطريق الجبليّة المزدوجة. توقّف مرتين وترك السيارة ليزيل الحجارة التي جرفها السيل من جداول الماء. تمنّى لو تحصّل على خرائطَ تضاريسيّةٍ جيّدةٍ للمنطقة لكن ما من واحدة. بأسلوبه المنهجيِّ المعتاد خبر المكسيك وعرف عن المكسيكيين أكثرَ ممّا تأتّى لمعظم الزوار الأمريكيين. قرأ كتابَ وُماك (زاباتا والثورة المكسيكيّة) Zapata and the Mexican Revolution ونصفَ دزينة أخرى من الوثائق المتوفرة عن تاريخ المكسيك الحديث. كان لم يزل بشكل ما محاربًا محترفًا ومثل

جنود الساموراي اليابانيين كان الوعيُ جزءًا غريزيًّا في تكوينه، أن يفهم بأكمل صورةٍ ممكنة ويعرف أين كان ولماذا؟ وكان بالفطرة أيضًا بالقدر نفسه كائنًا لا يقبل الوقوف متفرّجًا ولا يطيق أن يوجّه أيُّ أحدٍ آخر طاقاته المباشرة. جعله هذا مكروها أثناء الخدمة العسكريّة من الضبّاط الأعلى رتبة، وصنع منه بطريقة ما بطلاً طبيعيًّا لدى البقيّة. في فراغ عاميه الأولين من الحياة المدنية لم يتوجه اهتمامه إلى غاية محددة. هنا في المكسيك، بعد بضع زيارات، عُرِف ورُحِّب به في حانةِ قريةٍ جبليّةٍ صغيرة. مازحه السكان المحليّون وسخروا من طريقة نطقه للقشتالية، وقلّدوه مرارًا في كلّ تفصيلةٍ تقليدًا مشبعًا بالظَّرْف.

حين دخلا الكوخ عرف مباشرة أنّه أعجبها. انطلقت دُل مسعورةً تتشمّم ميادين صيدها لكن حذِرةً كما دُرِّبت من العقرب والأفعى المجلجلة. أفرغ السيارة وأشعل نارًا في الموقد الصغير مع رَمَق الضوء النهاريِّ الأخير. فرش كيس النوم المزدوج على السرير بينما كانت هي تتأمّل النار، مصغيةً إلى دقات المطر على سقف الصفيح. فاحت من الحطب الجافّ رائحةٌ كالعطر وسألته أن يحضر الوسادة الإسفنجيّة وكيسَ النوم إلى المصطلى. خفض الضوء في مصباح الكاز إلى أدناه وسرَّحَ فكرَه في نزهة الصباح حيث سيأخذها إلى بركةٍ خضراءَ صافية حفرها في الصخر جدولٌ جبليٌّ صغير. مارسا الحب متمهِّلَين وانبهر من ضياء النار المرتعش محرِّكًا الظلالَ صاعدةً وهابطةً على جسمها. كانا نصفَ سكرانين وحرّك الحطبة الكبيرة بعيدًا عن النار إذ تكثّف الهواء في الغرفة فزادت حرارتُها. غفت هُنيهةً وسكب لنفسه شرابًا آخر محاوِلًا أن يتذكّر متى شعر بأنّه مفعَمٌ جدًّا وفي الوقت نفسه حيٌّ جدًّا وحرٌّ بكلِّ ما في الكلمة من معنى.

الآن يجب أن ننأى بأنفسنا عن العاشقَين وندعَهما يرتاحان ولو لأقصر اللحظات فقط. لنلزمْ رفَّ الموقد، طائرُ عنقاء رهيب بعينين حجريّتَين،

من الأفضل أن يكون لك عينان حجريّتان لأجل ما سنشهده. الغرفة تبرد والعاشقان يحضنان نفسيهما بحثًا عن الدفء، ثم يتحرّكان، لم يزالا نائمَين، صوبَ بعضِهما البعض. ضوء المصباح خافتٌ، وظلُّ النار بات باردًا وواهنًا. في الخارج تهبّ الريح وتهمهم تحت الأفاريز همهمةَ ساحرٍ. دُل منزعجة عند الباب وتهرّ وتئنّ، ثم تنبح نباحًا مجنونًا مع اندلاع الباب مفتوحًا. الغرفة زرقاءُ زرقةَ اللهب إذ تَنسِف الحياةَ من الكلبةِ طلقةُ بندقيّة. ثلاثة رجال يندفعون داخل الكوخ، أحدهم في منتهى الضخامة. يهجمون على العاشقَين ويعوي كوكرن إذ ينسحق نَفَسُه ويخنقه الرجلُ العملاقُ صارخًا بالإسبانيّة. ميريا ممسوكة من ذراعيها ومغمّى عليها، أمسكها الرجل الذي رأيناه يشاهدهما بالمنظار. يقف تيبي في الخلف ويزيد من ضوء المصباح. ينعش العاشقَين بإبريق ماءٍ من الطاولة. عيناه تبدوان أوسع من العادة وفمه يظل منفتحًا رغم أنّه لا ينبس بكلمة. العملاق يمسك بكوكرن قريبًا منه كي يمكنه أن يشاهد تيبي يُخرِج موسَ حلاقة من جيبه وبمهارةٍ يشقّ جرحًا عبر شفتي ميريا، انتقامُ القوّادِ القديمُ من فتاةٍ متمرِّدة. الشفتان لا يمكن أبدًا أن تخاطا من جديد دونما أثرٍ بيّن خصوصًا إذا ما تأخّرت الجراحةُ طويلًا، ولسوف تتأخّر طويلًا. يومئ تيبي برأسه. إنّه دور كوكرن. العملاق يبدأ بلكمه لكمات عنيفةً طويلة، مثبّتا إيّاه على الموقد. يغمى على ميريا مجدّدًا لكن تيبي، ممسكًا إيّاها من أذنها، يقحم يدَه الأخرى في جفنيها. فيما يفقد كوكرن وعيَه يخال أنّه يرى أذنَها تنقطع في يد تيبي. يركل تيبي كوكرن بين فخذيه ثم يغسل يديه. يحقن الرجلُ الأصغرُ ميريا بإبرةٍ ثم يُحمِّلانِها وكوكرن في صندوق ليموزين أسفلَ الدرب. يقعد تيبي في الليموزين متنفِّسًا بعمق، قائلًا لنفسه بصوتٍ عالٍ ربما أنّهما الآن يتضاجعان في الصندوق. العملاق والرجل الأصغر يصبّان الكيروسين في أرجاء الكوخ. يركنان سيّارة كوكرن عند الباب. يرمي الأصغر بعود كبريت في الكوخ وبينما يمشيان يرتسم شبحاهما

على الكوخ المحترق. إنّه مشوار طويل إلى دورانغو وتيبي يريح ظهره شاربًا من قنينة سكوتش والسيارة تترجرج بهم أسفل الدرب إلى حيث الطريق. يرى انفجار السيارة خافتًا في المرآة الخلفيّة. وعلى بعد ثلاثين ميلا، ما زالوا بعيدين عن الطريق الرئيسة، يتوقّفون ويقذفون بجثة في الدّغل.

الفصل 2

التغيُّرُ كان نظيرَ أن تحلمَ أنّك كنتَ على كوكبٍ آخرَ يشبه من منظورٍ غامضٍ فقط كوكبَنا، ثم تستيقظ في حالةِ دُوار لتجد أنّك كنتَ على ذلك الكوكب. كان الأمر غريبًا غرابةَ ديجافو أبديّ، فما ظنَّه واقعَه صار يتزاح بعيدًا عنه في كلّ لحظة، متضائلًا إلى حين أن طفت فقط صورةٌ عابرةٌ من عقله- ابنتُه، الطريقُ أمام مزرعةِ إنديانا، كلبتُه. في الغرفة خلال الشهر نبش بانتظامٍ ذاكرتَه واستنفدها حتى إذا ما تأهّب أخيرًا لمغادرة الغرفة أدرك بصورةٍ ما أنّ العالمَ غيرُ العالم الذي تركه خلفَه. التشابهات ببساطة لم تكن قويّةً بما يكفي لتعيدَه إلى الماضي وفي الليل عندما طفت الصور شعر أن لا رابطَ يربطه بها فعجّلت الصورُ بالرحيل. في البداية ظنّ أنّ شدّة الارتجاج قد لَعِبت بمخّه، لكنّه فقد الاهتمام سريعًا بالشروحات الطبيّة. كان ثمّة ألمٌ ممتنعٌ عن النفاذ حدّدَه وعزلَه، وسيحرص على إبقائه حيًّا. عندما أطّلت الصورةُ رآها مجدّدا خلال خضابِ الدم المحمرّ الذي شوّش على عينيه، الكلبةُ طريحةٌ بعرض الغرفةِ وصرخاتٌ بيضاءُ حادّة ما زالت تخترقُ قبالةَ طبلتي أذنيه وذاك قد استطاع أن يستعيدَه واضحًا وضوحَ وضعِ أسطوانةٍ في غرامافون. تذكّر دائخًا فقط كيف أنّ ذراعه هوت منكسِرةً، أنّ الفكّ وعظمةَ الخدِّ والضلوعَ تقوّضت. لم يهتم لأيٍّ منها، صوت الصرخات وحده ما استطاع إعادةَ خلقه علّها بصورةٍ مخيفة أن تغنّي له أو تهمس.

بعد تلك الليلة الطويلة أطلع ديلر في الصباح على أنّه كان واعيًا وبدأ ديلر بإعطائه جرعة ديميرول دون أن يُفقده الإحساسَ تمامًا. سأله ديلر فقط إن كان من أحدٍ يجب إبلاغُه، مضيفًا بأنّه قد أصبح خارجَ دائرة الخطر، الذراع والضلوع تنجبر جيدًا لكنّ جانبَ وجهه كان فوضى وعليه أن يسعى لإجراء جراحة حين يعود إلى البلاد أيًا كانت بلادُه. أخذ ديلر مرآةً صغيرةً من الحائط وأراه أن التورّمَ قد خفّ غير أنّ الإصابة سحبت نظرةَ عينه إلى أسفل. ثم ذكر الطبيب أن نقيبًا وفِدراليّين سيمرّون خلال بضعة أيام لكن ليس عليه أن ينطقَ بشيء، فلقد صار لديه مع الارتجاج عذرٌ قانوني.

لاحقًا أتى شابٌّ ليحلق له لكنه رفض. قال أن اسمَه أنطونيو ثم مضى ليحمِّم كوكرن باستئناسٍ مغيظ. قال أنطونيو أنّه إن احتاج سجائر أو أيّ شيء فإنّه سيُقرِضه ويجلب له السجائر إلى أن يصلَه المال من الولايات المتحدة. ضحك أنطونيو والتفّ بجذعه إلى الباب قائلًا أنّهم لم يحظوا قطّ بمريضٍ وصلهم عاريا في حالٍ غريبة كأنّه قد وُلد ممزّقًا ومسلوخًا في الأحراش. قرّر كوكرن بأنّ ذلك الأنطونيو كان مجنونًا بما يكفي لجعله جذّابًا. ثم انزعج إذ لم يستطع أن يتذكّر إن كان يدخّن. «لا أتذكر إن كنتُ أدخّن»، قال.

«إذن لا تفعل. تجعل مذاق فمَك كريهًا. أمّا أنا فأحبّ الشراب لكن في غير أوقات العمل. أستطيع أن أهرّب لأجلك الخمرةَ لكنّها محرّمَةٌ هنا». غمز بعينه وخرج.

حين غادر أنطونيو، تحامل كوكرن على نفسه للنهوض عن السرير ومشى بخطى وئيدة إلى النافذة. آلمه صدرُه وأفقدته الجبيرةُ على ذراعه اليسرى توازنَه. داخ عند النافذة وتمسّك بالعتبة بشدّة، مصوِّبا عينيه إلى قدميه الحافيتين. أعجبه ما رآه خلف المبنى: كان عالمًا أخضر، حديقةَ خضروات هائلة بصفوف مرتفعة بين خنادق صغيرة للريّ، وخلفَ ذلك، بعضَ

العرائش والحظائر صائنةً حصانًا ضخمًا من سلالة برشيرون وثلاثةَ خيول كورتر كسيفة المنظر، أغنامًا قليلة، زريبةَ خنازير كبيرة وبعض العنزات الحَلوب. أكبر نساء العالم عمرًا انسلّت من خلف شجيرات وحدّقت فيه خلال النافذة، دون أن تحيد عنه قدمًا واحدة، ثم انفرج ثغرُها عن ابتسامة فردّ عليها بمثلِها واختفت.

لمّا رجع إلى السرير شعر بالجوع ودقّق في جُرْحِ إبرةٍ كبيرٍ في ذراعه اليمنى أبان عن أنّه كان يُغذّى وريديًا. شعر بأنّه أجوف مثل بيضة فصْح أُفْرِغت بوخزة دبّوس. نام نومة عميقة لكنّه استيقظ مفزوعًا حين حلم أنّه جالسٌ في الرمل يضحك قربَ سيّارته رانيًا إلى امرأةٍ جميلةٍ عارية ينزف فمُها نزيفًا مروِّعًا. زعق لحظتئذ حتى جحظت عيناه وأمسى كلُّه يَقِظًا في الغرفة المضاءة بالشفق. ديلر، ماورو وأنطونيو هرعوا لنجدته، ديلر لم يزل يمضغ لقمةَ طعامٍ ويمسك بحقيبته.

ألفى كوكرن نفسَه يقول: «آسف على إزعاجكم. لقد كان حلمًا». اقترب منه ديلر بحقنة فقال كوكرن: «أريد شيئًا آكله». غادر أنطونيو وابتسم ديلر. الرجل مهذّبٌ، فكّر، وعاد إلى عشائه. حدّق فيه ماورو بملابس عمله الخضراء وجفنيه المرتخيين وشاربِه المتهدّل.

«وجدتك وخِلْتُك ميّتًا»، قال، ثم توقّف. «أتمنّى لك السلامة من أعدائك والانتقامَ منهم إن كان ذلك ما تتمنّاه».

أنطونيو، حاملًا صينيّةً، مرّ بماورو خارجًا من الباب. على الصينيّة جَفنَةُ حساء، كأس من حليب الماعز ورُقاقُ تورتيلا.

«يجب أن تتلطّفَ في الطعام. أنا واثقٌ من أنّك رجلٌ ذكيٌّ بما يوحي مظهرُك ولن تصغيَ لأيٍّ من خزعبلات الهنود التي يفوه بها ماورو. يخيّل

لي أحيانًا أنّه وابنتَه شبحان رغم كونهما طيّبين. حين تحصل على مالك يجب أن تمنحَهم بضعة دولارات لِقاءَ العثور عليك. يعلم الربّ أنّني لست سوى فتى وحيدٍ فقيرٍ مسخّرٍ لعلم الطبّ ولستَ بحاجةٍ إلى السماع منّي، لكن إن رغبتَ أن تستعير مذياعي، تستكتبَني رسالةً لأن إنجليزيّتي ممتازة، أو أن أقرأ لك فحسب فأعطني خبرًا. آمل أن أنتقل إلى لوس آنجلس يومًا ما. من أين تراك أتيت؟».

«إنديانا، أنا من إنديانا».

ارتبك أنطونيو هنيهةً ثم أعلن باقتناع: «أعرف سمعتَها جيّدًا. قريبةٌ من جورجيا ومليئةٌ بالاضطرابات. ستكون أفضلَ حالًا في لوس آنجلس. الآن يجب أن تأكل وتنام وغدًا تبدأ المشي وإلا فإنّ جسمَك الرشيق سيفقد رشاقتَه».

وضَّب أنطونيو الوسائد من خلفه وذهب. أكل كوكرن لقيماتٍ ثم استغرق في النوم. أتت ابنةُ ماورو لتحمل الصينيّة وتنظّفَ الفوضى، مغيِّرةً ملاءات السرير. ارتعب كوكرن من نومه، ظانًّا أنّه رأى ميريا فتاةً مراهقة.

قعد في الرواق أسبوعين يشاهد غبار أغسطس البنيَّ يصّاعد غيومًا حول الأقدام الماشية. لحيته نمت وعند نهاية الشهر أخذ ديلر إزميلًا ومطرقةً وكسر الجبيرة على ذراعه التي بدت بيضاء وشاحبة. ضلوعه لم تزل تؤلمه حين يكون الجوّ رطبًا. كان نائيًا بنفسه ومهذّبًا. النقيب الفدراليّ جاء وراح، مُصْدِرًا له بطاقةَ سائح إن أراد أن يفعل أيَّ شيءٍ آخر بصمتِهِ الغائمِ البعيد. أخيرًا كتب رسالةً إلى ابنته، شيء اعتاد فعله مرّةً كل أسبوع. ثم ذات يوم شرح أنّ تُرْسَ التوقيت في شاحنة ديلر متعطِّل وأنّه سيصلحه، ففعل بمساعدة ماورو. أبقى ديلر على مسافةٍ مهذبة بينهما وأثناء العشاء ضمّن كوكرن في صلاته. تحدّثا أحاديثَ ملتوية عن تاريخ المكسيك وعن كوزوميل، التي

سبق لكليهما أن زارها. لم ينزعج ديلر، مفضّلًا الحاضرَ على أيّةِ معرفةٍ بتاريخ البشر المعذّبين الذي كان ضليعًا به. أخيرًا، بدأ الرجل يجعل من نفسه مفيدًا، حضر المناسبات الدينيّة في الكنيسة الإسمنتيّة، والأهمّ من ذلك كلّه أنّه كان ألمعيًّا ومحاورًا جيّدًا في شتى المواضيع ما دامت في إطارٍ غيرِ شخصيّ.

في مطلع سبتمبر بدأ كوكرن يكدح في الحديقة. نظّف العرائش من الروث والزبل وامتطى ظهر حصان برشيرون العريض حول الوادي، مركوبٌ أفضل بكثير من خيول ماورو التي بالكاد رُوِّضت. عندما وصل البرشيرون قبل سنوات عديدة إلى البعثة هديّةً بلا معنى من بلدة ديلر، قرّر ماورو أن يروِّض الحصان للركوب والا شتغال عليه فلا لجام ولا ميادين لانطلاقه. لكنه حين ركب الحصان وجده لا يزيد على أن يمشي به في الجوار فقط أمّا الآن فصار يحمل ديلر بجسمه الضخم إلى مهمّاته الإسعافية في الجبال حيث لا يمكن للشاحنة أن تصل. أُعجب ماورو بكوكرن الذي ساعد حتى في ذبح بقرة بكلّ براعة، وخروفين، وتيس صغير شوَوه للفدراليّ حين وصل ومعه سيّد محترمٌ من أصدقاء كوكرن.

لم يكن سوى طيّار آيرومكسيكو الذي ضحك مرتاحًا على مرآه. كان كوكرن لطيفًا لكنّه رأى في صديقه القديم تقويضًا ممكنًا لخططه التي بدأت في التشكّل أثناء تسلُّقِه الجبالَ وجريه فيها. جريُه المتواصل أدهش الجميع إذ ما زال سبتمبر حارًّا، غير أنّ شيخًا يموت من السرطان كانت الكحول تُهرَّب إليه أخبر كوكرن أن الجريَ قد يُصيِّره أسدَ جبال. ما أحسنَ الحياةَ إن لم تكن ضحيّةَ أحد. الشيخ قال أنّه قد كان «مادِريستا»[1] Maderista في شبابه، ثم غيّر ولاءه إلى زاباتا. لقد كانت متعةً ملائمةً له وعادلةً أن يرمي بالنار أعداءه.

---

1 من أنصار الرئيس المكسيكي الثوري فرانسيسكو إغناسيو ماديرو غونزاليس (1873 - 1913). ساهم في إشعال الثورة المكسيكية واغتيل في السنة الثانية من رئاسته.

قعد كوكرن رفقةَ صديقه في غرفة الطعام يشربان القهوة في صمتٍ متكلِّف. تلصَّصَ عليهما أنطونيو ليأخذ فكرةً عن الزائر المهمّ. نوى الزائر أن يصبر على صمت صديقه.

«لا يبدو أنّك تلعب التنس كثيرًا». قال مبتسمًا، ثم تحيّر من نظرة عدم الفهم على وجه كوكرن. حاول مقاربةً أخرى. «هل هي ميّتة؟»

«لا أدري. ربما. أريد أن أعرف».

«ربما تموت. قال الطبيب أنّك متَّ إلّا قليلا. ربما أفهم ما تريد فعلَه. لكني أتمنّى أن تعود إلى توسن».

«ليس قريبًا».

تحسّر الطيار وأدار نظرَه في الغرفة مُحرَجًا. كان هو نفسُه رومانسيًّا وأدرك بُرَحاءَ صديقه. شكّ في ألّا يكون تيبي قد رقّ لميريا وأنّ الأمر لا يعدو انتقامًا لا مناصَ منه.

«حسنًا. عليك أن تتدبّر طريقةً. لكن أرجوك اقبل نصيحتي. تبدو مثل عاملِ الآن، مثل عامل مزرعةٍ هيبّيّ. ابقَ كذلك ولن يشكّ بك أحد. خذ هذا المال الذي أحضرته معي في حالِ احتجت أن تمهِّد الطريقَ إليها.»

قاطعهما أنطونيو محضِرًا المزيد من القهوة فالتزما الصمت. حين غادر أنطونيو واصل الطيّار حديثه قائلًا أنّ شقيقه الأكبر موظّفٌ ذو مكانة في مكسيكو سيتي وموضعُ ثقة. وعن طريقه وجد كوكرن. وأنّ من الأفضل أن يتركَ البعثة في أقرب فرصة إذ سيَسْهُل على تيبي أن يقتفي أثره هنا. أضاف الطيّار بعض معلوماته الشخصية إلى مظروف المال ودوّن اسمَ أخيه ورقمَه. ثم سحب بنطاله من عند الساق إلى أعلى وخلع حذاءه إلى النصف، كاشفا عن مسدس بيريتا صغير عيار (22.) في جِرابٍ نصفيّ. سلّمه إلى كوكرن.

«هذا لئلا يقترب منك أحدٌ بمثل ما اقتربوا من قبل. إن عشت خلال هذه الرحلة فعليك أن تُصلِح وجهك». وقف وتعانقا. صحبه كوكرن مودّعًا إلى سيّارة جيب لكنّه كان مخنوقًا ولم يجد شيئًا ليقوله.

في تلك الظهيرة هيّأ مظروفين، في كلٍّ خمسمئة دولار بالبيزو المكسيكي لديلر وماورو، محتفظًا بألفٍ لنفسه. أودع النسبة الأكبر منها خلف المسدّس عند ربلة الساق. لم يستطع ديلر كبح مشاعره وجهّز له حقيبة سفر تحوي ملابس عمالة مستعملة وإنجيلًا إسبانيًّا وعلبةَ زجاجٍ صغيرةً من مسكّنات الألم. اعتذر أنّ الملابس كانت لفلّاحين ميّتين. سخرا ضاحكين على هذه الحقيقة وقال ديلر أنّهم سيحزنون لافتقاده وسيصلّون لأجله. وبصوتٍ كالقنبلة أمر أن تُجهَّز وليمةٌ فاخرة على شرف مريضه احتفالًا بتشافيه.

قبل العشاء قعد كوكرن وماورو في الرواق يشاهدان ظلالَ المساء منزلقةً على الجبال. كان صعبًا عليه أن يُقنع ماورو بقبول المال الذي كان أكثرَ من حاجته. أهداه ماورو سكينًا بقبضة لؤلؤيّة قائلًا أنّها كانت سكّينًا محظوظة، بشفرة حادّة، مثاليّة لإخصاء أولئك الذين اعتدوا عليه ورموه للهلاك. قال كوكرن إن أتى أحد للبحث عنه فعلى ماورو أن يترك رسالةً هاتفية بعناية سيّدٍ من مكسيكو سيتي. أراد ماورو أن يصحبه واحتاج كوكرن وقتًا طويلًا لإقناعه أن لا.

على العشاء اختار كوكرن أن يجلس مع ماورو وابنتِه وأمّه وشعر بعاطفةٍ قويّةٍ تجاه حياته الجديدة جعلت من القديمة تبدو على بُعدِ سنةٍ خفيفةٍ، مسطّحةٍ وبائتة مثل مقال مجلةٍ سيّئ باستثناء الجزءِ المتعلق بابنته. كان شديد الحذر حتى إنه عندما راسل ابنته لم يكتب على الرسالة عنوانَه. الآن كان جالسًا إلى المائدة مثقلةً بصنوف الطعام ودزينةٌ من الناس يدردشون بالإسبانيّة، وأحيانًا يغنون مع الراديو الذي قرّر ديلر أن يأذن به. تحت الطاولة سكب ماورو

وكوكرن لنفسيهما كأسي مِسكال. أوّل خمرة لكوكرن من شهرين. طلب ديلر من كلّ واحد أن يغنّي أغنيةً وران على المكان صمتٌ غريب إثرَ غناء أمٍّ ماورو ترنيمةً هنديّةً منوِّمَةً بلغةٍ لم يعرفها أحد. لكن بعد ذلك غنّى أنطونيو أنشودةً مضحكة، وقدّم مريضُ السرطان العجوز أداءً مبهرًا لأغنية ترحيبيّةٍ بالربيع، فصلٌ على بعد ستة أشهرٍ علِم جميعُ من على الطاولة أنّه لن يدركه. أوشك العجوز أن يُغمى عليه من الجهد فعاجله ماورو خلسةً بكأس مسكال أنعشه بصورةٍ رائعة. رفض ماورو أن يغنّي وألقى عوضَ ذلك نسخةً من «الراية الموشّحة بالنجوم»[1] كان قد تعلّمها من مكانٍ ما واتضح أنها هزليّةٌ جدا. وإذ جاء الدور على كوكرن وقف وغنّى من فلكلور غوادالاخارا أغنيةً شعبيّة غنّتها له ميريا بجمال: لكن عندما انتصف في الغناء طغى عليه الأسى، ترقرق الدمع في عينه فولّى مسرعًا من المكان.

كان محظوظًا أن لم يعرف- في حالة السكر التي غشته من المسكال- بوضع محبوبته الدقيق، التي سيفزع للبحث عنها عند الفجر. ثمّة نزعة للثأر لدى رجالٍ بعينِهم جنوبَ الحدود تجعل حتى أعتى الصقليّين يشهق لهَفًا على نسمةِ هواء.

تيبي بالدسارو مِندِز وُلد في كولياكان من أبوين مضّهما الفقر. أمّه نصف مسكاليرو-أباتشية، قبيلةٌ لم تُعهد عنها اللطافةُ أو التواضع. ببلوغه الرابعة عشرة كان رجلًا مكتمل النمو، حاضر البديهة، مغرورًا بصورة غير محتملة وقوادًا في مازاتلان. بالتدريج انتقل من القوادة إلى إدارة جزءٍ كبير من تهريب المخدرات في كولياكان. الآن بات مرتبطًا بتجارة المخدرات على الهامش فقط بوصفه قهرمانًا، لكنّها كانت محورَ أملاكه من عقارات مكسيكو سيتي، منتجعاتِ فنزويلا وريو وميريدا، ومحفظةِ الأسهم ذات المذاق الدولي. أحد

1 -النشيد الوطنيّ الأمريكي.

ولديه كان طبيبًا والآخرُ محاميًا. زواجاه الأولان كانا محليّين لكنه انسلخ منهما مع صعود اسمه في العالم. ميريا كانت تحفةً باهرة، امرأةٌ ناضل من أجلها عدّة سنوات، سبيلًا للدخول إلى الحياة الاجتماعيّة المكسيكيّة التي طالما حُرِم منها. مع ميريا الكاملةِ في نظر المجتمع غُسِلت من ثروته العظيمةِ الآثامُ في ليلةٍ واحدة. قصة معروفة في غير ما مكان من هذا العالم.

كانت خيانة كوكرن الذي أمّل في أن يصبح صديقَه ضربةً قويّةً له. لقد غضّ طرفَه حتى عن اللقاءات السريّة التي قد افترض كوكرن وميريا بغرابة أنّها سريّة. لقد عرف تقلّبات حياة المرأة العاطفيّة وفَهِمَها وقد كان لكوكرن شخصيّة جذّابة تماما. لقد ألمح للرجل مسبقًا بتحذيرٍ مُقنَّع على لسان صديقه، طيارِ الآيرومكسيكو، وكانت وردةٌ بيضاءُ على علبة شامبانيا، والمالُ وتذكرةُ باريس. كم تحذيرًا احتاجه الأحمق؟ مكالماتها المراقبة كانت شنيعةً وملأته بالعار. بات يائسًا عندما استمع إلى تسجيلٍ لميريا تخبر فيه أختَها في نيويورك عن حبِّ حياتها الأخيرِ العظيمِ الذي ناشدها أن تهرب معه إلى إشبيلية وربما تفعل. انهار تيبي ثم وضع كلَّ همّته في ملاحقة العاشقَين إلى مفاجأتهما في الكوخ. لقد كره أن يفعلها فلسوف يُعرَف على إثرها بأنّه حليلُ خائنة ولسوف يطير النبأُ إلى كولياكان وإلى مكسيكو سيتي ويعود منهما إلى توسن. هذه الفكرة أوقدت نار غضبه وأشعلت من جديد قَرَفَ القوّادِ الجوهريَّ من النساء. لم يتِح لأحدٍ أن يعرف أنّه فجأةً شعر بالشيخوخة وأنّ فقدَه إيّاها عنى بالنسبة له فقدَ كلِّ شيء. ولسوف يلقّنها درسًا سيصحب كلَّ شائعة عن خيانتها له ويخفِّف من أثرها. لقد ضاجعها لآخر مرة في اليوم الذي سبق رحيلَها ثم ذهب إلى غرفته وناح. باغته شعورٌ بالحسد من تبسُّط رفاقه المهرّبين contrabandistas مع العهر والسكر والطريقة التي كانوا يطلقون بها النار بكل سعادة على طائرات الحكومة حين تتجسّس على محاصيل

الخشخاش والماريوانا. كان تيبي يستطيع بسهولة أن يكلِّم القاتل الشهير، الذكيّ رغم ذلك والمبجّل، إل كوكيلوكو، لكنّ من الضروريّ في جريمة الخيانة الزوجية أن تباشِر انتقامَك بنفسك. واظب على الشراب ليربّيَ غضبًا، لأنّه، في قرارة نفسه، كان متعَبًا من كلّ شيء حتى إنّه تمنّى أن يذهب إلى باريس، إلى البلازا أتينيه مثلًا، ويأكلَ ويشربَ وينسى. لكنّ ذلك سيعني نهايةَ مجده ولن يتبقّى له شيءٌ سوى المال.

عندما غادر الليموزين المشهدَ الوحشيَّ في الكوخ حاول تيبي أن يمحو كلَّ أثر لأسفِه القريب ورعبِه حتى أوشك بعد أربع ساعات ومنتصفَ الطريق إلى دورانغو على أن يتبدّد. طلب من السائق أن يتوقّف بعد مدة قصيرة وفي ضياء الفجر الحاسر تفحّص المُخدَّرةَ ميريا وصفع وجهها الدامي. وبدراما متصنِّعةٍ بعض الشيء- فالرجلان في السيارة سيذيعان خبرَ ثأره- صاح واستشاط عليها: «أواه يا حبي الذي أردت أن يثمر بنينا، أيتُها العاهرة الخائنة، يا عاهرة يا جاحدةُ يا شرّيرة، تريدين الجنس ستنكحين خمسين مرّةً في اليوم قبل أن تموتي».

وكان ذلك ما حدث فلقد كان تيبي سيِّدَ انتقام: لثلاثة أيّام في غرفة بيضاء عارية أُجلست ميريا على مقعد مرتفع مدوَّخة بالأمفيتامين ونصفُ دزينةٍ من الأفاعي تجلجل زاحفة على الأرضيّة. حين كانت على شفا الوقوع حُقِنت تحت الإشراف بجرعات هيروين كانت تتزايد باستمرار على مدى أسبوعين، ثم أُخِذَت إلى مصفّفة شعر وزُيِّنت واقتيدت إلى أبشع بيوت الدعارة في دورانغو، يتناهبها أفقرُ الأوباش ورعاةِ البقر وعمّالِ المناجم. شفتاها خيطتا وكذا أذنها المشقوقة على يد طبيبٍ بيطريٍّ وبدأت الجراح تلتئم لكنّ الشغل التجميليَّ الرديءَ كان محطِّمًا للقلب على ملامحها التي فيما عدا ذلك كانت جميلةً لا عيب فيها. مع هذا كانت الفتاة الأكثرَ شعبيّةً في المبغى،

غالبًا لأن الجميع علم بالقصة والرجالُ كانوا على وعي بالخيانات الأنثويّة، حقيقيّةً ومتخيّلَة، وقوام ميريا الناحلُ الشاحبُ على الشراشف المدنّسة أثار شهواتهم إلى مستويات لم تعرفها من قبل. قربَ نهاية الشهر، رغم ذلك، أخطأت مديرة البيت، طمعًا، وقطعت عن ميريا جرعةَ الهيروين إلى حدِّ أنّها استعادت وعيها وغرست سكّينًا في عنق رجل، مختلسةً إيّاها من جيبه بينما كان يستمتع بإيذائها. الرجل كان رئيسَ عمّالٍ في مزرعةِ ماشيةٍ كبيرة والحادثة خلقت معها فضيحة. تحنّن تيبي عليها وأمر بنقلها إلى ملجأٍ تديره راهبات لرعاية النسوة والفتيات المجنونات الميؤوس من شفائهنّ. تبرُّعٌ ضخمٌ قُدِّم للملجأ وسيتكرّر سنويًّا ما دامت هي هناك. أثناء هذه المدّة عاد تيبي إلى مزرعةٍ صغيرة كان يملكها قربَ تِبهوانيز، شمالَ دورانغو. كان في مناحةٍ في روحه وفضّ بكارةَ عددٍ من الفتيات العاملات في نوبات جنونٍ متناوبة مع فترات من القنوط الشديد تمنّى معها لو ذهب إلى المبغى وقتَ كانت في المبغى، وبعدُ إلى الدير ليستردَّ السعادة التي كانت لفترةٍ وجيزةٍ سعادتَه.

استيقظ ماورو قبيل الفجر، لبس وركض مسافةَ الميل أسفلَ جانب الجبل إلى البعثة. سيقود صديقَه الغامضَ والكريم، إذ لا أحد عرف اسمَه ما عدا الشرطة الفدراليّة، إلى هرموسيلو كي يلحق بحافلةٍ أو بطائرة، لم يدرِ أيّهما. حين وصل إلى غرفة كوكرن القريبة من حظيرة الغنم، كان كوكرن جاهزًا بملابسه وحقيبته وقاعدًا كأنّه في غيبةٍ عن الوجود على طرف السرير. قعد ماورو على كرسي وطوى يديه مفكّرًا؛ أدرك ثقل المهمّة على الرجل وتمنّى أن يصحبه ويحميَه إذ بدا أنّ صديقه الجديد حالمٌ جدًّا على أن يتعامل مع حقائق القتل القاسية. ثم بدأ الباب ينفتح فنهض كوكرن على الفور مشهِرًا السكّينَ الهديةَ لكنّها كانت أمَّ ماورو وقد جلبت لهما القهوة وبعض المعجنات الحلوة

Pan dulce. اعتذر كوكرن عندما حيّاها قائلًا أنّه لم يتعرّف على خطواتها ممّا أسعد ماورو- رجلٌ يتذكّر الخطوات لا يمكن أن يكون حالمًا بتلك الدرجة.

استغرقهما نصفُ يوم في الشاحنة القديمة كي يصلا إلى هرموسيلو. حين وصلا الطريقَ الرئيسة دهش كوكرن من رؤية السيارات لأوّل مرة منذ شهرين، وجَفَل إذ رأى سيّارةً جديدةً بلوحةٍ من إنديانا تجاوزتهما بسرعةٍ عالية. ضجّة الشاحنة كانت أعلى من أن تتيح مجالًا للكلام وفكّر كوكرن بكسلٍ أنّه لا يريد أن يختلف مع ماورو الذي، مثل كلب (ماليموت)، لا ينبح أبدًا قبل أن يعضّ. ماورو كان في الوقت نفسه هادئًا وفاتكًا. وكان كوكرن على درجةٍ من الفهم ليدرك أنّ بساطةً كهذه وحسمًا ليستا في متناول أيِّ رجل متحضِّر. على الأقلّ لم يلتق هو واحدًا قطُّ في هذا العالم وشكّ إن كان ثمّة واحد. في يوم أَحَدٍ وقد امتطى البرشيرون صاعدًا إلى كوخ ماورو الطينيّ شعر بأنّه قد بدأ يفهم هذا الرجل؛ على تسريحةٍ كان مزارٌ صغيرٌ لزوجته المتوفاة، وتحت صورة الزواج مبهرجةِ الألوان، مستويةً على فروة أسد جبال مع صليب فضيٍّ بين جمجمة أسد جبال مبيضّة وجمجمةِ ذئب سهوب، كانت مزهريّةٌ من زهور فوّاحة منذورةً لروح الأم تجدّدها ابنته يوميًّا رغم أنّها بالكاد تتذكّر أمّها. المزهريةُ وضعت فوقَ إنجيلٍ إسبانيٍّ لم يستخدَم أهداه إيّاه ديلر. ماورو لم يكن يستطيع القراءة.

الآن في الشاحنة امتلك كوكرن البديهةَ ليدرك أنّه كان في الحالة العقلية السليمة للقيام بماهو مُقدِمٌ عليه: كان لديه بضعُ أفكار، وغايةٌ وحيدة؛ الأفكارُ كانت أقلَّ من أن تتداخلَ مع مهمّته التي من الواضح أنّها بالنسبة له تركّزت حول قتل تيبي واستعادة ميريا إن كانت على قيد الحياة. كان خِلْوَ الذهن حتى إنّ العالم قد بدأ، بغرابةٍ، يبعث في نفسه البهجة من جديد فلا شيءَ في عقله ليتقاطع مع جمال الوادي، أو والحالةَ تلك، مع قبحِ العالمِ

المعاصرِ الذي كان داخلًا إليه.

عندما اقتربا من أطراف هرموسيلو أخبر ماورو بأنّه ودّ أن يأكلا شيئا ثم يذهبا إلى مكان ليستقلَّ حافلة، أيَّ مكان إلا داخلَ المدينة إذ لا معنى للمغامرة ولا لتعريضِ نفسه لأن يُكتَشف. ثقة ماورو الصعبةُ تعزّزت به أكثر.

في الطرف القصيّ من هرموسيلو وجدوا حانةً على الطريق في ساحة مرأب كانت تستخدم أيضًا محطةً للحافلات المتجهة جنوبًا. في حقلٍ بجانب المرأب ساعدا رجلًا من تكساس كان يحاول جاهدًا أن يجعل حصان كورتر فحلًا حَرونًا يمشي. أدرك كوكرن أنّ الرجل كان سائسًا من الطراز الأول لكنّه كان يسعل بشدّة وبدا منهكا قد هدّه المرض وطرحه الحصان مِرارًا. التقط ماورو الرجل وهدّأ كوكرن من الحصان واقتاده إلى المقطورة. بدأ التكساسيّ بالسباب بالإسبانية وهو يترنّح، ثم استند إلى عربته المخصّصة لنقل الخيول.

«لقد نال منّي ابن القحبة وكسر عزيمتي لكن يا شباب أقول لكما أنا لست على طبيعتي تمامًا وإلا لطرحته أرضًا ووضعت حذائي الملعون على ذلك الداعر رغم غلاء سعره لكنّ الصفقة تمت وإلا كنتُ تأكّدت كالخراءة من أن تخترقَ رصاصةٌ ما بين عينيه الملعونتين لكنّي أريد أن أوصله في حال جيدة لذا سأخدِّر المخنث فيظنّون أنّي نقلت إليهم فحلًا طيبا مسالمًا، ثم سأخرج من هذا البلد الذي لم ينلني منه إلا الخراء من أوّل دقيقة عبرت فيها الحدود اللعينة».

ثم عرض الرجل خدماته على ماورو وكوكرن وتحدثوا عن مشاكل جرِّ فحول الخيل ونقلها. كوكرن على غير المتوقع اهتدى برأي ماورو الذي رأى الرجل ساذجًا. تفاجأ الرجل لمّا تحدث كوكرن الإنجليزيّةَ بطلاقة.

«هيه يا صاح ظننتك فلّاحا سافلًا، تدري قرويًّا عاملَ مزرعة. أخذتَ حقّك أيضًا من الخراء في هذا المكان؟ لنأكل على حسابي. لنستمتع ببعض الشراب».

دخلوا الحانة. شرب ماورو بيرة وقال أنّ الوقت قد حان لكي يغادر فرحلة العودة طويلة. أصرّ التكساسي عليه بأن يبقى غير أنّ من السيئ أن يترك مقرَّ البعثة لليلةٍ دونما سيّارة إسعاف. مشى كوكرن إلى الخارج ليودّعه وداعًا لائقًا وأكثرَ خصوصيّة- الحانة الصاخبة وتّرته- وماورو بدا محرَجًا. أعطاه ماورو مغلّفًا صغيرًا.

«ترجوك أمّي أن ترتديه. تقول سيساعدك على أعدائك. أعلم أنك رجلٌ متعلّم لكن لن يؤذيَك أن تلبسَه تحت قميصك».

فتح كوكرن المغلّف. لقد كان القلادةَ من نيوب ذئب السهوب. لم يكن من أثرٍ لخرافةٍ في تكوينه لكنّه قدّر اللفتة.

«أخبِرْها بأنّني سألبسه بكلّ سعادة. واثقٌ من أنّه سيساعدني».

في الحانة، إذ عاد، كان التكساسي يشرب جرعات قوية يُتْبِعُها بالبيرة. وصل الطعام لكنّ الرجل ذاق منه ذَوقًا فقط. تحدّث حديثًا مشتّتا عن حمله الحصان الفحل من أريزونا لتوصيله إلى توريون. حصل على عشرة بالمئة لهندسته الصفقةَ بين مربيي خيول ثريّين ونقلِه الحصان.

«أخبرك الحقيقة يا باردو[1] Pardo، أنا متعب جدا من جلبة هذا العمل اللعين. قد كنت أنا نفسي أملك سلسلة أفراسٍ جيّدة في مزرعة صغيرة قرب فان هورن لكن زوجتي رحلت وبدّدتُ هذه الأفراس على الشراب والنساء.

1-مصطلحٌ إسباني/ برتغاليّ يطلق على متعددي العرق المنحدرين غالبا من تزاوج الأوروبيين والسكان الأصليين والأفارقة.

يجب أن تزورني يوما فعندي دائما غزلانٌ مجمّدة في الثلاجة وبضعُ نسوةٍ يمررن للسلام. لستَ مدمن مخدرات خلف تلك اللحية، أأنت كذلك؟».

«لا. أنا هاربٌ من مصلحة الضرائب الأمريكية، تدري». أعجب كوكرن باختراعه.

«الملاعين. ولا تدفعْ لهم سنتًا واحدا. كلّ شغلي بالنقد ولا يعرفون حتى إن كنتُ حيًّا، يا صديقي. إن داسوا أرضَك فرُشَّ المخانيثَ بالنار». توقّفا وأخذا شربةً عميقة. «تستسلم وتذهب إلى السجن والمجانين قادرون على تجنينك. إياك أن تقع حيًّا في أيديهم. أين ستذهب على أيّة حال؟»

«ناحيةَ دورانغو، أظنّ...»

«اللعنة، لمَ لم تقل من أوّل. مشواري قريبٌ من هناك. توصيلة مجانيّة. ما لَكَ والحافلةِ مقاعدها مَبَاوِل».

طلب التكساسيّ شرابًا وخطر لكوكرن أنّه قد شُغِّل للتوّ سائقًا لكنّه لم يمانع. بدا أنّ الرجل في أوّل عقده الخامس إنّما كان يصعب التنبؤ بذلك. من الواضح أنّه قد عاش حياةً عصيبة. لقد كان طاووسًا مسنًّا مغرورًا بحزامٍ مرصّع بالفضيّات وحذاءِ توني لاما من جلد حيّة. غمز التكساسي ورفع إلى الخلف طيّةَ جاكيته الجينز كاشفًا عن مسدّس (44.) أزرقَ بارد.

«أيُّ واحدٍ تُسوِّل له نفسُه الاقترابَ من ذلك الحصان فإنّه مسؤولٌ عن تطيير خصيتيه. أستطيع بطلقة أن أنسف قضيبَ رجلٍ يركض على بعد مئة ميل. ربما أكثر».

أكل كوكرن بتلذّذ لكنه قصَرَ نفسه على بيرتين مفكّرا بموجة العاطفة الحزينة التي استثارها الشرب مع ماورو. رفع رأسه إذ سمع صوتًا مدوِّيًا عند الباب وتسارعت دقّات قلبه، وانتفض وتعرّق وصار جسمُه باردًا.

اتضح أنّه العملاقُ من ليلة الكوخ، أنيقًا ورفقةَ حارسين قذرين. شاهد كوكرن عيني الرجل تمسحان الحانة متجاوزتين إيّاه دون أن تلحظاه.

«هل ترى شبحًا ملعونًا أو شيئًا من هذا القبيل؟» طالع التكساسي في كوكرن، ثم شاهد العملاقَ ماشيًا في الخلف إلى حمّام الرجال بينما حارساه قعدا إلى طاولة وبدآ مغازلة نادلة.

«ابنُ قحبةٍ ضخم».

«أرجوك اذهب وشغّل الشاحنة. سألحق بك بعد لحظة». صوت كوكرن كان باردًا وواطئًا أومأ له التكساسي بجديّة، وقف ورمى بورقة مئة بيزو على الطاولة.

«سأنتظرك، يا فتى. احترس».

تحرّك كوكرن بسرعة إلى حمّام الرجال خافضًا بصرَه ومائلًا في مشيته مثل عامل مزرعة سكران. هناك وضع قبضته على سكين ماورو وزفر نَفَسَه. العملاق كان واقفًا عند المرآة يمشّط شعره وبالكاد لمح كوكرن الذي تخفّى في مظهرٍ فقير. رشّ كوكرن الماء بفوضويّةٍ على وجهه وعلى العملاق الذي التفت من فوره غاضبًا ورفع ذراعَه الهراوةَ ليضرب الفلّاح الأبله. انحنى كوكرن كأنّما سيستقبل الضربة ثم اتّجه بالسكّين إلى أعلى، ممسكًا بالمقبض بيديه، شاقًّا بها بكلِّ قوته طريقًا عبر جسم العملاق ابتداء من الخصيتين وانتهاء بعظمة القص حيث ارتكز ومرّر السكين عبر رقبة الرجل مضجِعًا إيّاها مفتوحةً إلى عظمة العنق. بينما ارتجّ العملاق ركل باب مرحاضٍ ودفعه مرتطمًا بالداخل. نظر كوكرن سريعًا إلى المرآة متفحِّصًا آثارَ الدم عليه، ابتسم ابتسامة عريضة وغادر على غير عجلة.

التكساسي توقف بالشاحنة ومقطورةِ الحصان عند مدخل الحانة وابتسم

إذ خرج كوكرن بغير الوجه الذي دخل به ممرجِحًا الحقيبةَ التي أعطاه إيّاها ديلر. «ما عهدتُّني أحببتُ إلا منتصرًا» قال التكساسي إذ ركب كوكرن في الشاحنة.

«ليس بعد». أراح ظهره على المقعد وقلّب في أشرطة الكاسيت والشاحنة تتجه إلى الطريق السريعة. أراد التكساسيّ الوصول إلى كولياكان بحلول الليل لكن في سيوداد أوبريغون أفضل بيت دعارة في العالم كلّه وربما تبقى انتصابٌ واحدٌ في نظامه.

بعد الظهر تولّى كوكرن القيادة بينما نام التكساسي عن غدائه ثلاث ساعات من القيلولة. وقف في لوس موتشيس للتزوّد بالوقود واستيقظ التكساسي وهو يسعل سعالًا حادًا ويلهث لالتقاط أنفاسه. شقّ كيسَ الإسعافات وهزّ منه نصفَ دزينةٍ من الحبوب ابتلعها مع بيرةٍ من البرّاد. أمسك برأسه في يديه لمدّة طويلة وكان كوكرن خائفًا عليه وهو يقف بالشاحنة على الطريق السريعة. بصورة غريبة لم يكن قلقًا من أن يطارده أحدٌ مدرِكًا أنّ الشرطة المحليّة ستعتبر القتل رقمًا من ضمن الانتقامات المتبادلة بين عصابات التهريب، ثمّ إنّ شاحنةً بلوحةٍ من تكساس تنقل حصانًا شبهةٌ بعيدة الإمكان. ارتدّ التكساسيّ برأسه على المقعد وحاول أن يتنفّس بعمق، وابتسم.

«إلهي، لقد مررتَ من خلال سيوداد أوبريغون ولقد كنتُ أهجس بالتوقف لأجل قطعة مؤخّرة. لا تدري متى تكون مضاجعتك الأخيرة ويبدو أنني أتعلّق بخيطٍ واهٍ قصير». توقّف عن الكلام، مستمعًا إلى شريطٍ لويلي نيلسون. «سمعته يغني منذ سنين في سان أنتونيو وإنّه ليشبه بكلّ تأكيد هيبيًّا مسطولًا لكن غناءه جميل».

«أرجو أنّك على ما يرام».

«أوه يا صاح، لو كان لي أن أعطيَك قائمةً بما ليس على ما يرام، لكنني سأُضجِر حدّ اللعنةِ أيَّ أحد. في مستشفى VA (شؤون المحاربين القدامى) لأنّني محارب حسن النية قالوا لي الآن لا ندري لمَ أنت على قيد الحياة وقلت كنتُ لسنوات أكثرَ مرضًا من أن أموت. أنا سوف أختفي فقط، صحيح. أرادوا جثّتي وقلت اللعنة عليكم سأدفن في فان هورن جوارَ أمي».

أمضيا تلك الليلة في فندق ساحلي خارج مازاتلان. كان غاليًا بعض الشيء فأعار التكساسيّ كوكرن بعض الملابس قائلًا أنّه بعيد بما فيه الكفاية جنوبًا فليس يحتاج زيَّ قاطفي الفول. في الغرفة جرع التكساسي كأسًا كبيرًا من التكيلا وقال بأنّه كان جاهزًا لامرأةٍ وعندما سأل عن أتعابه من مربّي أحصنةٍ ثريّ كان عليهما أن يضيفا خمسمئة دولار لاعتبارات «المومسات، والمسكرات، والوشوم، والأدوية الخراءة».

بعد العشاء دعا التكساسي كوكرن كي يترافقا إلى ماخور لكنه رفض مفضّلا أن يُطعِم الحصان ويسقيَه ويُمشّيَه.

«عجبي لقد مررت بيوم عسير وبعض الجنس سيريح بالك».

«لا، لقد قتلتُ اليوم رجلًا أكرهه ولا أريد أن أخلط بين مُتَعي. أريد أن أستلقيَ على السرير وأستشعرَ اللذّةَ التي غمرتني».

أومأ التكساسيّ وأشعل سيجارًا. إنّه ليس مغفّلًا.

«أتفهّم أسبابك، مرّةً نسفت قدم رجل عبث مع زوجتي. حُكِم عليّ بسنة لكنّني ابتسمت مفكّرًا في الحذاء الخالي الآن من ابن الحرام».

رتّب التكساسيّ مع نادل لطلب سيارة أجرة. عاد كوكرن إلى الغرفة، نظر إلى المرآة وبالكاد تعرّف على نفسه. غسل برفق سكين ماورو من الدم وجفّفها، ثم تحسّس بأصابعه القلادةَ الغريبة. صفّر تلك الأغنية الفلكلورية

فحلّق مقطعٌ واحدٌ مرتجفًا على ظاهر دماغه. عَلِم أنّه ما زال في أوّل الطريق ولم يَعْنِه إن مات في المحاولة. كان بصورةٍ تثير الفضول واحدًا من أولئك الطيّارين الذين لا تبدّد المسافةُ من الأرض في نظرهم أبدًا هاجسَ الموت: خياله كان أعظمَ من ذلك. خرج لتمشية الحصان مفكّرا بكآبةٍ أنّ التكساسيّ كان يتمايل مُزعزَعًا على شفير الموت، عرف الموتَ، وترامى إليه.

استيقظ بعيد الفجر وفزع إذ رأى أنّ التكساسي لم يعد. وجده في الشاحنة، رماديَّ الوجه وعلى قميصه دمٌ وقيء. بحث عن جروح فلم يقع على واحد، ثم فحص نبضَه وكان غيرَ منتظم. مشى بالحصان دقائقَ معدودة متسائلًا ماذا يفعل. وإذ عاد إلى الشاحنة حدّق فيه التكساسي مغمضًا عينيه نصفَ إغماضةٍ وطلب بيرة. سحب بيرة من البراد فاترِ الماء وشاهد التكساسيَّ يبتلع حبوبه.

«عليك أن تزور طبيبًا، يا صاح».

أومأ التكساسي برأسه ونام. عثر كوكرن على الطريق 40 إلى دورانغو وتوريون، ثم توقف للقهوة وللتفكير. عرف أنّ الدم الحكيم سيقول له دعك من هذا الرجل وامضِ في شأنك. لكنّه لم يملك الجرأة وعليه الانتظار ليومٍ آخر على أيّة حال. مشى راجعًا إلى الشاحنة والآن عينا التكساسي كانتا مفتوحتين.

«أستطيع رؤية ما يدور في ذهنك. هل سيموت هذا العجوز المنكوب على يدي؟ ماذا سأفعل به بحق يسوع وماذا سأفعل بالحصان اللعين؟ لا تقلق، ساعدني فقط في توصيل الحصان وسأجعل الأمر يستحقّ عناءك. أقول لهذه السيدة البارحة أرجوك أمتعيني فربما كانت دفقتي الأخيرة ولقد أمتَعَتْني بالفعل». غمغم هذا الكلام وحدّق كوكرن خارج النافذة محرَجًا، سائقًا بانهماك خلال الطريق الجبليّة الملتوية إلى دورانغو والتكساسي مستغرقٌ

في نومٍ عميق.

تنشّط التكساسيّ نوعًا ما بعد الغداء في دورانغو. فكّر كوكرن أنّه أوّلَ ما تخطو مبتعدًا عن المسار السياحيّ فإنّ المكسيك تغدو أصعبَ على الفهم، إقطاعيّةً تقريبًا ويصعب التحرّك فيها دون إشعار. احتاج بيأس إلى اختراع غطاءٍ ما وتاجرُ أحصنة لن ينفع. قد يضطر إلى الاستعانة بعلاقات صديقه في حكومة مكسيكو سيتي رغم أنّه لم يحبّذ هذا الخيار. كان يجب أن يكون ذكيًّا كفايةً كي يصل إلى ميريا دون أن يُقتلَ في الطريق. ارتاع في منتصف الطريق إلى توريون ليجد التكساسيّ قابضًا على ذراعه.

«أكان ذلك الرجل العملاق هو من زُجَّ في وجهك؟ ربّما أكثر؟» الآن بات الرجل محتقنًا وصفّق بيديه مرارا. «لست مضطرا لقول أيِّ شيء. أخبرك الحقيقة أعتقد أنّني خراءة معلبّة لكنّ هذه البلادَ جميلة ولم أُرِد قطُّ الموتَ في بلادٍ كريهة. حلمت أنّني أموت في بيغ تيمبر، مونتانا. أرحْ جسدي فقط تحت صخرةٍ ملعونة فلست أريد الصقورَ الحوّامة أن تصلَ إليّ».

بعد وقت قصير شارفَا هاسيندا زاهيةً ببوابتين وحرس، معسكرِ اعتقالٍ مسيّجٍ بالأسلاك الشائكة، حدائقَ رسميّة، مسبح، ملعبِ تنسٍ ترابيّ، ميدانِ فروسيّة لقفز الحواجز، منزلٍ فخمٍ وإصطبلات. شربا من نبيذ شيري بينما ينتظران البارون أن يصل. قَبِل التكساسيّ علبة السيجار المعبّأة بالمال وأغلقها دون أن يعدّه.

«أفترض أنّني سأكون قادرا على بلوغ بيتي دون أن يريحَني أحدهم من عبء هذا المال»، قال التكساسي بإسبانيّة فصيحة بصورة مفاجئة.

ضحك البارون وردّ بإنجليزيّة أوكسفورد، «أتعاطف مع مخاوفك». مدّ للتكساسي بطاقتَه. «فقط انطق الاسم لأيِّ أحدٍ يزعجك وسيسلَخُون بين

سيقانهم ويفرّون كالأرانب».

أُرِيا مكانَهما في منزل الضيوف قرب الإصطبلات حيث قُدِّمت لهما وجبةٌ وزجاجةُ سكوتش. أثناءَ الليل بدأ التكساسيّ يتحدّث إلى أمّه ويمشي حول المكان ويراوح بين الضحك والبكاء والشراب. مات بعد الثالثة فجرًا وقام كوكرن بتهيئة جسده على وضعيّة راكبٍ بحيث يتعاضد تيبُّس الجثمان مع مقعد الشاحنة. مع الضياء الأول حمل التكساسيَّ إلى الشاحنة وسحب قبعته الـ(ستتسون) فوق عينيه. لوّح بيده إلى الحرّاس في طريقه خارجًا عبر البوابة المزدوجة ودفن التكساسيَّ على بعد بضعة أميال أسفلَ الطريق تحت الصخور اتّباعًا لوصيته. ثلاثُ بقرات شاهدته بفضولٍ آنيّ. اتّجه كوكرن بعدها مباشرةً إلى مكسيكو سيتي في رحلةٍ تخلّلتها غفواتٌ قصيرة. في طريق العودة عبر دورانغو صفّر أغنية ميريا الصغيرة فزوّدته بالقوة. بات الآن رجلًا يصعب قهره؛ كان في طريقه إلى تحقيق غايتِه الوحيدة. شخصٌ ما قد سلبه روحَه وإنه عازمٌ على استردادها. وصل مكسيكو سيتي في أربع وعشرين ساعة ونبذ الشاحنة والمقطورة في مواقف المطار. في المقطورة ارتدى أحسن ملابس التكساسي وأخذ سيارة أجرة إلى فندق كامينو ريل متأبّطًا علبةَ سيجار.

الدير حيث ظلّت ميريا حبيسةً كان على بعد حوالي سبعة أميال من دورانغو في منزلٍ ريفيّ لرجلٍ من نبلاء القرن الثامن عشر، الآن كان على وشك البِلى لكنّه بهجةٌ للعين عن بُعدٍ إذ كان يذكّر بنورماندي. بعد تصفية جسمها من السموم علاجًا لها من الإدمان الجبريّ الذي تعرّضت له في المبغى، أتيح لها الخروج من غرفتها وتُركت لتتنزّه في الباحة مع المريضات الأخريات اللاتي كُوفِئن بحريّةٍ محدودة على حسن سلوكهن. كانت تراقبها من كثبٍ راهبةٌ من الدير لئيمةُ العقل مع زَغَبٍ خفيف فوق شفتها العليا. لا مجال لترك غنيمةٍ مربحةٍ للفرص. ميريا على الخصوص أقرفت رئيسةَ الدير،

كيف لامرأةٍ كريمة الأصل مثلها ومتعلّمة أن تصبحَ مدمنةً وموسًا مجنونة في أخسّ بيوت الدعارة وأن تسمح لقوّاد بتشويه ملامحها. الرسالة التي وصلتها من سنيور مندز عن طريق سائقه كانت رجاءً متذلّلًا محطِّمًا للقلب من أجل إنقاذ روح المرأة المسكينة. لكنّ الراهبة، وإن كانت مرتشيةً تافهة، فهي في أعماقها طيّبةٌ وبعد شهر سمحت لميريا بطلب كتبٍ من مكسيكو سيتي إلا أنّها فحصت الطلب بعناية. الفتيات اليافعات تلقّين مقدارًا عظيمًا من الرعاية الأموميّة من قِبَلِ النزيلات الأخريات، أكثرَ من الأطفال ومريضات الفصام، ما عدا ثلاثَ صغيراتٍ مصاباتٍ بالتوحد تُركن وحيداتٍ تمامًا في عتمتهنّ الصامتة لأنّهنّ لا يُجِبْنَ على أحد. قرّرت ميريا أن تجعلَهنّ مسؤوليّتها الخاصّة وشغلَها الشاغل فأرسلت في طلب كتب عن الموضوع. جلست أيّاما طِوالًا في الباحة المشمسة مع البنات الثلاث، ساعدت في إلباسهنّ وإطعامهنّ، غنّت لهن تهويدات للنوم واستخدمت ذكاءها الكبير في محاولة الحصول على أيّةِ استجابة معقولة. مسحت بتوتّرٍ على أثر الجراحة على شفتيها الذي استحال بعد التئامه شريطًا نحيلًا من النسيج المتيبّس. كانت مصدومةً إلى درجة أنّ أفكارها عادت بها تقريبًا إلى صيفيّات طفولتها في كوزوميل. هي وأختها تسبحان طيلة اليوم، تقطفان الزهور، تجمعان القواقع، وعندما لا يكون في المنزل ضيوف، تصحبان أباهما في الخليج على قاربه الكبير المخصّص لصيد السمك. مات أبوها منذ سنوات عديدة وإلا لسارع في مساعدتها بكل تأكيد. أحد رفاق القارب واقع أختها عندما كانت في الثالثة عشرة فقط وأبوها براحة ضمير أمر بالرجل فأُغرِق خلال رحلة طويلة لصيد المرلين الشراعي. لم تجرؤ على الاعتقاد بأنّ عشيقها سيأتي لنجدتها على أنّها رفضت الاعتقادَ بموته. يومًا ما سوف تغادر هذا المكان وتعرف الأذى العظيمَ الذي وقع عليه بسببها، أو ربما، إن لم تَرْعَهُ جراحُها، يكونان عشيقين من جديد، ولو على القمر. كثيرًا ما تفقد الاتصال بحلمها بشكلٍ كاملٍ وفي استعادة

وعيها من جديد تتفاجأ أنّها كانت حيّة، تتحسّس يديها معًا وتتلفّت من حولها في الغرفة أو في الباحة بفضولٍ مرعوبٍ حقًا. حين بلغ الرعب مبلغًا عظيمًا بحثت خِفيةً عن طُرُقٍ للهرب لكن لا مفرّ ومن ثَمّ عثرت على مكان للنحيب حتى استجمعت قواها للعودة إلى مسؤولياتها، إلى البناتِ اللواتي نظرن إليها دون دليل على أنّهنّ يبصرن أو يسمعن مثل كلابٍ صغيرةٍ عمياء وصمّاء.

في المزرعةِ خارج تِيهوانيز، بدّد بالدسارو تيبي الخريفَ بالتفكير. من غرفة إفطاره أمكنه أن يرى سلسة جبال سييرا مادري لكنّ مرأى الجبال جلب معه الأفكار السيئة عن أبيه الذي رآه تيبي أنبلَ منه بكثير. أبوه كان صديقا مقرّبًا لإيوفيميو زاباتا، شقيقِ إيميليانو، وملازمًا في الثورة. توفي وتيبي في العاشرة متأثّرًا ببقايا جراحِه وسنواتِ الفروسية، والشرابِ والعراك. لم يزل الكثير من كبار السن في كولياكان يتحدّثون عن أبيه ورغم ثراء تيبي الفاحش لم يمنحوه شرفًا مماثلًا وإن من بعيد. تيبي، داهيةٌ كما كان، امتلك رؤية مثالية وحلم في شبابه بقيادة تمرّدٍ ما أو ثورةٍ مستحيلة. عاش ضحيّةً، ضحيّةً موسِرة، لأحلامه التي بناها في التاسعة عشرة حين نبلغ كلُّنا ذروةَ هُراءِ اليوتوبيا. التاسعة عشرة هي عمرُ الجنديّ الشجاع الذاهبِ إلى حتفه راضيًا، قلبه شعلةٌ وطنيّة. التاسعة عشرة هي العمر الذي يحلّق فيه عقلُ شاعرٍ مبتدئٍ في غرفته المستأجرةِ إلى الأعالي، متجشّمًا بسرورٍ بطشَ ما يَخَالُهُ الإلهَ فيه. التاسعة عشرة هي السنةُ الأخيرة التي ستتزوج فيها امرأةٌ عن حبٍّ ولا شيءَ سوى الحب. وهلمّ جرّا. الأحلام تطارد الروح، وبعد أربعين سنةً شعر تيبي بأنّه محاصر. نام نومةً سيئة وأصبح مضنًى ساهيًا. خرج مع رئيس مزرعته في الطائرة المروحيّة ورمى بالنار ثلاثَ دزائنَ من ذئاب السهوب التي آذت أغنامَه، عالمًا علم اليقين أنّ الجريرةَ على واحدٍ منها فقط. كانت ميريا قد استحلفته

ألّا يطلق النار على ذئاب السهوب وأرته كتابًا حول الموضوع قرأه بفضولٍ شديد. أقسم ألّا يفعل. كان في الغالب طفلًا بين ذراعيها. كانت خلاصَه الوحيد ممّا صاره على الأرض. أعادته مجدّدًا إلى التاسعة عشرة. الآن، في الكوابيس وفي لحظات الصحو، كان يشعر بالتكّة في يده عندما مرّت الشفرةُ خلال شفتيها واصطكّت بأسنانها.

في الكامينو ريل قيل لكوكرن لم يكن متوفّرًا غير جناح فوافق عليه بلكنةٍ متأثّرةٍ بتكساس كي تحاكيَ ملابسه. أراد الخروج من هذا البهو فجأةً، متذكّرًا الوليمةَ بعد الفوز بمباراة التنس مع تيبي. طلب عشاءً ونبيذًا، شاعرًا بالعصبيّة والتعب حتى العظم. تحمّم بسرعة، آخذًا علبة السيجار مملوءةً بثمن الحصان. على العشاء سيَعُدّ المال دونما سبب في باله، ويوما ما سيقتفي أثرَ ورثةِ التكساسيّ في فان هورن، ربما يدفع لمربّي الحصان رغم شكّه في ذلك. اتصل بشقيق صديقه، طيّارِ الآيرومكسيكو. رحّب به في مكسيكو سيتي بكلّ محبة، أخبره أنّ الحديث على الهاتف ليس مناسبًا، أنّه سيأتيه ضحىً كي يقدّم له أيّة مساعدةٍ يستطيعها، وألّا يغادر الغرفة. نام كوكرن نومةً طيبة ومسدّس التكساسي الأزرقُ الباردُ (44.) تحت مخدّته.

عند الفجر طلب قهوةً وقعد في شرفته ناظرًا إلى الحدائق في الأسفل مستغرقًا في حلم يقظة إلى أن ظهر أوّلُ إنسانٍ، بستانيٌّ، وإذّاك عاد إلى داخل الجناح ليتأمّل خُطّتيه للانتقام وللنجاة كلتيهما، غريزتان قلّما اقترنتا بأيِّ شعورٍ بالأمان.

عندما وصل الرجل لم ينجذب كوكرن في البداية للذوق الذي اشتملت عليه البدلةُ المقلّمة بخطوطٍ رماديّة فاتحة، تلك القشرة الخارجيّة الملوّنة بحذاقةٍ على سطح السياسيّ. ثم أصبح الرجل متوتّرًا، طلب شرابًا من خدمة الغرف، وسأل كوكرن أن يتحدّث بالقشتاليّة قدرَ ما يستطيع. مرتاحَ البال

بعدئذ، قال الرجل بأنّه لن يستطيع أن يفعل شيئًا لكوكرن عدا أن يُزوِّرَ له هويّةً ويعرضَ عليه معونةَ الرجل الوحيد الذي يثق به، صديق عمرٍ نزيه كان يعيش في دورانغو. شرح الرجل بأنّهم صوّروا العديد من الأفلام في دورانغو، أفلامِ الغرب الأمريكيّ والمكسيكيّ عادةً، وسيكون كوكرن قادرًا على التحرك بأريحيّةٍ تحت هويّة مالكِ مصنعِ نسيجٍ من برشلونة مهتمٍّ بالعقار وبصناعة السينما. فتح حقيبته وأعطى كوكرن بعض المقدّمات التعريفية المقنعة، ومالًا رفضه كوكرن قائلًا أنّه يملك الكثيرَ منه. ومسدّسَ شرطة خاصًّا عيار (38.) مرّره معه أخوه. ضحك كوكرن وقال أنّه مسلّحٌ سلفًا بأكثر ممّا يلزم. صمَتَ الرجل صمْتَ القبور وسلّمه ملفًّا عن تيبي ردّه كوكرن قائلًا أنّه يعرف عنه ما يكفي.

«أنت تفهم أنّ سنيور مندز يصدق عليه ما تسمّونه مغسولًا؛ أعني أنّه قويٌّ سياسيًّا وثروته الآن نظيفة. سوف تموت بكلّ تأكيد وأخي الذي أُحِبُّه حريصٌ عليك. لكن حتى في هذه البدلة الغربية أعرف أنّ من الأفضل أن تموت على أن تعيش مع القهر. صديقي في دورانغو لم يعثر على أثر للمرأة لكنّه يجهد في البحث عنها».

أُعجب الآن كوكرن بالرجل وحاول طمأنته لكنّ الرجل شرب شرابه في جرعة واحدة وأشاح بعيدا. قال بأنّ رسالةً وصلته من شخص اسمه ماورو في البعثة، الرجلِ الذي أقلّ كوكرن إلى هرموسيلو، وأنّه بعد رحيلهما بقليل ذلك الفجر أتى رجلٌ ضخمٌ يتبعه اثنان بحثًا عنه والقتلُ يتطاير من أعينهم.

«لقد دلقتُ أحشاءَ ذلك الوغد مثل خنزيرٍ سمينٍ كبير»، قال كوكرن بابتسامة ساخرة.

أومأ الرجل مطمئنًّا. قبل أن يغادر طلب من كوكرن أن يتخلّص من أرقام هواتفه بعد أن يحفظها. لديه أخٌ، لكن لديه أيضًا زوجة وأطفال ولديه- كما

يأمُلُ- مستقبل.

قضى الظهيرةَ يحضِّر نفسَه ليبدو مثلَ رجل أعمال غنيٍّ من برشلونة. أخرج بضعة آلافٍ من الدولارات ووضع علبة السيجار داخل جهاز التلفاز. اشترى عددا من البدل الرسميّة والملابس وصفّف شعره وهذّب لحيتَه، وقلّم أظفاره وحجز إلى دورانغو على أوّل رحلةٍ في الصباح. تدرّب على نوعٍ من إنجليزيةِ الأجانب الجيّدة حيث أدوات التنكير الضالّة مغفلةٌ في الكلام. بعث برسالةٍ طويلةٍ إلى ابنته قائلًا أنّه كان يرجو أن يعود إلى الوطن قريبًا، وأنّه بات حزينًا مؤخرا لأنّ كلبته دُل قد صدمتها سيّارة. مبكّرًا في المساء جهّز أغراضه في حقيبة جديدة غالية الثمن. أكل وجبةً خفيفة ورقد عاريًا في الظلام على سريره مستمعًا إلى كونشرتو لباخ على الراديو.

رقد دونَ أن يداعب جفنيه المنام متذكّرًا خلافًا بسيطًا بينه وبين ميريا في الشقة. كان الخلاف يتعلق بشأنٍ أدبيٍّ سخيف حول مَن قتل مَن في عائلة باسكوال دوارتي، ذلك الكتابُ الدمويّ، وكانت برودةٌ لطيفةٌ قد خالطت المساء بينها كان يهذي. عرف أنّه كان يجادل تحت تأثير الهرمونات، كما كان الأمر، محرِّكًا دماغَه بقضيبه. كان متحدِّثًا جميلًا لكنّها لاحقت أفكارَه الخاطئةَ دون هوادة، مذكّرةً إيّاه بأنّ اللغة كانت راحةَ القلب، لا هراوةً نضرب بها الناس. صفع بوسادةٍ فوقَ وجهه محرَجًا وصرخ بحقّ المسيح سامحي فمي الكبير. سمِعها تضحك وتحت ظلام الوسادة أحسّ بفمها يلاطفُ جسمَه. سحب الوسادة إلى الخلف فوق عينيه ورأى ركبتَها وحظي بيقظةٍ نوعيّة، إحساسٍ واعٍ وممتدّ بأنّه لم ينظر قطّ إلى ركبة امرأة. رفع بصره شيئًا فشيئًا إلى أن رأى ميريا بكامل جسمها وللحظةٍ بدا أنّه كان ينظر إليها للمرّة الأولى غيرَ قادرٍ على الاستيعاب. أعاد هذه الرؤية مجدّدًا، ماسحًا عينيه من أصابع قدميها المنكمشة إلى شعرها الأسود اللامع الهاطلِ فوق بطنه. حبُّه لها صار

في الوقت نفسه كاملًا، مخيفًا ولا يُحتمَل. ثمّ تحدّث معها عن ذلك وبدا أنّها فهمته تمامًا. كان المزاج ألطفَ كأنّه للمرة الأولى قد استوعب حقيقةَ الحياة على الأرض خارجَ ذاته؛ أراحه ذلك كثيرًا فنام بسهولة لأنّه لم يعد يكترث إن نام أم لم ينم. استسلم بسرعةٍ محاولًا أن يوائم بين هذه التجربة وبِنْيَةٍ لغويّةٍ، كأنّما الحياة كانت بصورةٍ خاصّةٍ مرآةً متّسخة والحبّ الممتنع على الوصف نظّف هذه المرآةَ وجعل الحياة ليس فقط محتملةً بل شيئًا عِيشَ بتوقٍ، بطاقةٍ، بتشوُّفٍ لم تنعقد متعتُه بالقدر.

في الصباح نام بهدوء عن موعد مغادرته، وبالهدوء نفسه استأجر طائرةَ بيتشكرافت، أفطر وأخذ سيارة أجرةٍ إلى المطار. كان صباحًا مشمسًا رائقًا وقد غسل مطرٌ خفيفٌ في الليل وريحٌ شماليّةٌ هواءَ مكسيكو سيتي الملوّثَ عادةً فغدا نظيفًا صافيًا. واقفًا على مدرج المطار نظر إلى الجبال في الجنوب ضاعت منها روحٌ لصالح الحاضرِ الذي قد ولد. كان الطيّار حسّاسًا فطار في الرياح العكسيّة النشطة على مستوى منخفض لننظرَ إلى البلد. طار فوق سيلايا، أغواسكاليينتس، فوق أطلال كويمادا وفريسنيلو، فوق حدود زاكاتيكاس وداخل ولاية دورانغو وعاصمتِها التي تحمل الاسمَ نفسه. وصل كوكرن قبل وصول الطائرةِ التي نام عن موعدها ببضع دقائق إذ حطّت تلك في غوادالاخارا أوّلًا قبل أن تواصل الرحلة إلى دورانغو. رجلٌ يدعى أمادور كان في انتظاره.



الفصل 3

ظهور أمادور أربك كوكرن للحظة. تمنّى أن يكونا أكثرَ تواريًا عن الأنظار ممّا هو ممكن في مكسيكو. تبادلا المجاملات بالإسبانيّة، ثم التفتا فزِعين على صراخِ امرأة. عرفها كوكرن ممثّلةً وعارضةً أمريكيّة.

«أين قطّي الملعون، أريده حيًّا»، صرخت مرّةً بعد أخرى ومسؤولُ الأمتعة يقلّب في الحقائب مرتعبًا. «أوه، ربما أنّكم تأكلون القطط يا سَفَلَة». الآخرون عند استقبال الأمتعة تراجعوا مصدومين، ثم أخذوا يبتسمون. اقترب كوكرن وحاول تهدئتها، لكنّها كانت عصيّةً على محاولته. ثم إذا بعربةِ أمتعةٍ أخرى قد وصلت وعثروا على القطّ. فتحت القفص الصغير منتحبةً: «أوه بوكي العزيز، يا حبيبي، لن أدعهم يأكلونك». رفعت بصرها ناحية كوكرن وابتسمت لكنّ أمادور جرّه من ذراعه بشدة.

في السيّارة حذّره أمادور، متحدّثًا الإنجليزيّةَ بتمطيطٍ جنوبيّ، شارحًا أنّه كان قد عمِل مرّةً في شرطة دالاس. لا يمكن لكوكرن أبدًا أن يتحدّث في مكان عام بالطريقة التي تحدّث بها في حين أنّ غطاءه قد فُصِّل له تفصيلًا دقيقًا. «لم نأتِ هنا في هذه البلدة لنلعب لعبة».

اغتمّ كوكرن قليلًا واعتذر فضحك أمادور. «صديقي، لا أريد أن تُنسَفَ مؤخّراتُنا». ثم غرق في صمتٍ ونظر إليه كوكرن مستشعرًا الأنباء السيئة

وغيرَ راغبٍ في السؤال. على الأرضية قرب المقعد كانت بندقيّةٌ قبيحةُ المنظر منشورةٌ بمنشار مع ذخيرةٍ باليةٍ ومعلَّمةٍ بندوب. تمثال القديس كريستوفر على عدّاد السيارة بدا ناظرًا إلى السلاح أسفلَ منه بنظرةٍ رقيقة، وقد انفرجت شفتاه الزهريتان السخيفتان عن بركاته. كان أمادور متوسّطَ الطول لكن غليظَ البنية، برقبةٍ ثخينة وذراعين هائلتين. كان يُسرع ثمّ بطّأَ من سرعته لأجل بقرةٍ تتمشّى بعرض الطريق.

«أنا آسف للقول أنّ المرأة التي تبحث عنها كانت حبيسةَ بيتِ دعارة لشهر، تُحقَن بالهيروين. الآن نقلها سنيور مندز من هناك إلى حيث وحده الربُّ يدري. لم أدرِ بعدُ بشيء».

فجأةً بلّل العرقُ كوكرن من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه. شخص ببصره في الوادي الأخضر الخصيب والجبالِ البنيّةِ في الأقاصي البعيدة. نسي أن يتنفّس وأحسّ بالدوار إلى درجة أنّ السيّارة بدت في نظره تعوم.

«يجب أن أخبرك أنّك ستُقتَل مثل كلبٍ ما لم تأخذ حِذرَك وربما ستُقتَل مثل كلب حتى لو أخذت حِذرَك».

في جناح فندق إل برزيدنتي طلب أمادور بعض الطعام والشراب. أخبر كوكرن أنه قد وجد منزلًا فالفندق مكان عامٌّ غير مناسب لوضعه. سنيور مندز، أو تيبورون كما عُرِف محليًّا، كان في مزرعته الجبلية لكنّ دزينةً من الرجال في دورانغو في خدمته. على كوكرن أن ينتقل إلى المنزل خلال بضعة أيام حالَما يكون متاحًا، في هذه الأثناء كان يجب أن يلتقي سياسيّين بوصفه مستثمرَ أراضٍ وأفلام. كلاهما استرخى قليلا بعد الوجبة وتحدّث أمادور عن طيّار الآيرومكسيكو وعن شقيق الطيّار في مكسيكو سيتي، مَن اشتغلت أمُّه حاضنةً له في صغرهما. ثم هوى أمادور في حالة صمت، وانسحب إلى عالمه الداخليّ وأصبحت ملامحه جامدة.

«الحقيقة أن ميريا طعنت رجلًا بينما كان يمارس معها الجنس. أقسم هذا الرجل أنّه سوف يخنقها. لذلك كانت في خطرٍ مضاعف. أميل إلى الظنّ بأن تيبورون سيضعها في مكان لا يمكن لأحدٍ أن يصله إليه لكن لا فكرة لديّ أين يكون. أعرف فقط أنّك يجب ألّا تفعل أيّ شيءٍ من دوني».

غادر أمادور أوّل المساء بعد حوار مفصّلٍ حول الخطط الممكنة وبعد قبوله كميةً كبيرةً من المال لاستخدامها رُشى مقابل المعلومات. استلقى كوكرن على السرير شاعرًا بأمواج من الغثيان تمور في روحه، تهزّه حتى إنّ السرير ليَصِرُّ من تحته، شادًّا على قبضتيه وساقاه تتشنّجان غيظًا تجاوز النحيب بكثير. كان من الحمق أن يعتقد أنّه بينما كان يتماثل للشفاء خلال الأشهر القليلة الماضية كان العالم يتشافى معه، وأنْ تخطرَ في باله دائمًا فكرةُ العثور على ميريا في صحة جيدة وأن يفكّر في أنّ بإمكانه أن يقنع تيبي باليأس من علاقته بها وأنّه وميريا سيطيران بعيدًا بسعادةٍ كما يُختَم فيلم مأساويّ بنهايةٍ سعيدة. لكنه الآن امتلأ برغبة القتل وفي الوقت نفسه كان بلا أمل. لمس المسدّس الصغير مربوطًا إلى ربلته، ثم نهض ووضع على كتفه جراب الـ(44.). ارتدى معطف بدلته ونظر إلى نفسه في المرآة. بدا واضحا أنّه قد كبر نصفَ دزينة من السنوات في بضعة أشهر. صبّ كأسًا من التكيلا وقعد في الشرفة يترشّف رشفاتٍ من السائل الحلو المرير ويشاهد بدرَ آخر سبتمبر يلقي بظلالٍ جارفةٍ خلال السحاب العابر الرقيق. جرفت الظلالُ على فتراتٍ متقطّعةٍ باحةَ الفندق الذي كان سجنًا أعيد تصميمه بأناقة. بزغ القمرُ أبيضَ منيرًا على الحائط الخلفيّ حيث اصطفّ السجناءُ مرةً دون ريب وأُعدموا بالرصاص لأسبابٍ أتفهَ بكثيرٍ من أن يتذكّرها أحد. فكّر في تيبي قاطنًا في الجبال البعيدة جهةَ القمر، ثم تساءل إن كانت ميريا تستطيع رؤية القمر. الثلاثة جميعا كانوا، في الحقيقة، يشاهدون القمر كلٌّ في ألمه المنفصل. تذكّر ليلةً صيفيّةً في توسن عندما أطفأ الأضواء

وأخرجا مرتبةً هوائيّة إلى الشرفة ومارسا الحب تحت نور البدر. كان كلٌّ من القمر وجسميهما المتعانقَين ساخنًا وساكنًا، وبريقُ عُنُقِ ميريا المُندّى جذب نورَ القمر. كان ثمّة أناسٌ على مسافةٍ بعيدةٍ أسفلَ منهما يشربون النبيذ على دثارٍ فوق العشب ويستمعون إلى موسيقا كلاسيكية على محطّة إذاعيّة.

بات ضجِرًا فنزل إلى بهو الفندق واتّجه إلى البار. الممثلة كانت جالسةً رفقةَ اثنين من المنتجين مرتديَين بصورةٍ مضحكة جينزَين مَكويّين ومجوهرات هنديّة باذخة. تظاهر كوكرن بأنّه لم ينتبه لوجودها لكنّها قفزت إليه ممسكةً بقطها. شكرته بإسراف على مساعدته في العثور على قطّها. نظر كوكرن سريعًا في الوجوه من حواليه، انحنى باحترام وقال شيئًا مهذبًا بالإسبانيّة ومشى مبتعدًا. وقفت هي محتارةً للحظة وهزّت كتفيها. شرب كأسًا وفكّر في المرأة التي طالما رأى صورَها في المجلات. عندما التقاها شخصيًّا كانت تتألّق بملامحها الكلاسيكيّة القاسية الباردة وقد غدت أكثر بروزًا وخشونةً في الوقت نفسه. كان لها عينان لامعتان بالكوكايين وصوتُ نادلةٍ مستاءةٍ واطئٌ وأبحّ.

بعد ليلةٍ مؤرّقة ذهب به أمادور إلى لقاء مع الحاكم المحليّ وعضوٍ من هيئة السينما. اتخذت حكومة الولاية مقرًّا لها قصرًا ضخمًا كان مملوكًا لدوق من القرن الثامن عشر. توقّف كوكرن ليلقي نظرة على جداريّات تحاكي أعمال دييغو ريفيرا، دعايةٌ سياسيّة ملوّنة لكنّها تترجم بصدق مواجعَ العمال والقرويّين. قابله رئيس هيئة السينما في القاعة وبدا متوترا من أمادور، أسعد ذلك كوكرن إذ أحسّ أنّه من الأفضل أن يكون إلى جانبه رجلٌ يُتّقى شرُّه. انتظر أمادور في القاعة بينما احتسى هو ورجلُ الأفلام كوبًا من القهوة مع الحاكم الذي أزعجه بسرد ذكرياته الورديّة في برشلونة.

اصْطُحِبَ كوكرن وأمادور بعدها إلى ليموزين من أجل رحلة إلى موقع

تصوير نَشِطٍ في عقارٍ كان يملكه جون وين، الذي كان قد صنع عددًا من أفلام رعاة البقر في المنطقة. في اللحظة الأخيرة نودي رجل الأفلام إلى مكالمةٍ هاتفيّة، فسأل كوكرن أمادور لماذا بدا الرجل منزعجًا منك. طلب أمادور من السائق أن يقف في الخارج وضاحكًا قال أنّ رجل الأفلام كان سيّدًا محترمًا، بينما هو، أمادور المسكين، كان مسؤولًا عن الأمن في عدد من المزارع والمناجم التي يملكها أمريكيّون لكنّ أساليبه كانت فظّةً في بعض الأحيان.

في موقع التصوير، حيث كانت الإجراءات الأمنية مشدّدة بصورة غريبة، لاحظ كوكرن حجم فريق العمل الكبير. لم يخطر بباله قطّ أن عددًا كبيرًا من الناس يقف خلف أولئك الذين كنّا نراهم على الشاشة. خلال الصعود إلى أعلى الوادي كان مشغولَ الذهن بمحصول القمح الذي بدا غنيًّا وأخضر حتى إنّك إن أغمضت عينيك نصفَ إغماضةٍ كي تحجب عنك مرأى الجبال ستظنّ أنّك كنت في إنديانا. تذكّر سأم حصاد القمح على جرّارة الفورد القديمة المتداعية. لقد بزّه أخوه في الزراعة رغم أنه كان سعيدًا بانتقالهم إلى سان دييغو. مُزارعو إنديانا صاروا ضبّاطَ بحريّة متفانين وصيّادي سمكٍ مهرة. في شبابه ذهب أبوه وأعمامه في رحلات صيد استكشافية في أعلى ميشيغن عائدين سكارى غاية السكر لكن ببرّادات ملأى بسمك الشمس، وسمك القاروص، والسلمون المرقّط. أخذوه معهم في الرحلة الأخيرة قبل الانتقال وسُمح له أن يشرب من بيرة A&P المخفّضة وأن يلعب القمار، لكن اعترافًا بصغر سنه ومكانتِه انشغل بتنظيف السمك إلى وقتٍ متأخّر من الليل.

أمر أن تتوقّف السيارة عندما قال السائق corallo (ثعبانُ مرجان). أراد أمادور أن يقتل الثعبان لكنّ كوكرن قال لا، وتبعه مبتعدًا عن الطريق وزاحفًا عبر العشب اليابس حيث انسلّ ملتويًا تحت صخرة. مرةً عندما

كان في توريجون قفز على طائرة C5A إلى نيروبي. كانت زيارةً عارضةً لأربع وعشرين ساعة فقط ممّا ضيّق عليه مجالَ الاستمتاع برؤية أفريقيا- إذا استثنينا رؤيتَها من الجوّ- إلى حدود ليلةٍ طويلةٍ من المقامرة، ثمّ مرافقةِ امرأةٍ أثيوبيّة من غالا، قبيلةٍ مشهورةٍ بجمال نسائها الأسطوري. لكن بقيت ساعات قليلة صبيحة اليوم التالي أنفقها في حديقة الزواحف في نيروبي حيث تجوّل ببطء وسط السيّاح ناظرًا إلى الأفاعي في أقفاصها الزجاجيّة. أفعاه المفضلة كانت المامبا الخضراء- طويلة، نحيلة، شبه شفافة تشبه سوطًا أخضر بحركاتٍ مباغتةٍ وسريعةٍ تُجبر الواحد على الابتعاد فجأةً عن القفص. فكّر في جماليّة التهديد: أدوات المامبا القاتلة كانت تحوي جمالًا شاركته فيه الأفعى المجلجلة والدبّ الرمادي والقرشُ المطرقة، ربما حتى طائرةُ فانتوم السوداء التي كان قد حلّق بها- أداةُ موتٍ سوداءُ مهلكةٌ حقًّا.

حارسان عند بوابة الماشية لوّحا لهما. انحنى الحارسان في الغبار الحار ليشاهدا عقربًا كانا قد أوقعاه فوق كثيب نمل. خلف السياج فرسٌ شاهدتهما وأذناها مائلتان للخلف بينما مهرها كان يطفر على الجانبين قبل أن تُسْكِنَه الحرارة المتلألئة. التفت ليشاهد غمامةَ غبارٍ بنيّةٌ طافيةٌ فوقه وفوق أمّه خلّفتها السيارة العابرة. هذه التمثيليّة الهزليّة زادت من رغبته في القتل.

قُدِّم كوكرن إلى المنتج الذي صادف أنه جاء من هوليوود لبضعة أيام فقط. الرجل كان قصيرًا جدًّا، يرتدي بدلة دنيم فرنسية ويدخّن سيجارًا كبيرًا. ربط المنتج نفسَه إلى كوكرن بخيطٍ من الثرثرة الفارغة، متشمّمًا رائحة المال المميّزة ودائرًا حول كوكرن في حرارة الوادي مثل نمسٍ مسعور. جِيء بالممثلة-العارضة، راشحةً بالماء، لافّةً منشفةً حول رأسها ولابسةً معطفًا قطنيًّا أبيضَ وخفيفًا. انحنى على يدها وقبّلها، مقتنصًا لمحةً خلال فتحة في المعطف القطنيّ من هضبة عانتها خلف سروالها الداخلي الرطب الشفاف.

نادت مترجِمًا فعرض المخرجُ خدماته.

«هؤلاء البُلْهُ جعلوني في النهر خلال سبعة مشاهد. أبدو مريعةً لكنّها لوازم العمل، مثلك يدري». حسّنت من مظهرها بينما كان المخرج يترجم.

«على العكس، تبدين لذيذةً وتؤكلين أكلًا».

ضحكت ضحكةً مبحوحة إذ سمعت ما قاله المترجم. «أخبرِهُ أنّني سأحبّ أن أكون جزءًا من عشاءٍ كهذا».

على بعد حوالي مئة ياردة تحت شجرة حور مهولة كانت شاحنة نقل واقفة قرب مقطورة تحمل معدّات مدير التصوير. في الشاحنة ظلَّ رجل يراقب المشهد عبر منظار. تساءل ماذا كان أمادور يفعل رفقة السيّد الأنيق. ركز على السيّد، حدّق هنيهة طويلة وشهق بحدّة. ها هو الرجل الذي مارس الحبّ في الصحراء والذي أوسعه صديقُه الميّت ضربًا في الكوخ، عشيقُ زوجة تيبورون. زفر إذ شغّل الشاحنة في حيرة، عارفًا أنّه يجب أن يبلغ تيبي على الفور.

في هذه الآونة كان تيبي قاعدا إلى طاولة مكتبه، بعيدا في الجبال العالية في منزل مزرعته قرب تبهوانيز. كان سابحًا في عرقه من صيد السمان ورفقةُ الصيد من مكسيكو سيتي يتناولون الغداءَ في غرفة الطعام. سيلتحق بهم عندما يُنهي أعماله التي قدّمت نفسها في صورة توسُّلاتِ استعطافٍ من رئيس العمال في المزرعة، الرجلِ الذي طعنته ميريا. كان تيبي يدوِّر مسدسًا عيار (357.) بقلمٍ من خلال فتحة الزناد على نشّافة الحبر.

«عرفتُك منذ كنتَ طفلا. الآن صار لك فمٌ كبير يقول أنّك سوف تخنق زوجتي لأنّها طعنتَك. لا ألومك لكنّك قد نسيت زوجةَ مَن تكون. أستطيع أن أقتلك...» توقّف تيبي ووجّه المسدس، ضاغطًا على الزناد، وطقّ الزناد

على الأسطوانة المفرَغة من الرصاص فزعق الرجل، منهارًا على ركبتيه. «لكني لن أقتلك. ارحل إلى ميريدا بحلول يوم غد. ولا تعُدْ أبدًا. هنا اسم رجل سيمنحك عملًا». خربش تيبي اسمًا على قطعة ورق ورفع يده ليُسكِت الرجل الذي حاول أن يتحدّث. «خذ هذا المسدس هديّةً. سيساعدك على أن تتذكّر فمَك». انطلق الرجل من فوره ودائرةٌ داكنةٌ في البنطال عند منفرج ساقيه حيث بال على نفسه. التحق تيبي بأصدقائه على الغداء مبتسمًا. «بلغني أنّ قطعان ماشيتي تبلي حسنًا هذا الخريف».

انتكست ميريا بعد انفراجٍ بسيطٍ في حالتها. الفتيات المصابات بالتوحد لم يستجبن لها، لم تستطع اختراق أدمغتهنّ اختراقًا يحفّز ولو أدنى استجابة. قعدن جوارَها على المقعد تصدر عنهنّ أنّات الملعوناتِ لعنةَ الأبد وتخيّلت أنهنّ إنّما ينظرن إليها نظرةَ حيوان إلى صورةٍ فوتوغرافية، بمعنى آخر، ظلّ غيرِ مفهوم لا الذاكرةُ ولا الحواسُّ أعانت عليه. كانت بالكاد تأكل وأمست ناحلةً نحولًا مؤلمًا وشاحبة. قَلِقت رئيسة الدير على الرَّسْمِ المُربح لِقاءَ رعايتها أن يطير، غيرَ مدركةٍ أنّ ميريا كانت تعاني ممّا عُرِف في قرنٍ مضى بـ«نحول الشوق»، منسحبةً إلى الداخل في توحّدها الخاصّ الذي أصابها به الحبُّ والفراغُ الموجعُ لفقدِ الحبّ، لذا صارت لياليها أرَقًا وأمَلًا يبابًا؛ لياليَ وعيٍ متطرّف قاسمته أولئك اللاتي على شفا انهيارٍ حادّ، مريضاتٍ ميؤوسًا من شفائهنّ في جناح السرطان لا يبلغ العلاجُ من التخفيف عنهنّ إلا حالةً من الرعب غير الموضعيّ. إن شجرةً مزهرةً نظرن إليها عندما كنّ في العاشرة من أعمارهنّ وأمضين ظهيرةً وحيدةً في ظلّها سوف تعود إليهنّ بإحساسٍ صافٍ حتى لربّما شممن مرّةً أخرى تفتّحَ براعمِ الماغنوليا التي انتشلنَ أزهارَها بكسلٍ من العشب.

كان تيبي يحسو خمرةَ ما قبل النوم على السرير قارئًا عددًا مضى عليه أسبوع

من وول ستريت جورنال عندما دخلت شاحنةُ أحد رجاله إلى الباحة. طالما رافقت الوصولَ المتأخّرَ أنباءٌ سيئة ورمى بالجريدة من يده مشمئزًا.

اتجه الرجل إلى غرفة النوم يرافقه كلب تيبي من سلالة (بول ماستيف) كان قد نهش، عمدًا، يدَ عاملٍ قبل أسبوع. العامل الشاب أراد أن يختلس بطّةً بريّة من سربٍ ربّاه تيبي لأجل المائدة. في الماضي كان تيبي سيعتبر الحادثة عدالةً تحققت، لكنه قد أنفق يومًا يفكّر في تحطيم الكلبِ الهرِم، رفض الفكرة؛ ثمّ في ذلك المساء امتطى فرسَه العربيّةَ إلى عشّ العامل. بينما كانت الزوجة تعدّ شاي أعشاب دلّى تيبي طفلي العامل المرعوبين على ركبتيه، معطيًا الصبي مطواةً غاليةَ الثمن ومعلّقًا حول عنق الصبية صليبًا ذهبيًّا صغيرًا كان يرتديه. أخبر الرجلَ بأن يَحْضر إلى البنك في تبهوانيز مطلعَ كلّ شهر وسيجد مئة دولار في انتظاره، وفي اليوم التالي سيصل بضعة رجال لينقلوا العائلة إلى مسكنٍ أفضل مع أولئك الذين يعملون في مزرعته. الرجل، من كان سائسَ خيل جيد، سيخدم عنده مربيا للأفلاء والأمهار. تيبي بدأ يكفِّر كفّارة غير مباشرة عما فعله بزوجته، مهما تكن ذنوبُها.

الرجل الذي وقف جنب السرير تذكّر الليلة التي أمسك فيها بذراعي زوجة تيبي وقد تلطّخت يداه برَشَاش دمها منزلقةً إلى الأرض. من الجيد أن تيبورون لم يكن يعلم بزياراته المتكرّرة إلى المبغى وبأنّه قد أذاق امرأته من مازوشيته الجنسية الخاصّة إلى حد أنّها كانت ترتاع من منظره حتى وهي في خَدَر الهيروين.

أبلغ الرجل تيبي بما رآه بأبسط ما يمكن وتفاجأ من سلبيّة تيبي إزاءَ الخبر. أضاف أنّه ربما كان هو الغرينغو ذاته، مَن قتل الرجل العملاق الذي كان كلاهما يحبّ تسميتَه بالفيل.

«بلا شكّ. راقبه من كثب. لن يجدها أبدا وإن اقترب منّي سوف نقتله».

بعد أن ذهب الرجل سكب تيبي لنفسه كأسًا آخر من خمرة الليل والتهى بذكريات الزمن الجميل الذي تشاركا فيه لعبة التنس ورماية الأطباق. برعاية كوكرن كان على وشك أن يتقن ضربةً خلفيةً محترفةً بظهر المضرب. شعر بالبلاهة واقفًا هناك في منامة حريرية مفكّرا بأمرٍ تافهٍ كالتنس في الوقت الذي كان ينبغي عليه أن يفكّر بقتل الخائن. بالطبع ينبغي عليه أن يقتل كوكرن إلا إذا رجع إلى الولايات المتحدة، أو ربما سيقتله حتى لو رجع، وسيسمّم ميريا ويطوي الصفحة ويكون بين يديه شيءٌ يشبه بدايةً جديدة، شيءٌ رآه على الدرجة نفسها من التفاهة. قضي الأمر ولا أحد منهما ستغفر له الذكريات. الآن سيدع صديقَه السابق يأكل قلبَه حسرةً في البحث العقيم عن عشيقته.

في ضواحي دورانغو الجنوبية استأجر أمادور دارًا أنيقة، فسيحة لكوكرن. حوَت مسبحًا، تماثيل جميلة، وكانت الغرف مقبّبة بالطوب وفيها مواقدُ كثيرة وثمّة مطبخٌ مجهّز بالكامل حيث أعدّت أخت أمادور الوجبات. أحضر أمادور قريبًا آخر أيضًا، رجلًا نحيلًا، طويلًا، من الجبال، حارسًا إضافيًّا كي يستطيع النوم بسلام، ويقومَ ببعض المهمّات الاستطلاعية في البلدة.

لكنّ أيام القيظ بدأت وكان صعبا على كوكرن ألّا يستسلم للطقس: نهارات شديدة الحرارة ومساءات بلا نسمة هواء لم تتح له أن يفعل شيئا سوى الجلوسِ في فناء المنزل، وشُربِ بيرة كارتا بلانكا، ومشاهدةِ ارتعاش الحشرات على خلفية الغيوم التي تحت تشكّلاتِها الكسلى بدت النسور نائمةً في الفضاء. تلك الغيومُ كانت الغيومَ الأجملَ على الأرض. أخبره أمادور أنّ العلماء كانوا يقطعون المسافة كلّها من دورانغو من أجل أن يدرسوا هذه الغيوم وكان كوكرن جاهزًا لتصديقه. رنا إلى الغيوم حتى نفذت إلى حياة حلمه حيث أسرعت وتموّجت، واندفعت متجاوزةً إيّاه، كما فعلت من قبلُ بأقصى سرعتها وهو يحلّق بمقاتلته النفّاثة.

كان أمادور في حَرَجٍ وكرِه الاعتراف به، رغم أنّ كوكرن قد أدرك موضعَ حرجه. ارتبط أمادور بمعرفةٍ سابقةٍ بتيبورون امتدّت لعقد من الزمان واعتبره سيّدًا في الإجرام بذكاء فائق وذائقة رفيعة. لم ينظر قط نظرةَ إعجابٍ إلى ثروة تيبورون- ما أكثر الأثرياء الحمقى وسط الأمريكيين الذين كان يحمي ممتلكاتهم- إنّما كان يحسده على مهاراته الإبداعية في هندسة صفقات كبرى إلى حدّ أنّه لم يعد يضيع الوقت في أوساخ ماضيه. بالنسبة لأمادور، العثور على ميريا كان مثالًا آخر على دهاء تيبورون: المرأة اختفت فعليًّا من وجه الأرض في أقلّ ممّا تطلّبه صعودُ العذراء إلى المجد السماويّ. مُحِيت. مُسِحت. وليس في اتصالاته الموثوقة همسةٌ أو نتفةُ دليل على أثرٍ يقود إلى مكانها. لم يكن أمادور ليتفاجأ لو أنها رُميت في حفرة منجم مهجورٍ لا يُسبَر غورُها، أو وُضِعت مقيَّدةً بكيس حجارةٍ في قاع بحيرةٍ جبليّة. قال ذلك لكوكرن الذي لم يزد على أن أومأ برأسه إيماءةً حجريّة في وقت متأخّر ذات مساء عندما أسرفا في الشراب.

الغطاء الوهميّ لزيارة كوكرن تحوّل بسرعةٍ إلى عبء عليه. لقد زارا كلَّ مزرعة معروضة للبيع في المنطقة، سمعا كلّ كلامٍ معسول من أعضاء هيئة السينما عن مميزات دورانغو، تفقّدا كلَّ موقع تصويرٍ رثٍّ حقًّا وأثري- مواقعِ تصوير أفلام قديمة. كانا كمن يطارد أشباحًا وكلّما تعرّفا على فيلم نبع معه كلّ الماضي الذي رافقه. ذهبا إلى حفلة كوكتيل صاخبة أقامها العاملون في الفيلم في أحد مواقع التصوير مع بوفيه بصنوف فاخرة من أطايب الطعام والشراب وعلى أنغام فرقة مارياتشي. الخمور تدفقت والقرويون شاهدوا الحفلة عن بعد بفضول مهذّب. الممثلة-العارضة باتت غاضبة من فتور كوكرن تجاهها الذي اعتقدت أنّه فتورٌ مُتكلَّفٌ لا محالة. في الطريق إلى البيت مع أمادور بعد الحفلة اقترح كوكرن بمزاج كئيب أن يذهبا إلى تبهوانيز وينسفا تيبورون

ببندقية الروجر (30.06) المخبّأة في شاحنة أمادور. مَرَحٌ، قال كوكرن، رؤيةُ ابن القحبة ينقذف في الهواء ويتشقلب ونصف رأسه يتشظّى قِطَعًا متناثرة.

«ثم لن تجدَها أبدًا»، قال أمادور.

«معك حق، يا صاح. كنت أمرّن خيالي. أراه في مرمى النيران حتى عندما لا أريد أن أُطلق عليه رصاصة. أريد أن أُنقذها. هذا كلُّ شيء. الأمر واضح وبسيط».

«إن كانت حية».

«سأطلب منك أن تكفَّ عن ذكر ذلك».

«آسف، يا صديقي». ثم ابتسم أمادور إذ تذكر كيف تأبّط خنزيرًا صغيرًا مشويًّا تُرِك دون أن يُمَسّ على البوفيه وأعطاه إلى شيخٍ خلف السياج. سيحظى الرجلُ المسنّ بليلةٍ سعيدة من عسر الهضم.

بعد بضعة أيام أشار أمادور إلى أنّ شائعةً تدور حول وجوده المستمر في دورانغو. قعدا يشربان القهوة على المسبح يحاولان ابتداع خطط إضافية: آخرُ الرشى دُفعت هباءً إلى مديرة بيت الدعارة التي تعقباها إلى مازاتلان. لقد اخترعت حكايةً جعلتهما يقطعان بتلهّف كلَّ الطريق إلى زاكاتيكاس إلى عنوان أعفنَ من حظيرة خنازير. ظلّت الرحلة تعاود الظهور في صور متفرقة؛ كابوسٍ شبهِ كوميدي، مهمةٍ مرعبةٍ بأزياء مرعبة في زقاق في حي فقير من أحياء العشوائيات.

عندما وجدا المبغى أخيرا أضحى كوكرن عصيًّا على الاحتواء. أبقى أمادور المديرةَ وقوّادَين على الحياد في ممرٍّ بإضاءة خافتة بينما ركل كوكرن نصفَ دزينة من الأبواب في عمايةٍ بيضاء، السلاح الذي حمله في وجوه العاهرات والزبائن حمل معه رعبًا فوق طاقة سلاحٍ بسيط: حامِلُهُ صار أحمرَ

العينين، مسعورًا حقًا. عندما بلغ الباب الأخير ظنّ بصورةٍ ما أنّ ميريا لا بدّ هناك وعندما وجد المرأةَ تحت الرجل السمين المصدوم ووجهها إلى أسفل، اجتثّ الرجل من مكانه وألقى به في الزاوية. أدار كوكرن وجهَ العاهرةِ المغشيِّ عليها كاشفًا عن وجهٍ كليلٍ لهنديّةٍ في أربعيناتها وعوى عندئذ راكضًا من الغرفة. هجم على القوّادَين إلى أن صدّه عنهما أمادور. علِم أمادور إذّاك أنّهما خُدِعا وفي طريق العودة أعجزه الكلام في غضبه وانهمك في الشراب، نادرًا ما فعل. قعد كوكرن يدلّك قدمه وكاحلَه على لوحة العدادات في تباريحه الخاصة التي احتوت شعورَ خسارةٍ، مهما كان آنيًّا، استولى على لبِّ عظامه. في هذه الحال قرّر أن يخاتل أمادور، يقودَ إلى تبهوانيز ويطلقَ النار على تيبي. (ذلك المساء بالتحديد ألبس تيبي بنتَ فلّاح فستانًا لميريا ثم طردها خارج المنزل في قرف. ندمُه الثمِلُ أرّقَه فتجوّل حول مزرعته في محاق القمر حتى تلملم في بطانيّة حصانٍ ونام مع كلاب صيده). كان أمادور، بينه وبين نفسه، يخطط للقبض على مُساعد تيبورون ويده اليمنى، الرجلِ الذي حلّ مكان الفيل بعد موته. لكن ذلك سيكون خطَّ الدفاع الأخير، محاولةً يائسة، علامةَ هلع. امتلك أمادور صبرًا لاتينيًّا لم يمتلك أدنى درجةٍ منه كوكرن. يترك الأحقادَ تمضي لسنوات إلى أن يحين الوقت المناسب ليخلّص نفسه من ثقلها. لكنّه احتاج الآن إلى شراء المزيد من الوقت.

«عليك أن تدعو تلك الممثلة الجميلة على العشاء. هكذا سيظنّ كلُّ من في البلدة أنّك مجرّدُ إسبانيٍّ آخرَ غنيٍّ وغبيّ يحاول التخفّف من ضغوط خصيتيه». كان أمادور مسرورًا بفكرته.

نظر كوكرن إلى السُّحُبِ الرقيقة الممتدّة بعرض السماء فذكّرته بما يجب أن يبدو عليه الحال داخل هيكل الحوت العظميّ. وافق على فكرة أمادور رغم أنّه شعر بنفسه فارغةً من الجنس بصورةٍ تثير الفضول. بعد أن دلق أحشاءَ

العملاق بنصف ساعة كان يقود شاحنة التكساسيّ أسفل الطريق حين شعر بشهوةٍ جنسيّة ملحّة أشعلتها فتاةٌ كانت تقف تحت شجرةٍ على جانب الطريق لكنّه خجل من نفسه بعضَ الشيء. في دا نانغ بعد أن غسل عنه عرقَ مهمّةٍ عسكرية استمتع بعاهراتٍ أعددن له وجبةً ثم قاسمنه السرير. دونما لمحةٍ من وهمٍ رومانسيٍّ كان يشعر بالموات الجنسي، وقد تملكّه هذا الشعور منذ الثلاثين من عمره عندما كان في حالة اكتئاب ونذر ألّا ينام مع امرأةٍ لم يكن في نيته الحديث معها، عينًا لعين، على الإفطار. كان بصيرًا بشروط العلاقة الجنسيّة أكثرَ بكثيرٍ ممّا أُتيح له أن يُظهِرَه من قبلُ، حتى التقى ميريا. سافر من دون تفكير ومن غير رجعة بعيدًا عن صدامات الثقافة السائدة. كان مستغرقًا في حبٍّ بعيدٍ عن تعقيداتِ ما صار خريطةَ تفاعلات جنسيّة بين الكائنات الحيّة ومحيطها حيث الخطوات المناسبة قادت إلى كلّ شيء ولا شيء. رجلٌ قد تزوّج المنيّةَ حتمًا على أساسٍ يتجاوز بكثير أسسَ الحياة العائليّة الاعتياديّةِ لم يشأ أن يريق حياتَه على هُراء.

ولقد شعر بالخوف المستشري في العمر المقبل: ميريا كانت على ما يبدو حبَّه الأوّلَ والأخيرَ ومحاولتَه الوحيدةَ لإرواء حياته رِيًّا لم يستطع كلُّ شيءٍ آخرَ إلا أن يُلْمِح إليه إلماحةً خافتة. بتعبيرٍ آخر، دونها لم يكن هناك شيءٌ– لكن معها كان حتى أبسطُ الأشياءِ كتمشية كلبٍ في الصحراء أو اختيارِ مكوّنات وجبة يحتوي سحرًا يفوق الوصف. ذات مساء أحضرَتْ نصفَ دزينة من أنواع السمك والقواقع كي تُعِدّ حساء ثمارِ بحرٍ مشهورًا في ملقا، لم تنسَ أن تُحْضِرَ رطلًا من لحم البقر لدُل التي أخذها سحرُ ميريا بعيدًا عن لامبالاتها المعتادة بالنساء. محدِّقًا في السُّحُب الرقيقة قعد كوكرن ظهيرتَه كلَّها، تاركًا للشمس أن تحرقَه بينما أمدّته أمُّ أمادور بمشروباتٍ باردةٍ مشروبًا تلوَ آخر ومأكولاتٍ خفيفةً تركها لشهيّة الذباب.

ذهب أمادور بسعادة كي يدعو الممثلة-العارضة على العشاء، متوقفا عند بائع زهور من أجل دزينة ورد، وعند بائع أدويةٍ بالجملة كي يشتري ما كان واثقًا من وجوده في وصفة دواء أي ممثلة: بعض الماريوانا الرائعة والصالحة لتستخدم مع كوكايين قوي. احتاج أن يرتّب لهذه الوجبة استثمارًا للوقت. كان صديقُه قد أراه علبة سيجار وأعطاه خمسة آلاف دولار هدية في البداية. تمنى أمادور أن يزيد الماشية في مزرعته الصغيرة في السفوح حيث كان يربي قطيعًا صغيرًا ويعرف مدى سهولة الحياة هناك وحلاوتها التي لم يتمكن من تذوّقها منذ شبابه إلا نادرًا.

في موقع التصوير قَبِلت الممثلة الورود ببعض ترفّع، لكنها سرعان ما لانت إلى حالٍ من التعاون المتلهّف. كانت مأخوذةً بهذا الرجل الذي ظلّ يظهر في أسابيعها الثلاثة الماضية ويختفي، ليس كمثل أيِّ أحدٍ قابلته في عملها. ستكون هناك في الوقت المحدّد وخلال ما بقي من تصوير اليوم، على صهوةِ حصانٍ متعبة، فكّرت ماذا سترتدي وكيف ستتصرف.

بعد أن قدّم أمادور الباقة لها اختلس لمحةً سريعة على ما حوله، مركّزًا للحظة على شاحنةٍ بعينها أدركها على الأغلب لاشعوريًّا- رآها كثيرًا مؤخرا. مشى قريبًا منها ناظرًا باستنكار كمهتمٍّ بهراء صناعة الأفلام. لبس نظارته الشمسية وأخذ كوبَ ماءٍ من عربة الطعام تاركًا لعينيه أن تمسحا الشاحنة. عرف مساعد تيبورون مستندًا إلى الباب الخلفي مُوليًا اهتمامَه بالجبال.

ذلك المساء وصلت الممثلة-العارضة إلى العشاء وبقيت تحت ظروف نادرة. أحضرت قطّها الذي كان مسلّيا للجميع ما عدا أمّ أمادور. تسلّل أمادور تاركًا ابنَ عمه الطويل يقف حارسًا يَقِظًا في ظلال الرواق. بدأ كوكرن بالشراب وكان العشاء مُمِلًا مثلَ تقليب صفحات مجلّة بينما أنت تريد فعلَ شيءٍ آخر أو تنتظر فعلَه. لكنه كان كريمًا على المائدة إلى أن باتت

محاولات التواصل بينهما بلغتيهما المختلفتين سخيفةً للغاية. تجرّعت نبيذها بتوتر، قاعدةً هناك هشّةً لكن مشّعةً في فستان ساتان أبيضَ ضيّق.

«علينا تجاوز هذه المسخرة. لدي مهمّة سريّة هنا وإن كشفتِ هويتي سأشقّ حلقك حتى عظمة العنق»، قال بلكنة إنديانيّة واضحة.

تفاجأ عندما ضحكت، قائلةً أنّها تذكّرت كلماته الأولى في المطار. صارا صديقين بطريقة غريبة، وانتقلت للإقامة معه رغم أنّه لم يُشِر أحدٌ إلى أيّةِ منفعةٍ تُرجى من وجودها. ولم تُزْعِج هي نفسها بالسؤال عن هذا الأمر. مرّت سنين على وجود ذكرٍ حولها لا يحاول لمسها أو معابثتها باشتهاء. لقد تجاوزت في إغوائه المعقولَ واستجاب لها فقط كما يستجيب رجلٌ آليّ. أصغى لأحزانها وأخبرها أن تجلس بهدوء في أيام راحتها وتشاهدَ الغيوم. في مناسبة واحدة، منعها من أن تأخذ طائرَ الكناري الذي طلبت توصيله من السوق كي يلهو به قطُّها ويطارده في غرفتها. جنّ جنونها، ربما من الكوكايين الذي كان أمادور قد زوّدها به، إلى أن أخذها في نزهة في الحقل خلف الدار واصطاد قطُّها فأرَه الأوّل. التهم القطّ رأسَ الفأر واستلقى يهرّ على العشب؛ انفرجت أساريرها معلنةً بوكي ربيبًا للطبيعة لا ربيبًا على الإطلاق لهوليوود.

أدرك كوكرن أنّها كانت تمتحن صبرَهم جميعا، صبرَه بدرجةٍ أقلّ من أمادور أو أقاربِه من الجبال أو أمّه لأنّه كان باردًا ومتحفّظًا واعتقد أنّه مشرِفٌ على نهايته حتى وإن كان جاهلًا بذلك. تحسّس بأصابعه القلادة التي أهدتها له أمّ ماورو كأنّها لم تكن مسبحةً قط، بل تميمةً قويّة، بتلك الطريقة العجيبة التي يرى بها جنديٌّ في مهمّةٍ ليليّةٍ حصنًا حصينًا له أن يتمتمَ صلاةً حفظها في طفولته. يريد القلب الحياة لكنّ العقلَ مصدومٌ باقتراب الموت. دائمًا ما يفكّر الجندي أنّه حتفُ شخصٍ آخر، الرجلِ الذي أمامه أو الواقفِ خلفه، أو إن كان متفائلًا فلن يكون أبدًا حتفَ أحدٍ يعرفه.

فزعت أمّ أمادور راكضةً بمعطف نوم عندما رأت الممثلة–العارضة تتحدث إلى ابنها بلباس السباحة عاريةَ الصدر. ضحك أمادور لكنّه كان في سرّه حانقًا عليها إذ لم تُظهر احترامًا أكبرَ لأمه. وفي ساعة ليلٍ متأخّرة عندما رفض كوكرن صحبتَها استدرجت ابنَ أختِ أمادور بينما كان واقفًا للحراسة. غضبت عندما أسرع بتغطيتها، رافضًا أن يضع عنه سلاحه. خاله الطيب كان يدفع له مقابل عمل أسبوع أكثر ممّا كان يجنيه في عام كامل. في اليوم التالي أوصت عاملًا من الفيلم أن يأتيها بثلاثةِ طيور كناري هرّبتها إلى البيت بعد نهاية التصوير. جلست في غرفتها تدخّن بملابسها الداخلية وتشاهد بوكي يطارد الطيور. أزالت الستائرَ كي تحرم الطيور من ملجأ يبعدها عن متناول القط. أجهشت بالبكاء ثم بكت لساعات حتى سمعها كوكرن، دخل الغرفة وأخذها في حضنه مُبلسِمًا حزنَها بالكلمات إلى أن نامت. نفض الريشَ الأصفرَ عن ساق بنطاله، لاطف القطَّ وغادر. فهِمَ قسوتَه تجاهها لكنّه كان عاجزًا، غارقًا في ذاته مثلما كان غارقًا في عذابِ سَرْنَمَتِه.

ذات صباح لم تستيقظ ميريا. عندما افتُقِدَت على الإفطار وجدتها حارستُها الراهبةُ في أعماقِ حُمّى أفقدتها الوعي. انطلقت رئيسة الدير بالسيارة مع عاملها إلى دورانغو كي تطلبَ الإذن من رجل سنيور مندز لزيارة طبيب. أخبرها متهكّمًا أن تعود وتنتظر. لا لأنّه قد فقد صديقه العزيز الفيل فحسب بل لأنّ رئيسَه قد بات مشتتا مُرنَّحًا بالسُّكْر والعاطفة حتى بدأ يفقد رجولته. بات تيبورون فجأةً أكبرَ عمرًا حتى خشي الرجل على مستقبلِ أعماله. كلّ هذا الهراء عن زوجته الخائنة التي كان يجب أن يقطع عنقَها تلك الليلة في الكوخ. كان سيسعد بفعلها رغم اللذاذةِ التي ذاقها في ما بعدُ عابرًا بجسدها. الحديث بينهما كان في مطعم سمك يدعى 'بلايا أزول'. لم يدرِ أنّ العامل الغافي مستندًا إلى المبنى المقابل كان ابنَ أخت أمادور.

وصل التقرير إلى كوكرن وأمادور فاحتارا للحظة ثم اتضح الأمر. قال أمادور ليس في المنطقة سوى ثلاثة أديرة. تكهرب كوكرن وجرى جريًا إلى غرفة النوم وربط إلى كتفه جرابَ الـ (44.). قبّل مسبحته الخاصّة وعلّقها حول عنقه. تبعه أمادور مثبّتا إيّاه في الباب.

قاوم كوكرن، لكن أمادور أمسكه بشدّة. قال أنّ عليهما أن يفكّرا جيدا بخطة وإلا فلا المرأة ولا هو، من أمسى مقرّبًا منه، سيخرجان من البلد على قيد الحياة. عليهما مواجهة تيبورون وإلا سيُصطَادان فورًا. الآن وقد عرفا الراهبة فإن أيّ أحمق يستطيع إيجاد ميريا لكنّ المسألة أن تجدها دون أن يدركك الموت. قاده أمادور إلى أسفل الممر حيث المطبخ وصبّ شرابًا وأخبر أمّه بأن تُحضّر قهوة قويّة. استدعى ابنَ أخته وأخبره بأن يجهّز لكوكرن ملابسَ بديلة وألّا يترك جانبَ أمّه. عرض أمادور خططًا فيما كان ينظّف الأسلحة المعروضة على الطاولة. وضع شرائح خنزير مملّحة وخبزًا وبيرة في خِرقة. خرجا عندما أوقفت الممثلةُ سيارتها بعد عودتها من العمل. علّقتْ على ملابس كوكرن، ثم نظرت في أعينهما وتوقّفت عن الكلام. قبّلها كوكرن على جبينها ورحل.

عاليًا في الجبال في تبهوانيز كان تيبي قد أرسل طائرةً إلى مكسيكو سيتي كي تحمل طبيبًا عليه لتيبي ثروةٌ من ديون القمار. لقد أمرضه انتقامُه إلى الحدّ الذي خطّط معه للانتقال إلى الطابق العلوي من فندقه في كوزوميل. تخلّى عن فكرةٍ، ظلّ محتفظًا بها لثلاثة أيام، بأن يذهب إلى دورانغو ويقتل كوكرن رميًا بالرصاص. لقد تعب من الحب والموت وأراد فتاةً بعينها من المايا عرفها في بلد الوليد. كانت مدرّسة وامرأةً مناسبةً لمرافقته إلى باريس إذا ساء الطقس في كوزوميل. الآن أراد أن تعيش ميريا وإلا سيذهب حتمًا إلى الجحيم. فكّر بجدية في أن يطلق النار على رَجُلِه عندما تحدّث إليه، مُخلِّصا الجميعَ من

تهديد هذا المعتلّ نفسيًّا. عرف أنّ موجة العطاء هذه قد تذهب إذا ما أضحى سكران من جديد لذا فقد تجنّب الكحول وذهب للصيد حتى حلّ الظلام. شوى السمّان في الموقد كما اعتاد أن يفعل شابًّا. وأكله بيديه مُقعيًا قبالةَ النار.

استغرقت الرحلة صعودًا إلى تبهوانيز عدة ساعات. توقّفا خلفَ حانة صغيرة قرب منتصف الليل ودخلا مطبخًا مسقوفا بالصفيح مضاءً بمصباح زيت. تعشّيا وتحدّثا إلى الطبّاخ، رجلٌ مسنّ، كان مصدرَ معلوماتٍ لأمادور وهنديًّا على الأرجح. كان تيبورون يخرج للصيد مبكرًا كل صباح. تذكر أمادور الوادي بالتأكيد. تابعُهُ الأمين المعروف بـ(المجنون)، قد وصل وعلى الأرجح سيرافقه. بات تيبورون مجنونًا هو الآخر حتى إنّه سَكِرَ في هذه الحانة مع القرويين الذين كانوا يهابونه. ضحك الطبّاخ المسنّ قائلا أن تيبورون ليلتَها فقد عقله تمامًا إذ كان يحاول أن يكتشف ما إذا كان «أحدٌ يفهم أحدًا»، عند أيِّ نقطةٍ تصبح الذات أفضلَ ما يمكن أن تتذكّره عن ذاتها. قال الطباخ المسنّ أنّه أصبح طبّاخا بعد حياة كاملة عاشها سائسَ خيل لأنّه تذكّر كم استمتع بالطبخ لإخوته وأخواته عندما ماتت أمهم. أومأ أمادور برأسه قائلًا أنّه بين هذين الوقتين كان الرجلُ قوّادًا ولصًّا رائعًا. ضحك الطباخ المسن وقفز في المكان، ثم عرض عليهما شرابًا من زجاجة مسكالِهِ الخاص. رفض أمادور قائلًا أنهما كانا في مهمة خطيرة للغاية.

قاد أمادور صاعدًا طريقًا جبليّةً مزدوجة، متوقّفًا عندما صار الدربُ غيرَ آمنٍ للسيارة. قعدا في صمت مدّةَ ساعة وكوكرن يشعل سيجارةً بعد أخرى، مستمعًا إلى تكّة الحرارة منخفضةً من المحرّك. شغّل أمادور راديو السيارة وفرحا بالتقاطه في الارتفاع العالي محطةً من نيو أولينز تذيع موسيقا الريف خصيصًا لسائقي الشاحنات. لقد جعلت كوكرن يشعر بالحنين إلى أن أدرك أنّه كان بلا وطن. إلى جانب ميريا افتقد ابنتَه بشدة وشكّ في أن يطلع

سالمًا من الشقوق التي شقّها، أو شُقَّت، في قُماشة حياته. لكنّ روحه المعنوية ارتفعت حين فكّر في ميريا محبوسةً في دير ريفيّ تنتظر بفارغ الصبر أن يأتيَ ويأخذَها إلى إشبيليّة. ركّز عقلَه على رؤية القناة الرومانية القديمة في نور القمر معها. ربما تأتي ابنته وتقضي أسابيع معهما في الكريسمس.

قاطع أمادور أفكارَه قائلًا أنّ عليهما أن يمشيا مسافةً طويلة قبل الفجر ببضع ساعات. هنالك موضع جيد لاعتراض تيبورون حيث يضيق الوادي إلى أخدود ويجري الدربُ على طول جدول. كان عليهما الافتراض بأنّ تيبورون لن يغير من عاداته الجديدة. إنّه شأنُ كوكرن بعدُ ليعقد مع الرجل أيَّ سلام ينتويه، سلامًا طويل الأمد في أحسن الأحوال. هو، أمادور، سيختبئ مع بندقيته (30-06.). سيكون النقاش أيسر وفوّهةُ السلاح مصوّبةٌ نحو العدو. نفض أمادور رأسَه وأطفأ كوكرن الراديو ظانًّا أنه قد سمع شيئًا ما. فتحا النافذتين وسمعا النباح الحادّ، الوعوعات، والعواءَ القصير المتهدّج لذئاب سهوب تتحدث إلى بعضها البعض. حكى أمادور قصّةً عن كيف، عندما كان صغيرًا، وجد ذئبَ سهوبٍ هَرِمًا، يحتضر طريحًا عند نهر. رفع سلاحه ليطلق عليه النار رأفةً به ثم خفضه غيرَ مريد أن يقطعَ على الذئبِ ساعاتِه الأخيرةَ في الحياة.

«محزنٌ ألّا تستطيع ببساطة إطلاقَ النار على الرجل. سيكون الأمر في غاية البساطة. ونُقتَلُ كلُّنا».

«لقد تجاوز الأمر قتلَه إلّا ضرورةً. أودّ الظنّ بأنّه سيعرف عندما يكون متعبا».

«لا أحدَ منا يعرف متى نكون متعبين. كيف نتوقّع ذلك منه؟ خسارةُ امرأةٍ لا تعني كونَك متعَبًا، إنّها خسارةُ امرأة. تحدث لكلِّ أحد». توقّف أمادور قليلًا. «لقد خسرت زوجتي شابًّا لكنّي كنتُ أحمق. كانت أقلَّ حمقًا

منّي ونجت بنفسها».

«الشيء نفسه بالنسبة إلي. أعمال القتل لا تصنع زوجًا جيدا. أفتقد ابنتي لكنّ زوجتي الآن زوجةٌ لأخي. كنت أباها صدفةً والآن هو أبوها الحقيقي». توقّف كوكرن ليصغيَ إلى ذئاب السهوب، ثم تحسّس الأنياب حول عنقه. أحسّ بألمِ رجلٍ تَبع شغفَه إلى دركات السلوك البشري السُّفْلَى مع فهمه الكامل أن لا رجوع. أيُّ عددٍ من الرجال سيذهب إلى القمر في صاروخ صُمّم لرحلة ذهابٍ فقط. كان الأمر بغباوةٍ في الجينات، إمّا خلَلًا جزئيًا أو عودةً بسيطةً عبر الزمن حيث يسافر فارسٌ إلى حرب الثلاثين عامًا ويتفاجأ أنّ أحدًا لم يعرفه وهو يدخل من الباب. لأجل ذلك كانت سنتُه التي أمضاها في توريجون عزيزةً عليه رغم أنّه قد بدا مهمومًا وقلقًا وهو يُدرِّس الطيّارين الشباب. وإذ انحسرت السَّنةُ في الماضي وَهَبَتْهُ النغمةَ الرخيمةَ المفردةَ الكاملةَ لحياةٍ بلوغه: زوجتُه بطبيعتها الريفية أحبّت المشي أيضا، وقد مشيا كلَّ محافظات مدريد القديمة، وبرشلونة وإشبيلية أيضًا عندما أخذ إجازةً لبضعة أيام. مرّةً ذهبا إلى ملقا لأسبوع وأقاما في نُزُلٍ صغير على البحر، ينفقان النهارات في مشاهدة ابنتهما تسبح والليالي في الحديث عن المستقبل، مقرّرَين أن يستثمرا مدخراتهما الثمينة في قارب أبيه لصيد التونة الذي احتاج إلى محرّكات جديدة. بذا سيكون المالكَ الكليَّ لتجارة العائلة إذا ترك الخدمةَ العسكرية. لقد دفع ما عليه منذ زمنٍ طويل لكنّه ترك المال راكدًا في البنك في سان دييغو.

هزّه أمادور مستيقظًا وعرض عليه كوبَ قهوة من الحافظة. موسيقا مترعةٌ بمراثي الليل والقلوبِ المحطّمَةِ والأحشاءِ الممزّقةِ صدحت من الراديو ولوهلةٍ ظنّ نفسه في بعثة ديلر والرجلُ البدينُ العظيمُ يفحص نبضَه خلال الليل، متمتما بصلواته ومُهَمْهِمًا مع تغريدة الفجر الأولى.

«إنّها مسافة مشي طويلة في الظلام لكنني أعرف الطريق. الجوّ باردٌ جدًّا على الأفاعي ولدينا ثلاثة أرباع قمر».

ارتعش إذ خرجا من السيارة وتصاعد بخارُ القهوة من الكوبِ في نور القمر. شمَّ الرائحةَ الحيوانية الغريبة الآتية من الزيت الذي دهن به أمادور بندقيتَه. في البعد ألقى حائطُ جبل بظلٍّ عظيمٍ التقطت من خلفه أطرافُ الصنوبر نورَ القمر المتلألئ. تتبّع بأصابعه غشاوة الصقيع على غطاء المحرّك، نفخ في يديه وتحسّس الـ(44.) خلف صدريّة الماعز الدافئة التي استعارها من ابنِ أخت أمادور. مشى حول السيارة ولمس كتفَ أمادور.

«انظر، ياصديقي. إن خرج الأمر من يدي، فلا تفكّر في غير إنقاذ نفسك. سيكون منطقيًّا لي أن أموت، لكن ليس لك».

«لا تقلق». تنفّس أمادور بعمق مشاهدًا البخار يصير باردًا ومرئيًّا. «حلمت في الأسبوع الماضي أنني سأموت عجوزا، تدري، في كرسيٍّ هزاز على رواق مزرعتي الصغيرة. أنا أثق بأحلامي». ثم ضحك، «وبمهاراتي. هذا هو الشيء الوحيد على الإطلاق الذي كنتُ جيّدا فيه».

مشيا المسافة الطويلة في صمت شامل متتبعين دربًا رعويا ملتفًّا. توقّفا مرة لمشاهدة فضّةِ جدولٍ تلمع بعيدًا في الأسفل. ارتاعا من أيّل طويل الأذنين جاء يخبط خلال الدغل لكنّ صوت ذئاب السهوب تباعد شيئا فشيئا.

بلغا الموضعَ مبكرا ووقفا عند الجدول يدخّنان. ثم طلع الضوء الأول من الشرق مثل لطخة رماديّة باهتة خلال عنق الأخدود. صحت الطيور بعدئذ، ومشى أمادور إلى شجرةِ حورٍ على بعد عشر ياردات من الدرب.

«تجلس أنت هنا تحت الشجرة. أمّا أنا فسأختبئ وراء جانب التل. سيخالك تيبورون شبحًا. أرِه يديك مستسلمَتَين وفارغتَين حتى لا يظنّكَ

مسلَّحًا. وثق بي».

«بالطبع. وماذا أملك غير ذلك؟» تصافحا وشاهد كوكرن أمادور يتسلّق بسهولة جانب التل والبندقية تتمايل من الرباط على ظهره. لوّح بيده عندما توقّف أمادور والتفت، ثم قعد تحت الشجرة وحدّق في المرج الصغير جوارَ الجدول. قعد ساكنًا لوقت طويل حتى إن الطيور حطّت بالقرب وظبيةٌ مع شادنِها شرِبا من الجدول. قعد خلال مآسيه حتى لم تعد ثمّة فكرةٌ ودَفِئ الفجر ولم يعد يستطيع رؤيةَ نَفَسِه. مرّ غرابٌ مانحًا إيّاه نظرةً جانبيّةً ونعقةً حائرة. ظهر أوّل نسر مجنّحًا في الشمس بعيدًا عن ظلال الأخدود الباردة. كان يشاهد النسر حين سمع الأحصنةَ أوّلَ مرّة في البعيد. ثمّ كَلبَا تيبي، ذكر وأنثى من سلالة بوينتر الإنجليزية، عبرا بسرعة، ثم التفّا إذ أحسّا رائحتَه. اقترب الذكر يهرّ فيما لزمت الأنثى الدرب، متطفّلةً، ومتحمّسة. أسكتَ الذكرَ فأقعى يهز ذيله ضاربًا به الأرض. مسح على رأس الكلب وأشار بيده، والكلبان، مطيعَين لإشارة يده، انطلقا بحثًا عن السمان.

كان المجنون متقدما لكن سرعان ما ظهر تيبورون في المشهد خلفه عندما صهل حصانُ المجنون وانثنى عند رائحةِ الرجل تحت الشجرة. كلاهما رآه في الوقت ذاته وهو ينظر نظرةً فارغة خلالهما. رفع المجنون بندقيته ورفع تيبورون يده ليقول لا لحظةَ اخترقت طلقةُ أمادور الأولى رأسَ المجنون، طارحةً إيّاه عن السرج. الطلقتان الأخريان أرسلتاه يتمدّد على العشب. كبح تيبورون جماح حصانه بينما الحصان الساقط راكبُه فرّ عاديًا. ثم ترجّل تيبورون دون أن يلتفت إلى الرجل الميّت. ربط حصانَه في أجمة وتنهّد تنهيدةً عميقة. توقف تيبورون قدّامَه ثم فجأةً من بين فخذيه وخارجَ مدى نظرِ أمادور كان في يده سلاحٌ وكان كوكرن يحملق خافضًا بصرَه في ثقب ماسورة البندقيّة الأسود.

«ربما يجب أن يموت كلانا الآن»، همس تيبي.

«ربما»، أومأ كوكرن ببرود. تيبي كان محمرَّ العينين ومرهقا، تفوحُ منه رائحةُ ويسكي البارحة. هزّ تيبي كتفيه وتطلّع في فروع الأشجار قانصةً أوّلَ أشعّة الشمس دخولًا إلى الأخدود. رمى السلاحَ في كتلة عشب.

«أسألك سيّدًا محترمًا وصديقًا قديمًا أن تطلب مغفرتي على أخذك زوجتي بعيدًا مني».

«اغفر لي أن أخذتُ زوجتك بعيدًا منك».

وقف الرجلان كلاهما بعدئذ ونزل أمادور من جانب التل هازًّا رأسه عند المسدس في العشب. مشوا على الدرب نفسه الذي تبعه في الليل كوكرن وأمادور. في السيارة شربوا بيرةً فاترةً بتعطُّش وتحدّث تيبي وأمادور عن الجبال.

وصلوا إلى الدير ظهرًا والرئيسة انصدمت من الظهور المفاجئ لسنيور مندز ومن الشرّيرَين المتعرِّقَين في صحبةِ شريفٍ مثله. اعتذرت لتيبي على الحالة السيئة التي باتت عليها زوجتُه وقالت أنّ الطبيب كان معها. وضع تيبي ذراعَه على كتفها وابتسم.

«أيُّ نوعٍ من الإشاعات طرق أذنيك؟ إنّها زوجة صديقي هنا. اعتني به».

قادته المرأة إلى غرفة ميريا حيث قعد كوكرن على طرف السرير، ثم مال عليها مقبّلا شفتيها المجروحتين والمحمومتين. أتى الطبيب إلى الباب حيث وقف تيبي وأمادور ناظرَين كلٌّ إلى قدميه.

«أشك أنّ هناك ما يمكن تقديمه لها. إنّها أوهنُ من أن تتحرّك».

انقبض وجه تيبي وهسّ قائلًا: «عالجها وإلا وضعتُ قلبَك في فمك،

أيّها الخنزير اللعين». أمادور أبعد تيبي والطبيبَ المرعوبَ عن الباب. رئيسة الدير وقفت لحظةً ثم لحقت بهم إلى أسفل الممرِّ مُتأوِّهةً مصلِّية.

كوكرن قعد هناك ظهيرتَه وليلتَه- شاربًا قهوةً، ممسكًا بيدي ميريا، مداعبًا طُرّةَ شعرها، ذارعًا الغرفة كلّما دخل الطبيب. مع الشروق استعادت الوعي وتعانقا بلا كلمات. نامت لبعض الوقت وغفا على الكرسي حتى أيقظه حرُّ الظهيرة. ثم اضطروا لتقييده عندما أجرى لها الطبيب عملية ثقب القصبة الهوائيّة كي يسهِّل تنفُّسَها ثمّ باتت على مشارف الموت لليلةٍ أخرى ونهارٍ آخر. رقد على الأرض في الليل رافضًا كلَّ فكرة، مستمعًا إلى أنفاسها الخشنة كأنها تَكشِطها كشطًا خلالَ وحدة التنفّس التي جلبها أمادور من البلدة. الوقفات بين أنفاسها تطول أحيانًا طولًا يعذّبه ثم تغدو قصيرةً ومتقطّعة. وعندما لم يطق الاحتمال أكثرَ جرى إلى الباحة وصرخ. أُشعلت الأضواء وردّدت المريضات صرخاتِه سامعاتٍ صوتَه المميّز لأوّل مرّة. أمادور وتيبي والطبيب هرعوا راكضين من مكانهم المؤقت في المطبخ. قاومهم حتى أخمده أمادور ممسكًا بخناقه. ساعد تيبي على تثبيته وأعطاه الطبيب حقنةً منوّمَة.

بعد ساعات عندما استيقظ على فرشته في غرفةٍ غريبة وقف ولمح الشمس الحارّة خلال قضبان الشباك. وجد طريقه إلى المطبخ وسكب كوبًا من القهوة بينما قعد أمادور وتيبي والطبيب حول الطاولة. تحاشى الطبيبُ بتوتّر نظرتَه.

لاحقًا بعد ظهر اليوم الثالث استعادت ميريا الوعي. تكلّم بلهفة وعجلة كلامًا غير مترابط في معظمه. ركض إلى الطبيب الذي هزّ كتفيه مغلوبًا على أمره وتبعه إلى الغرفة وضمّد لها حلقها. حملها كوكرن إلى الحديقة حيث جُمِع المرضى كالقطيع لتناول العشاء. الصغيرات المتوحّدات مررن بهما دون أدنى لمحة، نائحاتٍ أشجانَهنّ الخاصّةَ مثلَ طيورٍ أرضيّةٍ مبحوحةٍ لا أحد على الأرض يتجاوب مع معاناتها. حملها على ذراعيه قريبةً منه متذكّرًا خفّةَ

طائرٍ ميّت أخرجه من أجمة في غابات إنديانا. تكلّم مرّةً أخرى مستعجِلًا محاولًا أن يستبقيها حيّةً بالطاقة الحيّة في كلماته: كأنّما انفتح دماغه وغاص فيه، ومشطه، وحفره، مستخرجًا أيّ سرٍّ يملكه ليُلبِسَها لباسَ العافية. وضع قلادةَ أمّ ماورو حول عنقها متذكّرا برعب أنّها قالت أنه سيأخذ ثأرَه من أعدائه فقط. ابتكر كونًا من الكلمات لكنّها كلماتٌ ليس إلّا. أوجد طفلًا من العدم ليمشي معهما إلى إشبيلية وابتسمت وأومأت نعم. شارفَ الشفقُ على الغياب وشاهدهما أمادور هادئًا، من وراء عمود. منع الطبيبَ من الذهاب إليهما. طلع نصفُ القمر، هبّت الريح لكنّها أقْصَرَت ونفحةٌ حرّكت الأزهار من شجرة لوز. واصل كوكرن همسَه ثم حين هبط ظلامٌ كاملٌ غنّت هي الأغنيةَ التي كان يعرفها جيّدًا بصوتٍ أجشّ علا خافتًا بالكاد على الأزيزِ الصيفيِّ لحشرةِ زِيز. لقد كانت تغنّي أغنيةَ موتها وعَبَرت من الحياة ناظرةً إليه قاعدًا هناك فيما روحها انفصلت برفقٍ مثل غيمةٍ تنقشع. بدأت تمطر وطائرٌ على شجرةٍ فوقهما غنّى بصوتٍ رقيق كما لو كان روحَ شخصٍ من المايا تحاول أن تكابد عناءَ الطريق عائدةً إلى الأرض.



خاتمة

كان رجلٌ واحدٌ يحفر تحت الشجرة ورجلان يشاهدان. حفر الرجلُ بعزيمة آلةٍ، مستخدمًا فأسًا لجذور الشجرة، معولًا للصخور، ومسحاةً للتربة الثقيلة. لاحظ تجزيعاتِ التربة وتحزيزاتِها بينما هبط في الأرض في ظهيرةِ يومٍ قائظ. الرجل المسمّى أمادور قعد على مصطبة وسحب قبّعتَه المكسيكية إلى أسفل وغنّى بصوت خافت. الرجل المسمّى تيبورون، تيبي، سنيور بالدسارو مِندِز قعد على المصطبة وأمسك بوجهه في يديه إذ حفر الرجل بطاقةٍ فظيعةٍ، منهجيّةٍ، حتميّة. رئيسة الدير شاهدت مع قسٍّ ضجِرٍ بعضَ الشيء من تحت الرواق. مريضاتٌ تسكّعن جيئةً وذهابا، ملتهياتٍ بالنشاط القائم. تابوتٌ صنوبريٌّ موضوعٌ على مِسندَين خشبيّين. على التابوت باقةٌ كبيرةٌ من الزهور البريّة تُركت لتذبلَ في الشمس. عندما حُفِرَت الحفرةُ توقّف الرجلُ، يتصبّب عرقًا، ثم سحب نفسه من فوق شفير القبر. جثا على كومة تراب وانسلّ الرجلان من على المصطبة وجَثَوا إلى جواره. القسّ والراهبة تقدّما والحشد المجنون خلفهما. صلّى القسّ لروحها صلاةً قصيرة وأنزل الرجلان التابوتَ في القبر. الرجلُ الذي حفر الحفرة أنزل نفسَه في الأرض، جثا على ركبتيه وقبّل الزهور. أخرج نفسَه من الحفرة، حمل المسحاة ورمى رميةً من ترابٍ سوف يَسْمَع وقعَها على سريرِ موته.